د. أحمد خالد توفيق

الآن نفتح الصندوق

الكويت
2007



د. أحمد خالد توفيق

لم يترك لنا الدكتور (محفوظ) إلا هذا الصندوق في قبو داره .. الصندوق يحوي مذكرات وملاحظات عن تلك القصص الغريبة التي مرت به في حياته.. تعالوا نفتح الصندوق الآن.. تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو ونطالع واحدة من تلك القصص ..



قبل أن نفتح الصندوق...

«الحياة صندوق من الشيكولاته .. لا تعرف أبدًا ما قد تظفر به».. هذه هي العبارة المحورية الساخرة في فيلم (فورست جامب)، والتي تلخص أهم مخاوف طفولتي .. الصندوق المغلق .. كم هو ساحر!.. كم هو غامض!.. كم هو مخيف!... ماذا ينتظرنا لو فتحنا الصندوق؟.. تتكرر هذه التيمة كثيرًا في قصص ألف ليلة وليلة وفي الأدب عامة .. حتى شكسبير نفسه لم يفلت من سحر الصندوق المغلق في مسرحيته (تاجر البندقية)...

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد .. كنز من الياقوت والعقيق .. أسرار القنبلة الذرية .. جثة متحللة .. يد مومياء .. قلادة (فلاد) .. صور مصفرة حال لونها .. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة .. صرصور .. عنكبوت .. لا شيء ..

لهذا ـ عندما كتبت هذه المجموعة من القصص القصيرة ـ اخترت لها صيغة الصندوق المغلق .. لقد توفي الدكتور (محفوظ) أستاذ الأدب الإنجليزي الحكيم واسع التجارب، فلم يترك ـ كما هي عادة هؤلاء المحترمين في كل مكان وزمان ـ أي مال لأهله .. فقط ترك مجموعة من الأوراق البالية تحكي خبراته المرعبة مع عالم الميتافيزيقا .. الحكماء واسعو الخيال سوف يجدون ميراثًا مهمًا في الصندوق .. الأشخاص الطبيعيون سوف يتخلصون من هذه الأوراق في أقرب صندوق قمامة وهم يسبون ويلعنون الفقر والغباء معًا .

ماذا يوجد في الصندوق؟.. أردت في البداية ألا يوجد في الصندوق إلا مجموعة من القصص المثيرة أو المحركة للخيال، لكن وسواس المعلم الذي يغلبني أحيانًا قهرني، وجعلني أفضل أن أقدم مزيجًا من القصة والمقال التثقيفي القصير، وبهذا لا أشعر أنني أضعت وقت القارئ في مجرد خيالات ابتدعتها .. في كل مرة هناك كلام عن ظاهرة غريبة، ثم تأخذ الأحداث مجرى قصة. إن مقاييس القصة القصيرة لا تنطبق بدقة على هذه المجموعة، لكنها نوع خاص من الفن ربما أطلق عليه اسم (مقروائية) أو (حقال) أو أي اسم يجمع بين القصة والمقال معًا ...

ماذا نعرف عن عالم ما وراء الطبيعة؟.. لا شيء في الواقع .. كل هذا قد يكون حقيقيًا وكل هذا قد يكون وهمًا من عقول هستيرية.. سنموت دون أن نعرف الإجابة، وتلك هي المأساة الحقيقية .. وقد حرصت في كل هذه القصص على أن تبقى علامة الاستفهام تحوم حولنا في النهاية .. ربما نعم .. ربما لا ...

لقد مات د. (محفوظ) دون أن يعرف إلا أنه جابه أشياء غريبة حقًا .. نحن كذلك سنموت دون أن نعرف، ولسوف تشعر بهذا الشعور مضخمًا قبل الأوان بعد قراءة هذه المجموعة من الأوراق .. عندها سوف تغلق عينيك وتجيب عن السؤال المهم: هل استمتعت بالقراءة؟.. هل حركت هذه القصص خيالك؟.. هل أخذتك من يدك إلى دهاليز مظلمة لم تجتزها من قبل؟....

لو كانت الإجابة (نعم) فأنا قد نجحت، وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي ...

الآن تعالوا نشعل شمعة تبدد ظلام القبو ..

تعالوا نفتح الصندوق معًا ...

تأثير الفراشة

يطلق عليه العلماء اسم (تأثير الفراشة) نسبة لقصة (راي برادبوري) الشهيرة عن الرجل الذي عاد إلى الماضي ليقتل الديناصورات.. لقد تم ترتيب كل شيء والديناصورات التي سيقتلها هي فقط تلك التي تم وضع علامة مضيئة عليها لأن هذه ساعة موتها على كل حال؛ أي أن قتلها لن يحدث أي تغيير في مجرى الزمن.. هكذا عاد الرجل وراح يتسلى بإطلاق الليزر على تلك الوحوش، لكن حدث خطأ ما جعله يطأ فراشة وسط الأوحال، وبدا هذا تافهًا.. حينما يعود لزمننا يكتشف أن كل شيء تغير وحتى شكل المباني ولون السماء.. إن الفراشة التي سحقها ربما كانت ستتطور إلى شيء أكبر.. وتراكمت التغيرات على مدى ملايين السنين لتصير هائلة..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) وهناك فيلم سينمائي شهير بذات الاسم، فلا تعتقدوا أنني سرقت قصته من فضلكم.. إن مصطلح (تأثير الفراشة) لم يحتكره أحد..

يطلقون عليه اسم (تأثير الفراشة) لكنه يتمشى مع تعبيرنا العربي الخالد (ومعظم النار من مستصغر الشرر)..

****

كنت منطلقًا بسيارتي على الطريق السريع.. تعرفون أنني أسوأ سائق في العالم ربما بسبب ضعف البصر أو لأنني تعلمت القيادة في سن يفضل الناس أن يموتوا فيها.. إنه الليل وصوت أم كلثوم ينبعث من قناة إذاعية مجهولة.. هذا يجعل وزن جفنيك طنًا... هكذا نمت.. ليس بوسعك أن تقسم أنني نمت لكني أعرف أن هذا حدث لجزء من الثانية ثم فتحت عيني على الجحيم..

فتحت عيني لأجد أن الطريق زلق.. زلق اكثر من اللازم.. وضغطت الفرملة فقط لأكتشف ان هذا مستحيل.. السيارة تواصل طريقها بحماس مشبوب... رحت أضغط وأرفع قدمي.. ذلك العمل الذي يصفه الميكانيكية بأنه (المكاركة).. لكن (المكاركة) كالعادة تفلح معهم ولا تفلح معي..

وداعًا د. (محفوظ).. كانت معرفتك لطيفة وكان وجهك في مرآتي يطمئنني على أن الكون بخير..

السيارة تنقلب مرة.. ثم مرة.. ثم وجدت أنها ملقاة على جانبها الأيمن، وأنني أتحسس الباب وأنا أشعر أن هناك من يدق مخي بيد (الهاون)..

هناك شخص متحمس ما فتح الباب وشدني للخارج.. وفي النهاية وجدت انني ملقى تحت جذع شجرة وأن حوالي خمسة اشخاص يسكبون على وجهي الماء.. ربما يبصقون أيضًا..

قال لي أحدهم:

«حصل خير والحمدلله.. لقد كان الطريق مبتلاً.. سيارات المطافئ أغرقت كل شيء والمشكلة هي ان حرائق البنزين صعبة..»

رحت أحاول استجماع ما حدث.. مطافئ وحرائق بنزين؟.... لم أر شيئًا من هذا.. ثم نهضت.. إنني سليم لم يتحطم شيء.. فقط هي الصدمة العصبية لا اكثر.. أعتقد أن أنفي نزف بغزارة لكن هذه الأشياء لا تستمر.. ونظرت لبعيد..بالفعل هناك محطة بنزين عند الأفق.. ومن الضوء الراقص أقدر أن هناك حريقًا.. سيارات إطفاء.. فوضى عارمة.. صراخ..أنظر للوراء فأرى كافتيريا وصيدلية عند ذلك الجسر الذي يستخدمه من يعبرون الطريق السريع راجلين..

مشيت مترنحًا إلى حيث كان الزحام في محطة البنزين..

القصة واضحة... توجد سيارة لوري عملاقة تقف وسط المحطة والدخان ينبعث منها لعنان السماء.. واضح ان جهود السيطرة بدأت تفلح ،لكن النتيجة كانت فوضى عارمة.. الطريق كله زلق مبتل والدخان يجعل من الصعب أن ترى يدك.. وهناك عدد من المارة المتطوعين ورجال الشرطة يقفون حاملين الكشافات ليجعلوا السيارات القادمة على الطريق السريع تهدئ سرعتها.. طبعًا هذه الأساليب تنجح مع الجميع ما عداي.. دنوت أكثر وبرغم الفوضى العامة وضعت يدي على كتف أحد عمال محطة البنزين وسألته عما حدث..

كان شابًا أسمر مذعورًا قال وهو يجفف عرقه ويسعل من فرط الدخان:

«السيارة اللوري كانت مشتعلة.. كانت محملة بأجولة القطن.. وقد وثب سائقها منها هاربًا.. عندها واصلت طريقها لتقتحم المحطة.. لولا رحمة الله لتحولنا إلى بخار..»



ثم اشار إلى رجل يقف وسط الزحام وقال:

-«هو ذلك الأحمق.. لن يتركوه»

وعلى بعد خطوات وجدت السائق الباكي ممزق الثياب متورم الوجه من كثرة الضرب، يقول لضابط متشكك متحمس:

-«أقسم بالله يا باشا.. لم اعرف كيف حدث هذا.. فقط نظرت في المرآة فوجدت ان حمولتي كلها تحترق.. هكذا وثبت من السيارة ولم أعرف أنها ستدخل المحطة.. لم أفكر وقتها إلا في النجاة..»

هنا تدخل رجل قصير القامة يضع عوينات سميكة ليقول:

-«الحق ما قال يا حضرة الضابط.. لقد مرت سيارته تحت الجسر هناك.. أنا كنت في سيارتي وراءه ورأيت المشهد.. رأيت رجلاً يقف فوق الجسر يلقي بلفافة تبغ مشتعلة... ثم اشتعلت النيران في القطن بسرعة وساعد الهواء على ذلك.. حتى لما بلغ هذا الموضع كانت حمولته كلها تحترق.. لقد أصيب المسكين بالذعر ووثب من السيارة غير مقدر خطورة الأمر..»

قال الضابط في غيظ:

-«ومن المخبول الذي يلقي لفافة تبغ على أجولة قطن؟»

-«ومن الذي لا يفعل ذلك؟... إن الاستهتار هو الموضة هذه الأيام..»

بالفعل من العسير اليوم أن تجد ذلك الرجل التقي الحكيم الذي يرى سيارة لوري محملة بالقطن فلا يلقي لفافة تبغ على حمولتها..لو قابلت هذا الرجل يا ابنتي العزيزة فلا تتركيه للأبد.. إن القصة قد انتهت وهي موجعة أليمة، وهذه الأجسام المتفحمة الواقفة وسط الدخان هي نصب تذكارية للاستهتار.. لكن لنحمد الله على انه لا توجد جثث..

نهضت مفكرًا في سيارتي البائسة.. لابد من إعادتها إلى وضعها الطبيعي فهل تتحرك عندئذ؟.. ما مدى ما أصابها من دمار؟.. تمكنت مع بعض المتطوعين من تقويمها وأدرت المحرك فسرني أنه ما زال يعمل.. حتى ام كلثوم لم تنه أغنيتها بعد.. هناك أشياء طيبة في هذا العالم برغم كل شيء.. هكذا انطلقت بسرعة السلحفاة أبتعد عن المشهد..

مشيت بسيارتي بضعة أمتار حتى بلغت الجسر العرضي الذي



يصعد له من أراد عبور الطريق السريع .. وهنا شعرت بأنني بحاجة إلى قدح قهوة قبل ان اواصل رحلتي الرهيبة.. لا مزيد من النوم خلف عجلة القيادة..هكذا دخلت الكافتيريا شبه الخالية الغافية تحت أقدام الجسر، وطلبت من النادل قهوة سوداء مركزة.. رأى حالي فأحضر لي منشفة متسخة مبتلة أزيل بها الدم عن صدر قميصي، وسألني عما إذا كنت قد أصبت في حادث الحريق فقلت له إنني أصبت لكن بشكل غير مباشر.. أصبت بسبب الماء لا النار.. فقال:

«يقولون إن هناك رجلاً ألقى لفافة تبغ على اللوري..»

«هذا ما يقال..»

قال النادل وهو ينظر حوله:

«هذا صحيح على الأرجح.. بيني وبينك يا سيدي.. أنا رأيت ذلك الرجل..»

«رأيته؟»

«نعم.. كانت هناك فتاة حسناء تجلس هنا ... في كافتيريا كهذه وساعة كهذه لابد أنها تنتظر رجلاً.. ظلت تنتظر طويلاً... ربما ساعة او اكثر.. قلت لنفسي من الأحمق الذي يعطي موعدًا لهذه الفاتنة ثم لا يأتي قبلها بشهر؟.. ثم ظهر رجل طويل له شارب كث وجلس معها.. يبدو انهما كانا يتشاجران.. واضح أنه تأخر كثيرًا على موعدها وهي لم تقبل أية أعذار.. وفي النهاية نهضت في عصبية وألقت بورقة مالية على المنضدة وغادرت المكان أما هو فظل جالسًا بعض الوقت.. بعدها أشعل لفافة تبغ في عصبية.. انصرف فلم اعترض لأن الفتاة دفعت.. رأيته يصعد درجات الجسر ومن الواضح أنه وقف فوقه يرمق الطريق شاردًا بعض الوقت..»

«هل تعني أنه؟»

«ضع نفسك مكانه.. متضايق حزين.. ينهي لفافة التبغ ثم يتخلص منها غير عالم ان ما يمر تحته هو سيارة لوري محملة بالقطن..»

كانت القهوة سيئة.. كما احبها بالضبط.. هكذا نقدت الفتى ماله ودست قرصين من الأسبيرين في فمي كي أقضي على هذا الصداع، ثم شكرته واتجهت إلى الباب، وفجأة سمعته يصيح:

«هذا هو يا أستاذ»

هذا رجل طويل القامة شاحب الوجه له شارب كث.. لا يوجد كثيرون بهذه الأوصاف.. لقد دخل إلى الكافتيريا فهرع النادل نحوه وصاح وهو يمسك بتلابيبه:

«هل تعرف ما سببته؟»

بدا الرجل محاصرًا.. من الواضح أننا لن نتركه.. ولم يبذل أي جهد لينكر أو يكذب.. إنه يعرف بالضبط حدود الضرر الذي سببه عن غير عمد وهو يحترق ندمًا.. هكذا طلب أن نسمح له بالجلوس ثم بدأ يتكلم.. قال:

«لنقل إن المودة كانت تربط بيني وبين تلك الآنسة التي....»

قال النادل في نفاد صبر:

«كنت تحبها.. وكان هذا موعدًا بينكما.. دعك من الحذلقة فلسنا طفلي الأمس..»

نظر له الرجل وابتلع ريقه وقال لنا إنه كان ينتظر هذا الموعد منذ دهر، لكنه تأخر عنه.. وهكذا رحلت حبيبته.. لقد كان متجهًا إلى موعدها قبله بنصف ساعة، لكن تعطلت سيارته.. والسبب هو أن بنزينها نفد.. هكذا اضطر إلى المشي حتى يلحق بالموعد وقد بلغه متأخرًا ساعة كاملة..الأمر الذي لن تغفره أية فتاة في العالم..

«لقد ظلت جالسة كل هذا الوقت كي تنفث غضبها في وتهينني وترحل..»

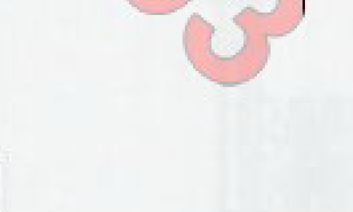
قلت له متمهلاً:

«ما دام الأمر مهمًا بالنسبة لك لهذا الحد فلماذا لم تستقل سيارة أجرة؟.. لا يبدو لي وقتًا مناسبًا لتتحلى بفضيلة الاقتصاد..»

قال في خجل:

«لأنني لم أكن أملك أجر التاكسي.. وبالطبع لم أكن أملك ما يكفي ثمن البنزين»

قلت مغتاظًا:



«إذن ماذا كنت تنوي عمله في موعدك؟.. تطلب كوبين من الماء؟.. من حسن حظك أنها غضبت وألقت بثمن ما شربته وإلا لقضيت ليلتك في المطبخ».

«لم يكن هذا ضمن خطتي.. كان معي ما يكفي من مال.. وخرجت من داري مفعمًا بالأمل، ثم شممت رائحة الشواء تنبعث من مطعم.. كان عندي متسع من الوقت وأنا لم آكل شيئًا طيلة اليوم من فرط الترقب واللهفة.. هكذا قررت أن أتناول وجبة سريعة.. لكني حينما دخلت المطعم لم أستطع التحكم في شهيتي وأكلت كثيرًا جدًا.. وفوجئت بأن ما معي من مال يكفي فاتورة الحساب بالضبط ويبقى جنيهان ربما يكفيان لنفقاتها .. هكذا دفعت وخرجت وأنا آمل أن يكون في السيارة ما يكفي من بنزين.. طبعًا اتضح ان أملي كاذب.. لقد تعطلت السيارة في أسوأ وقت.. هكذا قررت أن أمشي.. ويبدو لي أنني مشيت قرونًا..»

رحت أفكر في الأمر.. يا للعاشق الشره المفلس !.. فيما مضى كنت احسب أن الحب يملأ المعدة حتى بدأت أحسب المعدة والقلب يشتركان في تجويف واحد، لكن هذه القاعدة لا تنطبق هنا في مصر.. الحب يفتح الشهية، وقديمًا تكلم الساخر العظيم (أحمد رجب) عن (الغدة الأكلوغرامية) التي تفرز هرمون (الطفاسين) وقت اللقاء العاطفي..

تأثير الفراشة.. هذا هو ما يمكن ان نسمي به هذا التفاعل المتسلسل من الأحداث.. هو جاع فأكل كالمحرومين فنفد ماله.. هكذا نفد البنزين وتأخر عن موعده.. من ثم فقد حبيبته.. في غل ألقى بلفافة تبغه من فوق الجسر.. اشتعلت السيارة.. اقتحمت محطة البنزين.. انزلقت سيارتي على الأسفلت المبتل..

كل هذه السلسلة الجهنمية كان يمكن قطعها بتغيير واحد.. لو لم يأكل الكباب.. لو بقي بعض البنزين في السيارة.. لو لم تسقط اللفافة على اللوري.. لو لم يختر اللوري وجهته بدقة.. لو لم أنم أنا...

قلت له في شيء من سخرية لم يفهمها:

«لو لم تغلبك رائحة الكباب لما تهشم أنفي أنا.. هل تتصور هذا؟»

لكنه نظر لي في غباء ولم يستوعب حرفًا.. أعتقد أنه لم يسمع قط عن تأثير الفراشة.

أسرة لطيفة

الورقة الثانية التي خرجت من الصندوق تقول:

لأسباب يطول شرحها انعقدت صداقة بيني وبين آل (هالبروك)..

أنتم تعرفون أنني أدرس الأدب الإنجليزي، وكان المستر (إدوار
هالبروك) رب الأسرة يعمل مع إحدى الجامعات الخاصة المصري
للغرض ذاته.. أي أننا التقينا لنفس الأسباب التي يلتقي لها النجارون
والسباكون وفنيو التبريد في كل مكان: المهنة الواحدة..

إذن يمكننا أن ندرك أن إقامتهم كانت دائمة في مصر، وكان لهم بيت
لطيف في (المعادي) زرته مرة أو مرتين من قبل.. زوجته تدعى (مارثا
وهي امرأة في الثلاثين مهذبة بشوش، ولهم ابن في العاشرة من العمر له
مزايا وعيوب أي صبي إنجليزي آخر..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أرتجف أحياناً حينما أتعامل معهم؟

****

تلقيت دعوة العشاء في يوم عيد ميلادي بالضبط.. أعني أنني تلقيته
عشية عيد ميلادي لأنني من مواليد الأول من نوفمبر.. ولما كنت لم أنجب
وزوجتي مسافرة لزيارة والدتها المريضة، فقد خطر لي أنه من اللطيف
أن ألبي هذه الدعوة.. من الجميل أن تجد من حولك بشراً في اليوم الذي
ولدت فيه.. أما أن تجلس وحيداً في الدار تشاهد التلفزيون، فقد بدا لي
هذا آخر شيء ممكن..

أقف أمام مدخل البيت في التاسعة مساءً، حيث تلك الحديقة
المهندمة التي تفوح منها روائح نباتات غريبة.. إنه الخريف بكل م
يحمله من شجن.. ليل الخريف الذي يحمل رائحة ما لا أعرف م
هي، لكنها كانت تثير الرعب في نفسي أيام المدرسة.. مع الخريف
تنتهي سلطة النهار الطويل لتبدأ سلطة الليل.. تنتهي سلطة
اللهو لتبدأ سلطة المدرسة.. دعك من رائحة الجوافة التي تنبعث من كل
شيء!.. لكم أمقتها!

قلت للمستر (هالبروك) وهو يفتح لي الباب:

«تصور أن عيد ميلادي غداً؟»

«أعرف.. ليس غداً بل بعد ثلاث ساعات»

ويتنحى لي لأدخل، وأنا أتساءل عن المناسبة التي ذكرت له عيد ميلادي فيها.. متى؟.. بصراحة لا أذكر.. لكني بالتأكيد أخبرته لأني لست من المشاهير ولا أعتقد أن تاريخ ميلادي مذكور في دوائر المعارف..

أمشي وسط الحديقة...

على باب الدار أرى تلك القرعة التي تم إحداث تجويف في موضع العينين والفم فيها، مع إشعال شمعة داخلها.. هذا المنظر المألوف..(جاك في المصباح) كما يطلقون عليها.. لها مشهد موجس شيطاني كأنها عفريت يكشر عن أنيابه، مع تلك الضحكة الوقحة الشريرة الشبيهة بضحكات الجماجم..

نظرت له ضاحكاً فقال:

«لا تنس أن هذه الليلة بالذات هي (الهالوين).. إننا في الحادي والثلاثين من أكتوبر»

نسيت هذا طبعاً.. إن احتفالات الهالوين لا تمثل أي جزء من تراثنا طبعاً... لكنهم يحتفلون بها، ومن عاداتهم أن يضعوا القرع العسلي - اليقطين - على أبواب البيوت..

قال لي ضاحكاً:

«كنا معشر الأوروبيين نستعمل اللفت قديماً، لكن بعضنا نزح إلى الولايات المتحدة حيث لم يجد لفتاً ذا حجم مناسب.. لهذا اضطروا لاستعمال اليقطين.. إن هذه العادة إحياء لقصة قديمة عن شاب يدعى (جاك) منحه الشيطان مصباحاً في ثمرة لفت مفرغة..»

هززت رأسي موافقاً... على الأقل أنا أعرف عادات الغربيين في هذا الصدد... الأطفال يجولون حول البيت لابسين أقنعة مرعبة ويطرقون بابك قائلين: حلوى أم حيلة؟... بمعنى أن عليك أن تعطيهم كيساً مليئاً بالحلوى وإلا أزعجوك، وأطاروا النوم من عينك....

على الباب رحبت بي الزوجة مسز (هالبروك)، وكانت متأنقة بحق.. واقتادتني إلى داخل الشقة المريحة..



أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا لا أشعر براحة وأنا بينهم؟

****

العاشرة مساء..

لقد انتهى العشاء أو كاد ونحن نثرثر.. كانوا قد قضوا في مصر عام أو أقل ورأيهم هو الرأي المعتاد: الناس ودودون ظرفاء.. الطقس جميل. لكنكم تضيعون الكثير من الوقت..

تعود الزوجة من المطبخ حاملة صحفة عليها بعض حلوى التفاح والبندق.. وتقول ضاحكة:

«طقوس الهالويين تقضي بالتهام البندق وحلوى التفاح.. إنها اللمسات التي أضافها الرومان إلى هذا العيد»

ضحكت بدوري وملأت كفي بالبندق، وبحثت عن كسارة في مكان ما.. هنا رأيت للمرة الأولى ذلك الوجه المطل علي حيث علق على الجدار.. إنه قناع أثري غريب الشكل..

رأى الزوج نظراتي فقال مفسراً:

«إنه يدعى (ساوين).... أحد أصنام قبائل الكلت.. إله الشمس عندهم إذا شئت الدقة.. أنت تعرف أننا قادمون من (ويلز)، وقد كان (ساوين) يُعبد هناك.. هذا القناع أصلي وأراه جميلاً..»

هززت رأسي في سخرية فقال:

«ما زلت متصلب الرأي.. ما زلت لا تصدق تلك القصص.. أنت تعتبرها خزعبلات، وأنا أرى أن منطقك هذا هش جداً.. تتحدث بثقة عن أشياء لا تفقه فيها حرفاً..»

«كلنا ذلك الرجل.. فأنت أيضاً لا تعرف الكثير عن هذه الأشياء»

كلاش ش!.. هذا طبعاً هو صوت تهشم البندقة..

قال لي (هالبروك) وأنا أملأ فمي بالبندق:

«إن الهالوين في الأصل عيد كانت تحتفل به قبائل الكلت.. لفظة هالوين هي اختصار لعبارة All Hallows even.. أي (الليلة التي تسبق يوم



كل القديسين).. وهي ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر.. لقد كانت عيداً كلتياً ثم قرر البابا (جريجوري الرابع) عام 834 ميلادية ـ بلمسة ذكية لا شك فيها ـ احتواء هذا العيد ليضمه إلى المسيحية.. وبهذا لم يظل عيداً وثنياً.. وصار مناسبة لتذكر القديسين..»

بعد دقائق سمعت من يزوم فنظرت للوراء مجفلاً..

كان هذا الشبح الذي يلبس ملاءة سوداء ويضع على رأسه قناعاً يشبه الجمجمة، يدنو مني فارداً كفه ليقول بصوت طفولي المفترض أنه مخيف:

«حلوى أم حيلة!»

مددت يدي إلى حلوى التفاح فقبضت على بعضها ودسستها في كف الصغير.. عندها أطلق زئيراً واتجه نحو الباب..

من جديد واصل (هالبروك) محاضرته:

«هذه عادة أوروبية أخرى اسمها (الترويح).. كانوا يمرون على القرى المجاورة يتسولون (كعكة الأرواح).. فإذا كنت سخياً معهم وعدوك بأن يصلوا أكثر كي يرحم الله أقاربك الموتى، وإذا لم تعطهم لعنوك.. مورست هذه العادة لفترة طويلة، لكن جملة (حلوى أم حيلة) لم تظهر على الساحة إلا عام 1950 في قصيدة نشرتها جريدة امريكية.. »

قلت له باسماً:

«أي أنه نوع من التسول المقنع.. غير أنني أرى أن المتسول الذي يلعن من لا يعطيه طريف حقاً..»

وضحكت وضحكوا..

أسرة لطيفة هي.. لكن لماذا أشعر بهذه الغصة في حلقي؟

****

منتصف الليل...

نظرت لساعتي وتنحنحت معلناً رغبتي في الانصراف.. بكل المقاييس لم تكن سهرة سيئة.. لكن (هالبروك) هز رأسه ونظر لساعته بدوره، ثم قال في إلحاح:

ـ«ليس قبل أن نحتفل بعيد ميلادك.. إن هذا سيضايق السيدة جداً»

ونظرت بجانب عيني فوجدت زوجته قادماً ترتدي ما يشبه عباءة طويلة سوداء، وتحمل كيساً من البلاستيك، وقد بدا عليها الاستعجال.. كدت أقول شيئاً مازحاً بصدد العباءة، لكني خفت أن تكون هذه موضة العام.. أنا لا أفهم شيئاً في ثياب النساء..

قالت له:

ـ«منتصف الليل.. هيا!»

هنا نظرت إلى باب الردهة لأرى الصبي قادماً وهو يلبس عباءة مماثلة، وكان ذهولي شديداً عندما رأيت (هالبروك) يأخذ من الكيس الذي تحمله زوجته عباءة أخرى، فيضعها على كتفيه..

قلت لهم في تهكم:

ـ«هل هذا حفل تنكري؟»

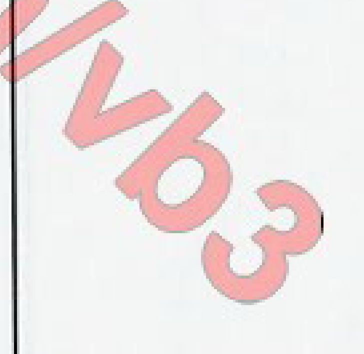
قال بلهجة لا مزاح فيها:

ـ«كلا.. تفسير هذا يستغرق وقتاً..»

ثم أخرج من سترته مظروفاً مغلقاً وقال وهو يناولني إياه:

ـ«اقرأ هذا بعد انصرافنا.. سوف نعود سريعاً مع المفاجأة.. صدقني إن هذا مرتبط بعيد ميلادك..»

وسرعان ما أشار لزوجته وابنه فانطلقوا مغادرين البيت.. وجلست وحدي كالأبله في البيت الخالي.. فجأة انقطع التيار الكهربي فوجدت نفسي في الظلام.. لم أرتبك كثيراً لأني وجدت شمعة على منضدة الطعام فأشعلتها بقداحتي.. وجلست أمامها..



أخذت نفساً عميقاً وفتحت الرسالة فوجدتها مكتوبة بخط نضيد انيق:

ـ عزيزي د. حجازي:

«أعرف انك ستغضب مني لهذا التصرف الغريب، لكن الأمر مهم فعلاً بالنسبة لنا.. لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تدرك أنك وحيد تماماً في المنزل وأنه لا سبيل لمغادرته لأن النوافذ مدعمة بالحديد والأبواب

موصدة.. دعك من أنك لا تستعمل الهاتف المحمول وخطوط الهاتف مقطوعة هنا..

«لم أحدثك عن عقيدتي الخاصة.. إننا ننتمي إلى العقيدة (الدرويدية Druidic) التي ينسب لها البريطانيون كل عادة غير مفهومة لديهم.. بالتالي نحن نمارس الهالوين بذات الطريقة التي كان أجدادنا الكلت يمارسونه بها.. يقال إن (ساوين) كان يستدعي أرواح الموتى جميعاً في هذا اليوم ليتولي تنسيقها. كان الكلت يهابون هذه الليلة ويستعدون لها بالنيران في الخلاء والأقنعة وربما بعض الأضحيات البشرية.. إنها بالنسبة لهم لا تمثل عيد (ساوين) فحسب، بل نهاية الصيف الجميل وقدوم الشتاء الرهيب الكئيب.. يقال أيضاً إن أرواح الذين ماتوا في العام الماضي تخرج بحثاً عن أجساد حية تسكنها.. في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت..»

وابتلعت ريقي ونظرت حولي إلى الشقة المظلمة ثم واصلت القراءة:

«كان الكلت يطفئون النيران في ديارهم ، ليجعلوا بيوتهم باردة غير مريحة للأرواح، ويلبسون أكثر الأقنعة إفزاعاً.. الأقنعة التي يمكن أن تخيف الأشباح ذاتها.. الآن أنت تفهم ما فعلناه ولماذا غادرنا الدار بهذه اللهفة.. على أننا تركنا للموتى هدية هي قربان بشري.. أنت قربان فريد لأنك مولود في الأول من نوفمبر.. وهذا يجعل (ساوين) راضياً عنا.. وهذا ما قمنا به في كل بلد ارتحلنا إليه من قبل، لكنها المرة الأولى التي نفعلها في بلدكم الجميل.. سامحني وأعرف أنك لن تحقد علي..

بإخلاص:

إدوارد هالبروك

ما إن فرغت من قراءة هذه الكلمات حتى هرعت أتأكد مما قال.. بالفعل لا توجد طريقة لمغادرة هذا البيت.. جربت كل الأبواب على ضوء الشمعة.. هززت النوافذ.. استعملت الهاتف لأسمع لا شيء.. صوت البلاستيك إن كان له صوت..

هذا الرجل يمزح.. هذه دعابة قاسية سمجة.. لا شك في هذا..

قال: «سامحني.. لن تحقد علي».. يا له من أحمق!.. لو قابلته لهشمت رأسه..

هنا سمعت الصوت..

هناك من يعبث في الباب الخلفي.. هناك باب خلفي للمطبخ في هذه الدار..

جريت على ضوء الشمعة إلى المطبخ.. وقفت خلف الباب فسمعت الصوت.. صوت أنين.. صوت عواء مكتوم.. بينما هناك من يداعب القفل بيده.. يدخل فيه أشياء...

كانت هناك شراعة صغيرة فجذبت مقعداً ووقفت عليه واختلست نظرة إلى الخارج.. إلى الحديقة الخلفية للدار.. كان الظلام دامساً بالفعل.. لكني رأيت ثلاثة.. أربعة أشخاص مدثرين بالأبيض يقفون وراء الباب ويحاولون فتحه في لهفة.. أبيض؟... أكفان؟

ترجلت وركضت نحو الباب الأمامي.. الشمعة انطفأت.. لابد من لحظة كي أشعلها... هناك من يعبث به.. هذا أكيد.. هناك من يدخل جسماً معدنياً فيه....

«في هذه الليلة بالذات تتلاشى الحواجز بين العالمين، ويصير الموتى قادرين على اقتحام البيوت».

*****

الطابق العلوي!

نسيت أن هذه الدار ذات طابقين..

أنظر لأعلى إلى مصدر الصوت فأسمع ذات الصوت.. هناك من هو آت من الطابق العلوي وهو يئن بلا انقطاع.. ثمة شعلة تتوهج.. . أراها تتحرك ببطء قادمة من أعلى.. . . .

أركض إلى الباب الأمامي واقف وراءه أصغي لمحاولات الاقتحام..

ثمة نافذة مطلة على الحديقة تنفتح ببطء.. أرى يداً تدخل منها.. لن تستطيع الدخول لأنها مدعمة بالحديد..



لكن.....

أركض نحو المائدة التي كنا نأكل عليها.. أبحث عن سلاح ما.. في النهاية أقرر أن أزحف تحتها مختبئاً... كم سيطول الوقت حتى يجدوني؟؟؟.. لن يطول.. هذا نوع من فرار الفأر من القط في غرفة مغلقة..

هنا سمعت صوت الانفجار إذ انفتح الباب الأمامي للدار....

انفتح مرة واحدة...

أخرجت رأسي من تحت المائدة ونظرت..

هنا رأيتهم يقفون في فرجة الباب.. كانوا مسربلين بالملاءات لكنهم لم يكونوا موتى.. كانوا أصدقائي في العمل.. حوالي عشرة منهم.. وكانوا يضحكون.. أحدهم يحمل تورتة عليها شموع وآخر يلتقط لي صورة بالفلاش حيث تواريت تحت المائدة..

وسمعت الإنشاد:

«هابي بيرث داي تو يو!»

و(هالبروك) يقول وهو يوشك على فقدان وعيه من فرط الضحك:

«دعابة قاسية.. أنا آسف!... لكنك أقنعتني بشجاعتك.. أنت بالفعل عقلاني لا تؤمن بالخرافات على الإطلاق!»

وخرجت من تحت المائدة وأنا ألهث.. كانت دعابة محكمة فعلاً ولا أنكر هذا...

تسألني عن أسرة (هالبروك)؟

أسرة لطيفة هي.. لكني لسبب ما قطعت كل علاقة لي بها منذ تلك الليلة.

****

دقـــات

توك.. توك.. توك!

دقات.. لكنها تختلف عن أية دقات أخرى.. ولهذا قصة أحكيها لكم الآن..

****

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. ربما كان الأمر كله هراء لكنه هراء مسل ومثير.. أعترف أن التفاوت بين البشر موجود في كل شيء.. أنا لا أستطيع تحريك أذني لكني أعرف أكثر من عشرة أشخاص يقدرون على ذلك.. بطل العالم في التنس ليس سوى رجل مثلي ومثلك لكننا نعتقد أنه خارق..وهذا يشمل الحواس ذاتها.. زرقاء اليمامة رأت الجيوش المعادية بينما قومها لم يروا شيئاً وحسبوها تخرف. د. (إيمانويل ليبمان) كان يسمع صوت اللغط على قلب طفلة قبل أن يسمعه زملاؤه الأطباء بأسبوع كامل، وكان من السهل عليه لو أراد أن يدعي امتلاكه لقدرة الاستبصار.. أعتقد أن المتمتعين بالقدرات الخارقة للحواس يملكون قدرًا أكبر من الإدراك.. إنهم (يحركون آذانهم) على نطاق أوسع..

ثم ذلك الرجل الذي دعاني للجمعية.. د. (جيمس ماتيسون).. ألا تراه طريفًا بقامته القصيرة وعصبيته وعينيه النافذتين؟.. وماذا عن البناية العتيقة التي تعود لعام 1882؟... تذكر أن هذا الباب الذي تجتازه اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس) وأدباء أكبر مثل (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لا تنس كذلك أن تعبير الإدراك الفائق للحواس Extrasensory perception هو من ابتكار هذه الجمعية، وهو ما صرنا نختصره بحرف إي إس بي ESP.. ربما قابلت هذه المواضيع تحت مسمى الباراسيكولوجي الذي يختصره كتاب الخيال العلمي إلى Psi ـ أو ـ psionics ..

ألا ترى معي أن هذا كله مثير؟

****

لن أدخل في تفاصيل.. أنت تعرف موضوع زيارتي لبريطانيا وكيف تعرفت د. (جيمس ماتيسون).. إنه ـ كما تعرف ـ طبيب نفساني لكنه من أعضاء الجمعية البارزين.. وكان هو نفسه يملك بعض الحيل الطريفة التي تعلمها من اليوجيين.. لكنه كان يندهش من انبهارك بها، ويقول في تواضع إنها مزيج من السيطرة المطلقة على العقل وقليل جدًا من خفة اليد..

قلت له:

«كيف وأنت رجل علم تؤمن بهذه الترهات؟»

قال بطريقته العصبية التي تقتضب الكلمات اقتضابًا:

«أنا لا أؤمن بها لكني أجرب.. أنا متعادل منذ البداية.. لهذا لا أطلق عليها ترهات ما لم أتأكد بطريقة علمية صحيحة من أنها ترهات..»

ثم استطرد قائلاً:

«هنا ندرس الإدراك الفائق للحواس وندرس التحريك عن بعد.. هناك أنواع عدة من الإدراك الفائق للحواس؛ منها التخاطر أو قراءة الأفكار أو قراءة العواطف، وهناك تحريك المادة عن بعد.. والاستبصار وهو رؤية المستقبل.. ورؤية أشياء ليست أمامك وسماع أشياء بعيدة ـ أما السايكومتري فهو قدرة الإحساس بمن لمس الشيء.. هناك كذلك موهبة التواجد في مكانين في الوقت ذاته.. ثم القدرة على إشعال الحرائق ذهنياً.. والقدرة على إحضار الماديات إليك..»

«وتعتقد أن هذا كله ممكن؟»

«أنا لا أعتقد.. أنا أدرس وهذا هو ما لا تريد فهمه»

ثم اقتادني إلى مختبر (جانتسفلد) الذي تم إدخاله عام 1974، والمعزول عن أية مؤثرات بصرية أو صوتية، حيث يجلس من يدعون أو يتساءلون عن قدرتهم على الإدراك الفائق للحواس.. هناك يكفون عن اعتبارهم بشرًا ويعتبرونهم (مواضيع).. كان (الموضوع) يجلس معصوب العينين أمام عالم يمتحنه.. ترى العالم يمد يده إلى مجموعة من البطاقات عددها خمس وعشرون بطاقة.. ثم يرفع إحداها في

الهواء ويطلب من (الموضوع) أن يخمن محتواها.. هذه البطاقات تدعى بطاقات (زينر) وعليها رسوم مختلفة مثل الصليب والدائرة والموجة والنجم.. الخ...

إذا استطاع الموضوع تخمين ست إلى عشر منها فهو يملك تلك القدرة.. إنه مشروع وسيط أو على الأقل يملك الحاسة السادسة..

«لماذا هذا الرقم بالذات؟»

«هذا نتيجة دراسات إحصائية مرهقة وضعها العالم الأمريكي (جوزيف بانكس راين).. وهي طريقة لاستبعاد عامل الصدفة.. إن النتائج مبهرة لكنها غير قابلة للتكرار.. (الموضوع) الذي ينجح عشر مرات في تجربة قد ينجح خمس مرات فقط في التجربة التالية.. بينما صفات الظاهرة العلمية الصحيحة يجب أن تتضمن قابليتها للتكرار..»

هنا جاء أحد العلماء يخبر (ماتيسون) أنهم مستعدون للتحرك.. جميل.. لقد حان الوقت.. لكن تحرك إلى أين؟..

كان الليل قد بدأ يجتاح المدينة.. وفي السيارة المتجهة إلى ذلك البيت الريفي خارج (لندن) أخبرني (ماتيسون) أنهم في الطريق لتطبيق عملي لخبرات الإدراك الخارق للحواس.. من حسن حظي أن أكون موجودًا أثناء التحري.. هذا يعطيني فكرة أفضل عما يقومون به هنا..

القصة هي البساطة ذاتها.. وهي التكرار بعينه..

في هذا البيت تعيش أختان عانسان.. (إميلي) و(جين).. كل العوانس الإنجليزيات اسمهن (إميلي) ويبدو أن هذه عادة استنتها (إميلي برونتي).. ولم يعكر صفو الأختين شيء طيلة حياتهما التعسة السعيدة حتى انتقلتا إلى هذا البيت منذ عام.. وهنا بدأت أشياء غريبة تحدث..

الأخت الكبرى مخيفة في حد ذاتها.. يصعب أن تصدق أن شيئًا يمكن أن يخيف هذه المرأة.. وهي تلبس ثيابًا لا تمت لهذا العصر.. دعك من حذائها الذي يذكرك بحذاء (الطنبوري) في تراثنا..لكنها تتحدث في رعب عن كلبهما.. إنه في أسوأ حالاته النفسية منذ جاء هنا، وهو يرفض بشمم أن يدخل قطاعات بعينها من البيت.. الردهة محرمة



عليه.. مواضع بعينها في الحديقة.. الكرار.. إنه يقف هناك متصلبًا ويصدر صوتًا يثير الشفقة.. أما لو حاولت أن تدخله برغمه فإن شعر عنقه يتصلب ويزوم بتلك الطريقة المنذرة بالويل، والتي تسبق تمزيق حنجرتك..

الأخت الصغرى مثيرة للتوجس.. إنها تحكي عن صوت الدقات التي تدوي في أرجاء البيت ليلاً.. دقات لا يمكن معرفة مصدرها.. إنها قادمة من كل مكان ولا مكان.. وهذه الدقات لا تحدث إلا وهما موجودتان.. أي أنها لم تحدث قط لشخص منفرد في المنزل.. فيما عدا هذا هناك شهود محترمون..

إلام تفضي هذه الدقات؟..

قال د. (ماتيسون):

«هذه هي القصة المعتادة.. حسب كلام المؤمنين بهذه الأشياء غالبًا ما تشير الدقات بعناد إلى مكان في الجدار.. هذا المكان نجد فيه جثة مدفونة منذ عقود..طبعًا روح صاحب الجثة هي التي كانت تدق..»

سألته في تهكم مهذب:

«وكلام غير المؤمنين بهذه الأشياء؟»

«يطلقون على هذه الدقات اسم Rappings.. إنها نوع من قدرات التحريك عن بعد لكنه لا إرادي.. أي أن الشخص الذي يعاني هذه الظاهرة يقضي أسود ليالي حياته غير عالم - الأحمق - أنه هو من يحرك الأشياء بعقله لتصدر هذا الصوت.. هناك جزء من نفسيته يتصرف بشكل مستقل عنه.. ونحن نرى هذه الظاهرة بكثرة في سن المراهقة لأنها سن ظهور هذه القدرات.. قديمًا قيل إن المراهقة هي سن المس الشيطاني لكننا اليوم نقول إنها سن التحريك عن بعد دون علم الموضوع..»

هكذا بدأت السهرة.. لا أزعم أنني أفهم كل ما قاموا به.. لكنهم بحثوا عن مكبرات صوت خفية.. وقاموا بالتقاط عدة صور عادية وبالأشعة تحت الحمراء، ثم قاموا بتوصيل كاميرات وأجهزة تسجيل.. هناك أجهزة لا أعرف ما تقوم به لكنها جعلت الأمر أقرب إلى حرب الفضاء..



الخلاصة إنني أيقنت أن الشبح البائس سيصاب بهلع لو فكر في دخول البيت الآن.. لا أحب أن أكون مكانه..

على منضدة جلس (ماتيسون) يلعب الورق مع أحد رفاقه، أما الأختان الشمطاوان فقد راحتا تتسليان بالحياكة على مقعديهما المفضلين.. هناك عالم نام وآخر موشك على النوم، والكلب يقعي جوار الأختين، وأنا المصري أجلس أراقب كل هذا..

هل كان هذا منتصف الليل؟.. أعتقد ذلك..

****

توك.. توك.. توك!

****

بدأت الدقات.. ومعها وثب الجميع.. يجب أن أقول إن الرعب شلني ففقدت التحكم في قدمي تمامًا.. لم أعد قادرًا على الوقوف.. هذا الصوت يأتي من كل مكان ولا مكان.. إنه الكل الذي نحن فيه.. صوت غريب لم أسمع مثله من قبل.. أما عن حال الكلب البائس فحدث ولا حرج..

تدور أجهزة التسجيل.. ويصيح (ماتيسون):

-«صوروا الأختين!.. أريد أن أرى كل جزء منهما في المختبر.. تأكدوا من أنه لا توجد حبال أو حيل ما.. لا دقات خفية تحت المنضدة..!»

لكن الأمر كان واضحًا.. إنهما جالستان في الوضع ذاته.. لم يتغير شيء إلا ابتسامة من طراز (ألم - نقل - لكم -؟).. الدقات عالية مستمرة موحشة... كأنه الموت ذاته قادمًا على عكاز وقدم خشبية .

ومن أعلى جاء صوت احد العلماء:

-«سلبي.. لا يوجد شيء في العلية..لا يوجد أشخاص مختبئون»

قال د. (ماتيسون) في حيرة:

-«وهذا ليس تحريكًا عن بعد.. إذ لا شيء يتحرك..»

ثم نظر لي في حماس وهتف:

«هل من تعليق ما؟.. ليس من رأى كمن سمع!»

لكني كنت قد بدأت استعيد قدراتي العقلية.. هكذا نهضت ونظرت حولي.. ثم أشرت إلى الأخت الكبرى (إميلي) وقلت لها أمرًا غريبًا لم تفهمه لذا طلبت من (ماتيسون) أن يكرر الأمر:

«إنزعي حذاءك!»

بدا عليها الغيظ المصحوب بالذهول.. هذه إهانة.. لكني كررت الطلب..

هكذا انحنت وانتزعت حذاء (الطنبوري) الشهير.. ودعني أؤكد لك أن قدميها لم تكونا ساحرتين.. قدم لم يرأف بها النقرس والتهاب العظام المفصلي، دعك من نظافتها الشخصية..

لكننا الآن نرى قدميها عاريتين.. وندرك للمرة الأولى الحقيقة: لقد توقفت الدقات!!

ظلت تنظر لنا وننظر لها في تحد.. توطئة لأن يسألني (ماتيسون) كأنني أكبر مغفل عرفه:

«هل لك أن تفسر لي ما يحدث؟»

قلت وأنا أنهض لأزيل عني كل هذا التوتر:

«الأمر سهل.. كنت قد قرأت عن قصة الأخوات (فوكس) الشهيرات في أمريكا في أوائل القرن العشرين.. إنها تشبه هذه القصة جدًا.. ثلاث شقيقات هن.. كن يتخاطبن مع الأرواح في بيتهن، وذلك عن طريق إحداث خبطات معينة، فكانت الأرواح ترد بشفرة مماثلة.. وعن طريق هذه الرسائل المتبادلة عرفن أن هناك قتيلاً دفن في جدران منزلهن.. عمت شهرة الأخوات الثلاث ربوع البلاد، ومن هنا ظهرت فكرة التخاطب مع الأرواح وتكونت جمعيات في كل مكان من العالم تجرب الشيء ذاته. لكن حب الشهرة يحرك المرء دومًا.. وأحيانًا يعترف المجرم بجريمته ليفتخر بعبقريته مفضلاً السجن على الكتمان.. هكذا اعترفت إحداهن - وتدعى (مارجريت فوكس) - بأن الصوت الرهيب الذي كانت تحدثه الأشباح أحدثته هي بمفاصل

قدمها!.. وقد أحدثت صوت (الدقات الشبحية) أمام 2000 متفرج مذهول في مسرح كبير. وقد قالت بعد هذا الاعتراف: كل موضوع الوساطة الروحية هذا نصب في نصب.. لكنه نصب على أعلى طراز ويحتاج إلى تدريب شاق!

كانت هذه ضربة قوية جدًا لعلم الوساطة الروحانية.. وقد رفض كثيرون من علماء البارسيكولوجي الاعتراف بهذه الهزيمة..

ثم أشرت إلى الأخت الكبرى وقلت:

-«نحن نرى أنه لم يتحرك شيء فيها.. لكن لماذا ترتدي هذا الحذاء العتيق؟.. ببساطة لأنه يخفي حركة أصابع قدميها، وهي أصابع أضناها النقرس.. من ثم صارت تحدث هذا الصوت الصاخب المخيف القادم من لا مكان..ومن الطبيعي أن خلع حذائها جعل الأمر مفضوحًا.. إن هذه الآنسة ليست إلا باحثة عن الشهرة والاهتمام»

نظر (ماتيسون) إلى المرأة التي راحت تلبس حذاءها، فقالت في ضيق:

-«أنتم مخرفون ضيقو العلم.. وإنني لأطالبكم بمغادرة داري حالاً..»

نظر (ماتيسون) إلى الرجال وقال:

-«هذا ما سنفعله حالاً يا آنسة.. اجمعوا حاجياتكم يا شباب..»

ثم نظر لي باسمًا وقال:

-«كما قلت لك.. مقياسنا هو التجريب.. لن تكون هذه الأمسية الأولى ولا الأخيرة التي تذهب هباء»

****

مرت أعوام كثيرة، وتطايرت أوراق التقويم في الهواء كما يحدث في أفلام (توجو مزراحي) القديمة..

لقد اتصل بي د. (ماتيسون) منذ أسبوع، ورحنا نتذكر تلك الأيام التي لن تعود.. ضحكنا كثيرًا جدًا.. وحكى لي عن تجاربه مع الفقير الهندي الذي سجنوه تحت الأرض أسبوعين.. ذكرته في تشف بقصة



الأختين.. لقد استطاعتا خداع أساطين علم القدرات الفائقة، لكنهما لم تخدعاني.. ربما لأنني احتفظت بهامش واسع من الشك أكثر منهم.. قال لي إن كبراهما ماتت منذ عام أما الأخرى فقد غادرت البيت ولا يعرف أحد مكانها.. أما المنزل فقد هدم..

وقال وهو ينهي المكالمة:

«على فكرة.. كانت هناك جثة امرأة مدفونة في جدار الردهة.. لابد أنها موجودة هناك منذ مائة عام على الأقل.. لكني معجب بعقلك العلمي المرتب.. معجب به جدًا..!»

قد تختلف معي في الأمر، لكن لا تنكر أن الفترة التي قضيتها في جمعية البحوث الروحانية البريطانية هي فترة من أمتع فترات حياتي.. أم أن لك رأيًا آخر؟

****

إنها تأتي ليلاً

وحيدًا في عربة القطار ..

لم أعتد أن أركب هذا القطار بالذات في ذلك الموعد المتأخر، لكن
لظروف خاصة وجدت أن علي أن أمضي ليلتي في الإسكندرية
وهكذا وجدت نفسي ألحق به قبل قيامه بدقيقة ..

وحيدًا في عربة القطار ..

كنا في يوم ميت من أيام الأسبوع، وفي ساعة يلفظ فيها اليو
أنفاسه ..لا إجازات دانية ولا هو موعد عودة موظفين أو طلاب .. له
لم أندهش كثيرًا حينما وجدت أنني الشخص الوحيد الموجود في هـ
العربة ..

مر بي المحصل، وهو رجل بدين وقور يدلي عويناته على قصب
أنفه ليتمكن من النظر فوقهما كأنه صقر يترصد فريسته، وقد تفحص
تذكرتي دون ان ينظر لي نظرة واحدة ثم واصل مهمته الغامضة
ترى هل العربات الأخرى بالحالة ذاتها ..؟.. لا أعرف .. ثم إنني مول
بالوحدة، وهي هبة يصعب أن تجدها في بلدي .. أحيانًا يخطر لي أ
من المستحيل أن تجد نفسك وحيدًا في أي مكان .. (الجحيم هـ
الآخرون) .. قالها (سارتر) يومًا ويبدو أنني بدأت أميل إلى هذا الرأ
مؤخرًا .. أنا الآن وحدي .. وحدي ..

فتحت الكتاب الذي أحمله معي كلما سافرت، والذي أتوق إلى أ
أطالع حرفًا واحدًا فيه بعد صفحة 34 التي قرأتها منذ أربعة أشهر
وبدأت بحماس غزو الصفحة رقم 35 .. لكني نسيت عدوًا آخر غي
الآخرين.. هذا العدو الذي أغرته بالقدوم العربة الدافئة وإرهاق اليو
الطويل وصوت ارتطام العربات المنتظم الرتيب : النعاس ..

بدأ جفناي يثقلان حتى صار وزن الواحد طنًا .. وبدأت بعض
الأحلام السخيفة تتداخل مع سطور الكتاب .. فقط يدوي صوت ما مر
آن لآخر لأصحو من النوم مذعورًا وأنا أتساءل عما يريده (أدولف
هتلر) من زوج خالتي .. ثم أدرك من أنا وأين أنا فأعود إلى صفحات
الكتاب..

ظهرت هي للمرة الأولى بعد ربع ساعة ..

لم أشعر بها في البداية لأني كنت مغمض العينين، لكني رأيت فيما يرى النائم كيانًا أسود باردًا يمر بجواري .. فتحت عيني مذعورًا فرأيتها تجلس على مقعد يتقدمني بصفين .. المقعد المجاور للردهة على الجانب الآخر .. لهذا صرت أراها بوضوح ..

إنها فتاة ـ لابد أنك خمنت هذا ـ في العشرينات من العمر .. أعتقد أنها على شيء من الجمال إذا حكمت من جانب وجهها الأيسر .. وهي ترتدي ثوبًا أسود يوحي بالحداد ..

عدت لقراءة كتابي .. وبنجاح تام انتقلت إلى صفحة 36 ..

****

بعد قليل بدأت المشاكل ..

رأيتها تبحث في حقيبتها ثم تخرج هاتفًا محمولاً .. كنا في منتصف التسعينات ولما يصر هذا الاختراع (في يد الجميع) .. بدا لي إنها معجزة حقيقية أن تجري مكالمة وأنت في قطار، ورحت أنظر لها بفضول تام شبه وقح ..

كانت تضع الهاتف على أذنها، وتتكلم بشيء من العصبية، وبصوت عال لا يمكن أن تتجاهله :

«لا يا (عادل) .. أسلوبك هذا لا يريحني وإنني لأطالبك باتخاذ قرار سريع ..»

بدا لي أن الأمر مسل، فأغلقت الكتاب المنكوب بعد ما ثنيت صفحة 36 .. أعرف ولع الفتيات بمناقشة مشاكلهن العاطفية بصوت عال في أماكن عامة .. إن هذا يمنحهن نوعًا من الرضا عن النفس .. إن لهن (مواضيع) وخلافات عاطفية .. الخ .. لسن منبوذات ولا منسيات .. لكن الويل لك لو ظهر ما يدل على أنك تتنصت ..

«أعرف أنك تتعذب .. أعرف أنك تعاني .. لكن لا تتوقع لحظة أن أقبل هذا كعذر نهائي .. نعم ؟ .. ماذا ؟ .. أفهم هذا .. أنا قد جربته فلن تضيف

لمعلوماتي شيئًا ..»

الفتى متردد جبان يختلق الأعذار وهي تقنعه بشيء ما .. ربما يتعلق الأمر بمصارحة أهله أو الاعتراف لزوجة لا يحبها طالبًا الطلاق أو ... المهم أن هذا الفيلم العربي الذي أسمعه بالقوة سوف يسليني في هذه الرحلة، ما دمت غير قادر على التركيز فيما أقرأ ..

ظلت تصغي قليلاً ثم قالت:

-«الأمر سهل .. علبة أقراص منومة كاملة ..دعك من أساليب الأطفال .. لا تبتلع قرصين ثم تقول إنك حاولت وفشلت .. لا .. لا .. ليس اللبن .. !.. إنه يعوق الامتصاص !.. سوف يبدو الأمر كأنه النعاس .. صدقني .. تذكر ما مررت أنا به .. تذكر أنني لم أختر هذه الطريقة الناعمة الجبانة ..»

هنا سقط الكتاب من يدي .. عم تتكلم هذه الفتاة بالضبط ؟!

كانت تواصل الكلام:

-«يقولون إن المرأة تفضل أن تقتل نفسها بالسم .. أما الرجل فيستعمل طرقًا أعنف .. من المضحك أن تنقلب الآية، وأن تكون المرأة هي البادئة ثم يجبن الرجل بعد رحيلها !»

ثم راحت تضحك بطريقة هستيرية شبه تمثيلية، مطوحة برأسها إلى الوراء ...

-«هاها ..!.. لكني سأعرف كيف أقنعك !.. أنت تعرف (ميادة) عندما تزمع شيئًا !!»

الآن بدأت أفقد روعي .. جلست على حافة المقعد حتى أوشكت أن أجلس على الأرض .. ثمة شيء ما خطأ هنا .. شيء ما خطأ بلا شك ..

قالت الفتاة بعد دقيقة صمت:

-«لم يكن الأمر ممتعًا ... الوحدة .. الظلام .. الرطوبة ...صوت بنات آوى يتردد في أرجاء المكان المقفر فوق رأسك بالذات.. ثم تخرج تلك الشياطين من تحت الأرض لتعتصرك .. دعك من الجسد الممزق الذي



تعرف أنه جسدك ... هذا هو العذاب بعينه .. لكنك اتخذت قرارًا ولابد من تنفيذه .. أعطيتني عهدًا وقد حان وقت الوفاء به .. وأنت تعرف أن (ميادة) لا يمكن خداعها ... سوف تجدني وراءك في كل مكان أيها الصبي .. صدقني .. سوف تتمنى الموت للفرار مما أنت فيه .. لكن الموت هو ما أريده بالذات لك .. عندها نكون معًا .. إلى الأبد ..!»

****

عند هذا الحد قررت أن الوقت قد حان للنهوض ...

كلام هذه الفتاة لا يوحي براحة نفسية ... أعرف أنني اخطأت الفهم .. أعرف أن استراق السمع إلى محادثة يعطيك فكرة غير دقيقة عن محتواها .. لكن هناك بعض العبارات التي لا أجد لها تفسيرًا، والتي تشعرني بأن عربة القطار هذه باردة فعلاً .. واسعة فعلاً ... مقفرة فعلاً ..

أعتقد أن الوقوف ما بين العربتين سيكون أفضل .. ولم أجرؤ على اتهام نفسي بالجبن، لذا قررت أنني بحاجة إلى لفافة تبغ ..

هكذا مشيت مترنحًا عبر الممر متجهاً لطرفه الذي لا يضطرني إلى المرور جوارها ..

هناك بين العربتين وقفت .. أغلقت الباب ورحت أنظر لطرف كتفها من النافذة التي تتوسط الباب .. أنا لست خائفًا .. لقد جئت هنا كي أشعل لفافة تبغ .. ثم تذكرت ان هذا العذر واه لأنني لا أدخن ... !

ونظرت لساعتي .. نصف ساعة أو أكثر قليلاً حتى (سيدي جابر).. لن أنتظر الوصول إلى (محطة مصر).. سأترجل وأجد أية مواصلة ..

-«(ميادة) هنا ؟!»

سمعت الصوت من خلفي فأجفلت واستدرت.. كان هذا أحد محصلي القطار .. رجل فارع الطول أشيب الشعر له عين يمنى تظللها سحابة .. وكان ينظر إلى العربة الخالية من النافذة إياها ويتمتم بالبسملة..



نظر لي فرأى توتري .. قال وهو يشعل لفافة تبغ:

-«لا تخف .. هي لا تؤذي أحدًا .. لكنها تظهر عندما تكون العربة خالية .. فقط لا تستفزها وتظاهر بأنك لم ترها .. طبعًا لا مانع من تلاوة أية آيات قرآنية تحفظها ..»

لم أفهم مغزى ما يتكلم عنه فقلت همسًا:

-«هذه الفتاة مخبولة تمامًا !.. إنها ....»

وحركت أناملي جوار صدغي في حركة مألوفة، لكنه قال في جدية مقلقة:

-«لا .. منذ أشهر كانت وحدها في هذه العربة بالذات .. ثم لسبب لا نعرفه اتجهت إلى الباب فأزاحت المزلاج ووثبت من القطار المسرع !»

أطلقت شهقة فأردف هامسًا:

-«أنت تعرف هذه المشاكل النفسية والعاطفية التي تملأ عقول المخابيل ... منذ ذلك الحين لم تكف عن الظهور في عربة القطار هذه كلما كانت خالية .. ليس منا من لم يرها .. إنها تسبب ذعر من يتصادف أن يقابلها لكنها لم تؤذ أحدًا قط .. وسرعان ما تختفي ..»

رأى النظرة على وجهي فابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

-«طبعًا لا أطالبك بالعودة إلى هذه العربة .. يمكنك أن تذهب إلى أية عربة أخرى بقية الرحلة ..»

كان هذا لا يحتمل المناقشة .. ثمة احتمال أن يكون الرجل يتلاعب بي، لكن ما سمعته من المحادثة مريب حقًا ... الفتاة انتحرتْ وتوقعت أن يلحق بها حبيبها على طريقة (روميو وجولييت) الشهيرة، لكنه لم يفعل .. وهي تطلبه من عالمها مستعملة الهاتف المحمول.. شبح عصري جدًا كما ترى ..

هكذا استدرت لأقصد العربة المجاورة.. فجأة شعرت بتيار هوائي بارد .. إن الباب خلفي مفتوح ..



وفي اللحظة التالية شعرت بيد قاسية باردة كالثلج تمسك بيدي ..

استدرت مذعورًا فوجدتها هي .. هي ذاتها ... عيناها متسعتان وهي تنظر لي في توحش وتقول من بين أسنانها:

«إلى أين أنت راحل ؟... لقد سمعت المحادثة !.. هل تعتبرني مجنونة !؟»

تعثرت الكلمات على شفتي ونظرت للوراء لأستغيث بالمحصل، فرأيته يبتعد مسرعًا إلى العربة التالية دون أن ينظر للوراء .. إنه الفرار إذن.. سوف ينساني بعد دقيقتين ..

قالت لي وهي تضغط على يدي:

«تعال واجلس في العربة .. لا تذهب لأي مكان ..!»

مشيت معها وأنا أرتجف .. فجلست في مقعدي السابق وعادت هي إلى مقعدها .. ومن جديد عادت تتكلم عن أهوال الموت ... تتنازعني عاطفتان .. عاطفة تصديق ما قاله لي المحصل لأن الموقف كله يبدو كابوسًا خاصة مع نظراتها وكلماتها .. وعاطفة عدم التصديق .. لكن ما معنى ما تقوله إذن ؟

ونظرت للوراء إلى الباب بين العربتين، فرأيت وجه المحصل الذي حذرني يختلس نظرة ليرى ما يجري .. تلاقت عينانا فهز رأسه بحركة متعاطفة وضم أنامله على شكل قمع وحركها بما معناه: اصبر وتحمّل .. فهي لن تؤذيك ..

لن تؤذيني ؟.. وهل الرعب ليس ضربًا من الإيذاء ؟

والفتاة تواصل مكالمتها الطويلة:

«في اللحظات الأخيرة لم تعزني إلا فكرة أنك ستكون معي .. الآن تتردد .. طيلة حياتك تتردد .. لكن ما قبلته منك في السابق لم يعد مطروحًا .. إما أن تفعل ذلك بإرادتك أو آتي لأفعله بنفسي !.. هه ؟.. لا تصدق ؟!.. أنت لا تعرف ما بوسعي عمله ... لا تملك أية فكرة على الإطلاق عن قوانين هذا العالم الذي أعيش فيه .. ولو عرفت لما انتظرت لحظة ..»

أخيرًا بدأ القطار يقترب من الجنة الموعودة.. معذرة ..أعني محطة (سيدي جابر).. نظرت للفتاة فاستدارت ورمتني بنظرة حارقة ثم نهضت بلا كلمة واحدة ووقفت في وسط الممر وظهرها لي ..

اتجهت إلى الطرف الآخر لاهثًا وأنا أدعو الله ألا تلحق بي من جديد..

من جديد وقفت بين العربتين حيث استجمعت أنفاسي ..

في هذه اللحظة وجدت أنني أقف جوار المحصل الأول الذي رأى تذكرتي .. الرجل البدين الذي يدلي عويناته على قصبة انفه ..

رآني ورأى الفتاة من نافذة الباب، فقال دون أن ينظر لي:

-«(ميادة) هنا ؟.. هي ليلة سوداء إذن!»

هززت رأسي موافقًا بحماس فأردف:

-«لا حول ولا قوة إلا بالله .. تخيل أن هذه كانت طالبة متفوقة .. ثم صارت مخبولة تمامًا ..إنها تركب معنا كثيرًا جدًا ولا أحد يجرؤ على طلب تذكرة منها .. تضع هذا الهاتف اللعبة على أذنها وتجري مكالمة طويلة لا تفهم منها شيئًا»

قلت وأنا ابتلع ريقي بينما أضواء المحطة تتوهج من النافذة:

-«لكن زميلك فارع الطول قال إنها وثبت من عربة القطار منذ أشهر . وإن هذا شبحها ..»

نظر لي للحظة كأنما يتأكد من انني لا أمزح ثم قال:

-«أولاً ليس لي زميل فارع الطول في هذه الوردية ... ثانيًا ...»

قلت في إصرار وعصبية:

-«فارع الطول أشيب له عين يمنى تظللها سحابة ..»

فتح الباب وبدا كأنما هو يتذكر ثم هتف في تأثر:

-«آه .. هذا ينطبق على زميلنا (مسعد) رحمه الله... لقد توفي منذ

شهرين... سقط من هذا الباب بالذات بينما القطار مسرع .. لابد أنك رأيته في رحلة ماضية فاختلط عليك الأمر .. هذه (سيدي جابر).. حمدًا لله على السلامة .. لكن .. لماذا ترتجف هكذا يا أستاذ ؟.. ليس الجو باردًا بالخارج إلى هذا الحد .. ليس باردًا على الإطلاق !؟.

****

سأبكي كثيراً

عندما تنظر (غيداء) نحو قرص الشمس تشعر بأن عينيها ذهبيتان..

عندما تقف (غيداء) في الشمس تشعر بأن جلدها مشدود يوشك على التمزق .. وأن روحها من تحته تشرئب بحثًا عن حريتها .. هل ترى ؟.. هذا وريد .. وريد آخر .. إنهما يلتقيان هنا .. وريد ثالث.. عندها تضحك وتقول لك: بشرتي من النوع الواهن .. إنها لا تتحمل أي شيء ..

عندما تحزن (غيداء) تنظر للأرض، وتنسدل أهدابها على الخدين .. إنها تكره هذه الأهداب الساجية لأنها تتقصف دومًا داخل عينيها ...

عندما يأتي الليل ترتجف (غيداء).. وتشعر بأن روحها تتجمد ...

****

أنا كنت أحب .. لكني لم أخبر أحدًا بهذا الحب .. لم أخبر به (غيداء) وأعتقد أنني لم أخبر به نفسي صراحة، على أنني في الليالي المقمرة كنت أزيح الستار وأنظر إلى القمر وأفكر: (غيداء) تنتمي بشكل ما لهذا القرص المستدير .. إنه خال أو عم أو قريب بعيد لها ..

لم أكن متزوجًا وقتها إن كان هذا قد خطر لك ببال، لكني ما زلت أشعر بالذنب .. أشعر بأنني اقترفت نوعًا من الخيانة الزوجية، لأنني يومًا ما منحت أجمل ما في نفسي لفتاة، فلما جاءت زوجتي لم تجد شيئًا إلا هذه الروح الخاوية كخزينة مصرف أفلس...

كانت (غيداء) هي البداية وهي النهاية .. وقد قرأت (عن عبودية الإنسان) لـ(سومرست موم) فيما بعد، فلم أندهش للتعلق المذهل الذي كان يشعر به نحو ساقية الحانة (ملدريد) (كلما فكر في أذنيها الصغيرتين)... (ملدريد) خانته وأساءت له كثيرًا لكنه ظل مكبلاً بالأصفاد لها غير راغب في التحرر.. نعم .. أنا أفهم هذا لأني عشته وتنفسته وابتلعته وشربته ..

نعم كنت أحب (غيداء)، لكن (غيداء) لم تحبني ... هناك طعنة أولى نتلقاها في حياتنا وتظل ندبتها باقية للأبد، وأنا قد تلقيت طعنتي في ذلك الوقت، وحرصت باقي حياتي على أن أداريها وأداويها على رأي الخواجة (أدلر) تلميذ (فرويد) المشاغب ...



(غيداء) تختلف .. ألا ترى هذا معي؟.. هل تذكر محاضرة (الأدب اليوناني) إياها حينما كانت جالسة جواري، وكانت تدون كلمات في مفكرتها ؟.. كنا في الثانية بعد الظهر في يوم قائظ، وكان الحر والإرهاق يغمرانني .. مع ذلك الشعور الموجع بالحاجة إلى (حب شيء ما) الذي نشعر به في مارس وإبريل ويؤدي لرسوبنا في يونيو ..

كان المحاضر يخط على لوح الكتابة مصطلحات.. تلك المصطلحات التي ابتكرها (أرسطو) يومًا ما وهو يضحك ضحكة شيطانية، راغبًا في أن يحيل حياة الأجيال القادمة جحيمًا ..

ثم شممنا رائحة الشياط جميعًا ..

أول من شمه كانت فتاة هستيرية .. فراح أنفها يرقص كالأرنب، ثم بدأنا نشعر بشيء ما خطأ... بعدها رأينا أن قميص المحاضر يشتعل عند الكتف...

في اللحظة التالية أطلق الرجل صرخة، ووثب شابان كانا في الصف الأول وأخمدا النار بكفيهما .. وبعد ما زالت الهستيريا راح السؤال يتردد: كيف حدث هذا ...؟

ـ طالب وقح ألقى لفافة تبغ لتمس كتف المحاضر .. هذه لم تعد كلية .. إنه ناد ليلي ..

ـ إنه الحر .. ربما ...

ـ الاشتعال الذاتي .. هذه واقعة تاريخية مدونة وحدثت لعدد كبير من البؤساء .. فجأة يحترقون فلا يبقى منهم إلا رماد ...

ـ احتكاك الألياف الصناعية في القميص .. هذه الأشياء تحدث .. إن هذه الكهرباء الاستاتيكية ....

لكن أيًا من هذه التفسيرات لم يكن ليصمد ... ولو ألقى أحدهم لفافة تبغ لشممنا ورأينا .. الاشتعال الذاتي يستمر حتى النهاية الأليمة، ولم نسمع عن احتراق قميص من الحر .. إذن تظل نظرية الكهرباء الاستاتيكية هي الأفضل فيما عدا أن:

-«هذا القميص من القطن الطبيعي ».

هكذا انتهت محاضرة هذا اليوم .. نهاية غير سعيدة لكنها فعالة ..

****

وكنا جالسين في الكافتيريا أنا وهي .. لابد أننا كنا في السبعينات لأن قميصي كان مشجرًا لو لبسه طفل اليوم لاتهمته بالابتذال، وكان سروالي من طراز الشارلستون، وسوالفي تحيط بجانبي فمي، وأنا أسألها ...

عندما تتحاشى (غيداء) عينيك يصير لون عينيها بنيًا.. وعندها تقول:

-«(محفوظ)... (محفوظ).. ربما أنت معجب بي .. هذا يدعوني للفخر والرضا .. لكني لن أتزوج شابًا لمجرد أنه معجب بي .. ضع نفسك مكاني .. أنا لن أكون لك ولا أي واحد آخر ..»

لكني كنت أعرف انها كاذبة .. كلهن يقلن هذا ثم يتزوجن أول عريس ثري يطرق الباب .. أنا لا أروق لها وهذا كل شيء .. ربما أنا أقبح من اللازم أو أغبى من اللازم أو أسمج من اللازم أو أفقر من اللازم .. ربما أنا كل هذا معًا .. سأعرف هذا فيما بعد في غرفتي امام المرآة ...

كانت في يدي لفافة.. وشممت رائحة التبغ المحترق تتصاعد لأنفاسي .. نظرت للفافة في دهشة .. متى أشعلتها ؟.. لا أذكر .. ثم بحثت في جيبي فلم أجد أعواد الثقاب ...

قلت لها في غباء:

-«اللفافة اشتعلت و......»

لكنها حسبتني أداري خيبتي .....

هل كان هذا قبل أن تشب النيران في بيتها ؟.. نعم .. بالتأكيد ... لأنني أنقذت حياتها في ذلك اليوم ...

كنت في غرفتي أحاول دراسة شيء ما .. عندما سمعت تلك الصرخة تشق السماء، فهرعت إلى الشرفة لأرى اللهب يتصاعد من غرفة

(غيداء).. (غيداء) بالذات !.. نعم .. هي جارتي في الحي الذي أسكنه .. ألم أخبرك بهذا من قبل؟... هكذا هرعت إلى باب شقتنا حافي القدمين بالفانلة الداخلية و سروال المنامة .. وهتفت أمي حينما رأتني:

«بسم الله الرحمن الرحيم !... هل جننت يا (محفوظ) يا بني ؟»

لكني كنت في الشارع فعلاً قبل أن تكمل جملتها، ورحت أثب درجات سلم دارهم .. وركلت بابهم بقوة لأندفع إلى الداخل .. لم أكن ذلك الفتى قوي البنيان عريض المنكبين، لكن الادرينالين الذي تدفق في دمي جعلني كذلك للحظات .. لقد انفتح الباب واندفعت إلى غرفة الأسرار .. قدس الأقداس... حيث كانت الكاهنة العظمى تصرخ وقد اشتعل الفراش الذي يقع بينها والباب.. لا اعرف كيف استطعت ان أجر الفراش الثقيل المشتعل إلى جانب الغرفة وأسمح لها بالخروج، ثم أهرع إلى الحمام ـ لا أعرف مكانه لكن حواسي صارت مرهفة كحواس السباع ـ لأملأ دلوًا بالماء وأعود لأسكبه على الفراش.... في هذه اللحظة عاد أبوها من الخارج ليرى المشهد المفزع.. لقد كانت وحدها في الدار ...

وسرعان ما تكأكأ الجيران وتعاون الجميع على إخماد الحريق .. لكني ظفرت منه بهذه الندبة في حاجبي .. هل رأيتها ؟.. نعم .. إن إطار النظارة يخفيها لأنني انتقيته بعناية.. عمر هذه الندبة إذن عشرون عامًا .. هناك ندبة في روحي وندبة في وجهي.. كلاهما من أجل الفتاة ذاتها ..

الكل يشكرني.. الجميع يربت على كتفي الذي ألهبته النيران .. لكني أنظر لجهة واحدة وأتوقع شكرًا من فم واحد ...

****

عندما تبدي (غيداء) امتنانها لك يحمر وجهها فيوشك على أن يشع...

حتى ونحن في مكتب الدكتور (مصطفى) أستاذ علم النفس بكليتنا لم تستطع أن تخفي هذه النظرة .. قلت لنفسي: أتراها متأهبة كي تغير رأيها ؟.. ثم شعرت بوضاعة.. أنا لم أنقذها كي تحبني .. لقد أنقذتها لأنني أحبها .. ثمة فارق مهم هنا ..

يقول د. (مصطفى) وهو ينظر لها في شرود:

«لا اعرف إن كانت استشارتي قد تفيدكما، لكني لست خبيرًا في هذه الأمور .. هذا ليس علم نفس»

قلت له في إصرار:

«سيدي .. أنت مثقف موسوعي قبل أن تكون أستاذًا لعلم النفس .. وأنا بحاجة للاثنين معًا لهذا أرغمتها على المجيء معي ..»

قال وهو يتصفح أحد المراجع:

«(بايروكينيزيس).. من اليونانية (بور) بمعنى (نار) و(كينيزيس) بمعنى (تحريك)... إنها القدرة على إشعال الحرائق ذهنيًا أو تحريك النيران .. هناك من يمارسونها بشكل إرادي، وهناك من يمارسونها بشكل عفوي ..»

ثم نظر في وجه (غيداء) وقال:

«وهناك من لا يعرفون أنها عندهم .. وهنا تكمن المشكلة ..»

قالت (غيداء) في حماس:

«أنا أنتمي للنوع الثاني .. لقد بدأت ألاحظ هذا منذ عامين .. كلما توترت أو تضايقت تشتعل الحرائق في موضع قريب مني .. برغم هذا لا أستطيع إشعال النار إراديًا ولا استطيع التحكم فيها ..»

قال وهو يغلق الكتاب:

«لو صح هذا فانت ظاهرة علمية جديرة بالدراسة ..»

قلت في حرج:

«لنأمل ألا يحدث هذا يا سيدي .. لكننا نأمل في البحث عن علاج ..»

مط شفته السفلى وقال وهو يحشو غليونه الأنيق الذي يحبه لأنه يعطيه سمت العلماء:

«علاج ؟... هل هذا مرض ؟.. في الحقيقة لا أملك ما أقدمه لك، لكني أرحب بأن تأتي لمكتبي في أي وقت .. أعتقد أن تمارين (التلقيم الرجعي) سوف ...»



«تمارين ماذا ؟»

«التلقيم الرجعي .. شيء كالذي يمارسه لاعبو اليوجا .. سوف تساعدك حتمًا على التحكم في هذه الموهبة ..»

في هذه اللحظة راح الدخان ينبعث من الغليون ..

نظر لها مندهشًا، فهزت رأسها في حرج وقالت:

«لم أحاول شيئًا .. كنت متضايقة لأنه لا علاج لدائي .. لا أكثر ..»

****

عندما تفارقك (غيداء) يظلم وجهها كأنه انعكاس للنور الذي يظلم في صدرك .. إنها ترنو إلى الأفق حتى لا ترى الدمعة في عينيها وتقول:

«الآن انت تفهم لماذا لن أكون لك ولا لأي واحد آخر ..»

«لا تقولي هذا .. سوف اجتاز مدخل داركم مرة أخرى، لكني لن أكون حافي القدمين .. سوف أكون متأنقًا .. وسوف أقنع أباك ..»

ضحكت بمرارة وقالت:

«لا تكن طفلاً .. المشكلة هي أنني لا أعرف متى ولا أين يشب الحريق القادم .. عندما ينام زوجي أم في غرفة نوم أطفالي .. ؟.. سوف أكون خطرًا داهمًا على من حولي في كل وقت .. لن يعرفوا أبدًا متى يحترقون .. »

«إذن ؟»

«إذن .. أنت تعرف انه لا عيب فيك . العيب في موهبتي المرعبة .. ربما أتعلم السيطرة عليها وربما لا .. أنا مستمرة في دروس التلقيم الرجعي مع د. (مصطفى) وأعتقد أنني أحرز نتائج جيدة ..»

« إذن هناك أمل ..»

قالت وهي تتحاشى النظر لي:

«لا تكن طفلاً مرة أخرى .. إن هذه المقامرة لا تعني أن تفقد بعض المال،



بل تعني تحولك إلى رماد متفحم ..!.. أرجو ان تنساني للأبد ... هذا كل ما استطيع قوله ..»

****

لم تحدث حرائق كبرى في الفترة الباقية من الدراسة ..

هل تتحدث عن ذلك الحريق في مختبر الصوتيات ؟.. ربما كان هذا ماسًا كهربيًا يا أخي .. النار التي اشتعلت في مؤخرة الحافلة ؟.. هل رأيت من قبل حافلة تحترم نفسها لم تشتعل يومًا ؟.. دعك بالطبع من اشتعال الشجرة التي تقع تحت دارها .. ما المشكلة ؟ .. كل الحمقى يلقون أعقاب السجائر من الشرفات، وهذه تحدث كوارث لو سقطت على أوراق جافة ...

(بايروكينيزيس) ؟... إشعال الحرائق بالعقل ؟ ... كلم عن هذا واحدًا غيري ...

انتهى العام الدراسي وانتهت الكلية .. وانقطعت أخبار (غيداء) لفترة لأنها ليست من معتادات الوقوف في الشرفة كما يحدث في أفلام (شادية) القديمة، وأمي لم تكن صديقة أمها ...

ثم جاء يوم الخميس الموعود حينما صحوت من نوم القيلولة لأسمع صوت الصراخ وأشم رائحة الدخان .. من جديد رحت أثب الدرجات نحو بيتها .. ما كل هذه الأضواء ؟... لا وقت للتساؤل.. كان باب الشقة مفتوحًا .. هذه المرة كان هناك كثير من الناس .. كثير من الأضواء .. صخب .. امرأة بدينة تتظاهر بأنها راقصة .. وفي وسط الزحام كانت فتاة لا أعرفها تبكي وقد ابتل شعرها بالماء، وراحت مجموعة من النسوة يهدئن من خاطرها ..

«لا شيء .. لقد تمسك لهب الشمعة بشعرها .. لا تخافوا .. سليمة والحمدلله !»

أدرت عيني في المكان .. هناك (كوشة).. هذه (غيداء) بثوب الزفاف .. تتأبط يد .. دكتور (مصطفى) طبعًا وهما يبتسمان لي في بشاشة ورقة ..

قالت لي وهي ترى النظرة البلهاء على وجهي:

ـلست أنا .. الشمعة هي السبب .. انا اليوم في قمة سعادتي !»

وفي غرفتي نظرت لوجهي الأحمق في المرآة.. هذا هو مبدأ التحويل transference الذي تكلم عنه (فرويد) كثيرًا ... لقد تعلقت عواطفها بمحللها النفسي فكان ما كان .. وقلت لنفسي إن هناك احتمالين: إما أن التلقيم الرجعي نجح فعلاً وهي تعرف أنه نجح، وإما أن الدكتور (مصطفى) يعرف أنه لن يضايقها للأبد ...

اليوم ـ بعد عشرين عامًا ـ أعتقد أنه لم يضايقها قط .. لكنه سيرتكب الخطأ يومًا ما كأي زوج يحترم نفسه وعندها ....

سأبكي كثيرًا وأنا أرمق كومة الرماد المتبقية منهما !

****

المكحلة

عندما وجدت . أنا الدكتور (محفوظ) . هذه الأوراق في حوزتي شعرت بما يشعر به طفل عندما يجد صندوقًا من الحلوى .. إنه سعيد لكنها سعادة أكبر مما يتحملها قلبه الصغير .. إنه لا يعرف من أين يبدأ .. ثم يشعر في لحظة بعينها بأنه ليس سعيدًا على الإطلاق ..

إن الأوراق في كيس بلاستيكي تم ربطه برباط مطاطي، وللكيس ذات المظهر الكئيب الذي يذكرك بأوراق تحاليل المرضى المزمنين التي يحملونها بالطريقة ذاتها .. وعلى كل طبيب أن يفك هذه الألغاز ويحاول ترتيب الأحداث بشكل منطقي ..

أما كيف وصلت هذه الأوراق لي فقصة أرجو أن تعفيني من سردها ..

لم تكن زوجتي في الدار وقتها . لابد أنها تبحث عن سيارة أجرة غير عارفة أنه (انتظار جودو الذي لن يجيء) .. لهذا سيكون عندي وقت لا بأس به لقراءة كل هذا ...

جلست في غرفة مكتبي .. أوقدت الأباجورة .. وعلى الدخان المتصاعد من كوب الشاي الساخن رحت أفتح الربطة .. وعلى الفور انتثرت الأوراق التي ظلت حبيسة كل هذه الأعوام .. بعضها اصفر عتيق يوشك على التحلل وبعضها أبيض حديث .. وكلها كانت تتنهد طربًا للخلاص .. إلا أنه بين الأوراق كان جسم معدني واحد يبدو كمكحلة جدتك إن كنت تذكر منظرها .. وأنا فضولي لكني لم أبلغ درجة حمق تجعلني أبتلع الدواء قبل قراءة النشرة المرفقة ..

لذا قررت أن أبدأ بالأوراق الحديثة وأحاول أن أصل لترتيب منطقي....

أول ورقة أمسكت بها كانت بخط أنيق وبأسلوب معاصر يقول:

****

اسمي (محمود عبد العزيز جابر).

منذ زمن سحيق وهذا الكيس في حوزتي .. لم أكن أعرف عنه الكثير سوى أنه مغلق وأن الأيدي تناقلته جيلاً بعد جيل، وأنه من الأفضل لي أن أبتعد عنه .. اليوم أنا رجل كبير ناضج وقد قررت أن أعرف ما في هذه الأوراق. كنت وحدي في تلك الأمسية وقد خرج الجميع. زوجتي تزور أمها والأطفال يلعبون عند صديق لهم في ذات البناية. لقد انتهى حفل (أم كلثوم) الشهري في المذياع منذ دقائق وعاد للبيت صمته الكئيب. وضعت الكيس على مكتبي ورحت أتفحصه.



بداخله مجموعة من الأوراق وجسم معدني يذكرني بمكحلة أمي رحمها الله ..

إنها أثر عتيق لا شك في هذا ...صنعت من معدن مطلي باللون الذهبي، فتحتها فوجدت أنها فعلاً مكحلة وإلا فما سر هذا المسحوق الأسود الناعم الذي انتثر على المنضدة أمامي ؟.. هذه مشكلة الأجسام المغلقة جيدًا والتي تنفتح فجأة .. على كل حال جمعت الرماد وأعدته لوعائه ثم أمسكت بأول ورقة ...

غريب هذا الصداع الذي يحتويني الآن .. إن رأسي يرتج كبذرة المانجو .. هل الطقس حار؟

دعنا من هذا ولنطالع المكتوب ...

كانت رسالة .. رسالة على ورقة صفراء تقول:

****

أنا (جابر شفيق) الموظف بالحقانية. هذا الكيس القماشي في داري منذ سنين عديدة. لا أحد يعرف محتواه لهذا قررت أن أشبع فضولي وأفتحه لأعرف ما فيه. انتظرت حتى خلا البيت من أسرتي، لأن (نعمات) هانم مع الأولاد في زيارة لأبيها (حسين أفندي عبد العليم)، وقد تركتهم هناك وعدت للدار ثم وضعت على الجراموفون أسطوانة لمحمد عبد الوهاب.. وعلى صوت آهاته وضعت الكيس على مكتبي.. وقررت أن أكتب رسالة لمن يأتي بعدي ليعرف محتواه. لكني وجدت بداخله مكحلة حسنة المظهر بها مسحوق أسود انسكب على المكتب، فجمعته كيفما اتفق وأعدته إلى المكحلة.

لا أكتم القارئ سرًا أنني شعرت توعكًا مفاجئًا ونظرت إلى ظهر يدي فبدا لي كظهر يد المجدور. لكني قدرت أنها خيالات من تأثير قلة النوم لأنني لم أظفر بشيء من الطعام بعد ولم أحظ بقيلولتي اليومية.

وجدت مع المكحلة رسالة على ورق أصفر متآكل بخط جميل منمق وبيان حسن تقول:

****

نحن (شفيق بك إبراهيم مراد) نكتب هذا لمن يأتي بعدنا، ويقفو خطانا. قد وجدنا هذا الكيس الخيشي في قبو دارنا المصونة، فعجبنا أشد العجب، ودهشنا أيما دهشة، وأزمعنا أن نفتحه لنتعرف ما به من أسرار عظيمة وألغاز بهيمة. على أننا حينما عقدنا على ذلك العزم المتقشب ألفينا فيه

مكحلة حسن شكلها ودق صنعها، وكأني بصانعها من خيرة أسطوات الأستانة وصناعها. بيد أن بعض محتواها انسكب على القمطر عندما أزمعنا فتحها فأعدناه إليها كيفما اتفق، وقد وجدنا في الكيس قرطاسًا خط على ورق بال متآكل. على أننا استشعرنا سقمًا بالغًا وحمى عالية، فهرعنا نسكب من الماء البارد على رأسنا ما يكفي لإبراء هذه الحمى وتخفيف هذا السقم. وسكبنا في خيشومنا بعض قطرات من الدواء.

ثم أننا فتحنا ذلك القرطاس الذي وجدناه.

وكان كاتبه طيب الله ثراه يقول ما يلي:

****

كاتبه (مراد بك السلحدار) من أعيان القاهرة المحروسة ورجال الأمير (كتخدا خوندا طولباي) حفظه الله. أنه بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم في عامنا هذا عقدنا العزم على فتح الشكمجية التي وجدها خدمنا في الدار، وقد وجدنا قرطاساً بخط لا تتبينه العين، فاشتد عجبنا لهذا وازداد عزمنا تقشباً على استجلاء كنه هذه الشكمجية.

ولقد ألفينا مع القرطاس أداة من التي يصطنعها الصناع لتكحل بها النسوة عيونهن، ألا رحم الله جريرًا إذ قال:

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

والذي هو أشعر ما قال العرب في الغزل. على أن بعض ذلك المسحوق الأسود تبعثر فوق عباءتنا فنفضناه وأعدناه إلى حيث كان ولات حين مناص. فقد شعرنا بأن السقم استبد بنا استبدادًا لكن هذا لم يفت من عزمنا المتقشب على قراءة ما خطه الخطاط على ورق القرطاس برسم قل مثيله وندر شبيهه.

بيد أننا لم نستطع فك رموز تلك الكتابة الغريبة أشد الغرابة، التي هي إلى رسوم الصبية في كتاتيبهم أقرب، وإلى تلك الشخابيط التي يرسمها العامة على جدران بيوتهم أدنى. وهي كتابة رسمت رسماً على ضرب

من تلك النباتات التي يقال لها (بردي)، والتي كان الفراعين يصطنعون الكتابة عليها اصطناعاً. لذا عقدنا العزم على أن ننسخها نسخًا حتى يعلم من ابتغى العلم فحوى ما وجدناه فيه..

****

بعد هذا وجدت أوراق بردي عليها رسوم هيروغليفية ما .. عند هذا الحد توقفت رحلتي إلى الماضي وعدت إلى الحاضر الذي يعج بالأسئلة..

لقد كانت هذه هي الرسالة الأولى . الرسالة التي بعدها تحكي الأحداث ذاتها في فترة زمنية أبعد .. وهكذا دواليك .. حتى آخر رسالة بالعربية ثم تبدأ المخطوطات الهيروغليفية.

معنى هذا أن كثيرين حاولوا فتح الكيس قبلي، منذ كان في شمكجية ثم صار كيسًا خيشيًا حتى جاء عصر اللدائن وصار الكيس بلاستيكيًا. لكن الأغرب أن أياً منهم لم يستكمل الرسالة ليخبرنا بما وجده. هذا داع قوي كي أجرب بنفسي وليس من رأى كمن سمع.

ولكن هناك أسئلة عديدة.

لماذا لم يكمل أحدهم رسالته ؟

من وضع الرسالة في الكيس في كل مرة ؟

ما محتوى تلك البردية التي يبدو أنها باللغة الهيروغليفية؟

لماذا شعر كل واحد من هؤلاء بأنه ليس على ما يرام بعد ما انسكب المسحوق الأسود ؟

قررت أن أفتح المكحلة .. سألقي نظرة سريعة على محتواها وربما أرسله لمن يحلله، وبعد هذا سأكتب ما رأيت كي يعرف الآخرون ..إنها جامدة .. لا أعتقد أنها ستنفتح .. هوب !.. لقد انفتحت !.. يا للكارثة !.. لقد تناثر هذا المسحوق الأسود غريب الرائحة على مكتبي .. لكن لا مشكلة .. سأقوم بجمعه وإعادته إلى المكحلة...

هل حرارة الجو تتزايد ؟.. لا أظن .. لكن ما سر هذا العرق وهذه الرجفة في يدي ؟..

لا داعي للهستيريا .. إنه الانفعال لا أكثر .. سأتفحص الآن هذه المكحلة بدقة أكثر ..

.. تعالوا نلق نظرة معاً.....



هدية الأرواح

لم أثق قط في أية تجربة تحضير أرواح حضرتها في حياتي .. لقد رأيت الكثير لكن فكرة الخدعة لم تتخل عني قط، مهما كان الوسيط بارعًا .. لقد كان (كونان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) يؤمن بتحضير الأرواح ودعا المشعوذ الأشهر (هوديني) إلى تجربة لاستحضار روح أم الأخير .. تمت التجربة وتكلمت الأم .. لكن (هوديني) لم يبتلع التجربة ... أولاً لم تكن أمه تجيد حرفًا من الإنجليزية .. ثانيًا كان اليوم عيد ميلادها فلماذا لم تلمح إلى ذلك أثناء الجلسة ؟.. هذه قصة غريبة ترينا كيف أن المشعوذ لم يصدق تجربة تحضير الأرواح، بينما صدقها المؤلف الوقور العبقري ..

إلا ان هذه الجلسات بلا شك تجربة نفسية رهيبة، قادرة على أن تزحزح بعض الحجب التي تغطي أجزاء من أرواحنا .. (يانج) العالم النفسي الشهير وجد أن خبرة تحضير الأرواح مهمة لأنها تكشف عن جزء كبير من خبراتنا المدفونة ..

****

تلك الشقة في العجوزة .. يذكرك منظر الناس الجالسين والمنضدة والإضاءة الخافتة بـ (برتيتة) القمار في الأفلام العربية القديمة .. حتى تتوقع أن يظهر (ستيفان روستي) في أية لحظة ليقول: «برافو يا إكسلنس».. لكن الأمر ليس كذلك .. ما كنت لأجلس في أي مجلس فيه قمار .. لكني بالفعل كنت شغوفًا أشد الشغف بمعرفة ما يجري في جلسات تحضير الأرواح تلك .

مدام (فريدة) .. امرأة أرستقراطية مسنة من الطراز الذي يتم إنتاجه عبر خط تجميع .. كلهن نحيلات عصبيات شعرهن أبيض كالقطن، وعلى أكتافهن شال أسود .. أما الباقون فهم الأستاذ (محيي) والدكتور (فهمي) وآنسة (ميادة).. هناك أستاذ أدب إنجليزي هو خادمكم المتواضع ..

تقول مدام (فريدة) بصوتها الرفيع المتهدج:

«الآن نبدأ.. لو كان هناك من يرغب في التهريج فليخرج الآن .. إن



النفوس الخبيثة تجذب أرواحًا خبيثة ».

ثم تأمر الخادم البلهاء فتضع أصيص أزهار قريبًا منا .. وتتجه إلى الجراموفون وتضع عليه أسطوانة .. يقال إن الأرواح تحب موسيقا (موتسارت) بشكل خاص .. هذا هو تأثير (موتسارت) الشهير ..

تقول مدام (فريدة) وهي تنظر لي بعينيها الحادتين:

-«لو كان هناك من لا يصدق فلا أطالبه بشيء إلا الاحترام !»

قلت لها وأنا أشعر برهبة مبررة:

-«صدقيني .. أنا لا أصدق لكني أرتجف خوفًا .. يصعب على الخائف أن يسخر»

إنها هيبة الرمز ... أنا لا أؤمن بحرف من الديانة الهندوسية لكني كنت أرتجف هيبة عندما دخلت أول معبد هندوسي في حياتي .. هنا يؤمن أناس ويبكون ويرتجفون ويدعون .. يمكنني ألا أصدق، لكني سأحترم المكان بكل تأكيد لأنه ملوث بإشعاعات التهيب التي تركها من سبقوني ...

مدام (فريدة) في السبعين من عمرها .. كانت مجرد امرأة أرستقراطية إلى ان توفي زوجها .. راحت تقرأ في علم الروحانيات وسافرت كثيرًا وقابلت كل من يزعم قدرته على الاتصال بالأرواح، إلى أن استطاعت أن تتصل بزوجها وحدها .. وقد خفف هذا من جزعها .. تقول إنها تشعر براحة تامة عندما تعرف أنه معها .. لن افهم النساء أبدًا .. كيف أستريح لحظة واحدة وأنا أؤمن بوجود شبح معي في كل لحظة ؟

بدأت المدام تهدي خبراتها للآخرين .. أعترف بأنها لم تطلب مليمًا ، لكن كل واحد ممن يتعاملون معها قرر أن يجلب هدية صغيرة .. وصار هذا عرفًا .. خمس هدايا ثلاثة أيام أسبوعيًا معناها ستون هدية في الشهر !...

الأستاذ (محيي) هو بطل هذه الجلسة لأنه قد فقد ابنته الشابة منذ

شـهر .. حـادث مروع من الطراز الذي يجيد انتقاء ضحاياه وقد انهار المسكين تمامًا برغم أنه من ذوي الأعصـاب القوية ، لكن معرفة أخبار تجارب مدام (فريدة) جعلته يجد هدفًا لحياته ..

الدكتور هو معالج الفقيدة .. الآنسة صديقتها الوحيدة .. انا صديق الطبيب .. هذا كل شيء ..

سـاد صـمت رهيب مـا عـدا مـوسـيقـا الأخ (مـوتسـارت)... ودعـتنا السـيـدة إلى أن نتـأمل مـغلقي الأعين.. ثم نظرت نحـو الأب المتلـهف وقالت :

ـ«أنت أبوها .. لهذا على الأرجح سوف تترك لك Apport»

قالتها بالإنجليزية فلم نفهم .. هذه الكلمة لا وجود لها في القاموس على حد علمي .. وإن كانت قريبة من فعل فرنسي يعني (الإحضار)...

قالت مفسرة :

ـ«الـ Apport هي هدية الروح .. إنها تجلبها لمن تثق فيهم من الجلوس .. قد تكون شيئًا صغيرا تافهًا أو شيئًا ثمينًا .. بعض الناس يطلبون مـالاً وهذا يتـرك أثرًا بالـغ السـوء لدى الروح .. أنت أبوها لذا يمكنك أن تطلب منها هدية .. لكن لتحتفظ بها في سرك ..»

كان هذا خطأ جسيمًا كما ستعرف فيما بعد...

ـ«هل أنت معنا يا (هالة) ؟»

نعم .. هذا الشـعـور المفـاجئ بالبـرد ليس وليـد الصـدفـة .. بعض الأرواح تحدث بردًا شديدًا عندما تصل .. بعضها يسبب الحر ..

ثم أن السـيـدة بدأت تتلو حـروف الأبجدية بصـوت رتيب وكـأنها تملي رسالة شفرة:

ـ«أ .. ب .. ت .. ث .. ج .. ح.........»

فما أن وصلت إلى حرف النون حتى سمعنا دقة جعلتنا جميعًا نثب مترين في الهواء .. لكن السيدة (فريدة) لم تتحرك . فقط مدت يدها في



ثبات ودونت في ورقة حرف (النون).. ثم واصلت القراءة ....

«أ .. ب .. ت .. ث .. ج .. ح.........»

هنا سمعنا الدقة عند حرف العين .. يبدو كأن الصوت صدر من منضدة صغيرة جوار الباب .. يا للكارثة !. هذه أقدم طريقة لتحضير الأرواح في التاريخ .. الـ typtology كما أسماها عالم الروحانيات (آلن كاردك).. وفيها يتلو الوسيط الأبجدية كلها إلى أن تصدر الروح دقة ما، عندها يكون اختيارها هو حرف الأبجدية الأخير ..

يتم تدوين الحروف لمعرفة ما تريد الروح قوله .. طريقة معقدة أقرب إلى شفرة مورس، ويمكنك الآن تخيل كم من الوقت سوف تستغرق هذه المحادثة الأبوية .. لابد أننا سنعود لبيوتنا بعد ثلاثة أيام..!

قالت مدام (فريدة) وقد خمنت ما أفكر فيه:

«لا وجود للزمن في عالم الأرواح .. إن لديها كل الوقت .. كل الأبدية ..»

لكننا لا نملك الأبدية .. لو لم أعد للدار قبل الحادية عشرة لجعلتني زوجتي الشبح التالي ..

استغرقنا دقيقتين حتى قالت الروح (نعم .. أنا هالة)... ثم نصف ساعة حتى سألت أباها عن حاله .. وهكذا دارت محادثة الدقات هذه... فلابد أن مدام (فريدة) تلت الأبجدية خمسين مرة ..

أنت تذكر قصة الأخوات (سكوت) حين كانت الأخت الكبرى (تطرقع) أصابعها في حذائها الضخم من ثم تحدث صوت الدقات هذه .. لكني أرى أصابع قدمي المدام (فريدة) في صندلها .. لابد من تفسير ما .. أين الخادم بالمناسبة ؟؟....

لكن الأب المتحمس يرتجف تأثرًا ويقول:

«نادتني (موحا).. لا أحد يعرف هذا اللقب سواها وأمها ..!!.. ثم إنها ذكرت (مختار) الفتى الذي كان سيخطبها .. هذا سر بيني

وبينها..!!»

غطت (ميادة) وجهها وأعلنت أنها لا تستطيع البقاء أكثر .. لذا نهضت قبل أن تسمح لها المدام بذلك .. يبدو أن هذا خطأ فادح لأنها رمتها بنظرة نارية ولم تتكلم ..

بعد نصف ساعة طلبت المدام من الروح الانصراف .. وانتظرنا متوترين لدقائق .. استمر الصمت فتنهدنا الصعداء ...

نظر د. (فهمي) إلى المدام متسائلاً ثم أشعل لفافة تبغ ...فطلبت منه واحدة لنفسها .. نفثت الدخان كثيفًا ونظرت لي قائلة:

-«ما رأيك يا دكتور ؟»

هززت رأسي ولم أعد أدري ما أقول .. لقد كان هناك شيء .. لا شك في هذا .. لكن من قال إن هذه روح ؟...

قال الأب في تأثر وهو يمسك بيد السيدة:

-«لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني .. كل ما أرجوه هو أن تسمحي بتكرار التجربة ..»

قالت في وقار:

-«طبعًا يا أستاذ (محيي).. هذا هو ما أحاول إثباته .. الروح معنا .. أحباؤنا قريبون جدًا ..»

هنا سمعنا دقة..

وثبنا جميعًا للوراء .. بينما تساءل د. (فهمي) في توتر:

-«هل الروح ما زالت هنا ؟»

اتسعت عينا المرأة بمعنى أنها لا تعرف .. ثم دوت دقة أخرى .. هذه المرة عرفنا مصدرها ..إنها من خارج الغرفة .. من الشرفة ذاتها ..

هناك من يدق باب الشرفة المغلق...

هتف الأب في حنان:

-«(هالة) !»

نظرت له السيدة في جزع وقالت:

-«عم تتكلم ؟»

-«عن هدية الأرواح ... !.. لقد جلبتها لي !»

اتسعت عيناها أكثر وهتفت:

-«ويحك ..!.. ما الذي طلبته ؟»

-«طلبت أن تعود لي ابنتي .. هذه هي الهدية الوحيدة التي أريدها !»

وثبنا جميعًا بينما صاحت السيدة (فريدة) في جنون:

-«هل جننت ؟.. أتطلب طلبًا كهذا ؟.. قلت لك أن تطلب شيئًا رمزيًا .. »

ومن وراء باب الشرفة سمعنا الصوت العميق القادم من لا مكان:

-«باباااااااا !»

جرى الرجل نحو الباب ليفتحه .. هنا صرخت المدام في هلع:

-«يا لك من مخبول !... هل تتخيل أن تراها وقد عادت لك ؟.. بعد الحادث الذي مزقها تدخل لك الآن ؟... وبعد شهر ونيف من وفاتها ؟.. لا تفتح هذا الباب !»

لكنه صاح وهو يعالج المزلاج:

-«ابنتي هي ابنتي حتى لو كانت أشلاء !»

-«باباااااااا !»

هتفت المرأة في وهن:

-«امنعاه !.. إن ساقي لا تتحملان أن .....»

ثم هوى رأسها على المنضدة .. لقد فقدت وعيها.. وهرع د. (فهمي) إليها يتحسس نبضها على حين وقفت أنا عاجزًا أرقب الأب الذي يفتح الباب الآن ..

أخيرًا باب الشرفة ينفتح ...

أنظر ما خلفه وقلبي يتواثب في صدري ..

هنا أرى (ميادة) تدخل وهي تضحك في وحشية ..

وفوجئت بالأب كذلك يضحك .. لم أره يضحك منذ زمن ..

قال لنا:

-«أقدم لكما ابنتي العائدة !.. بالأحرى صديقتها (ميادة)..إن الشرفة مشتركة بين هذه الغرفة والغرفة المجاورة لها .. عرفت هذا من زيارتي السابقة ..»

قالت (ميادة) :

-«عندما اتفق الأستاذ (محيي) على جلسة تحضير الأرواح هذه، فوجئت بأخت مدام (فريدة) تتصل بكل صديقات (هالة) تسألهن عن أدق تفاصيل الفقيدة .. عاداتها .. الخ .. وجاء دوري في تلقي الأسئلة، لذا أدركت أن القصة كلها تتعلق بالنصب .. مدام (فريدة) تجمع كل التفاصيل عن الفقيدة لتستعملها خلال الجلسة .. »

قال الأب:

-«لهذا قامت (ميادة) بتسريب أخبار لا صحة لها .. لا يوجد من يدعى (مختار).. هل تتصور أن يدللوني أنا الرجل المحترم باسم (موحا) ؟.. ابتلعت (فريدة) الطعم واستعملت هذه المعلومات المغلوطة على لسان الروح ..»

قالت (ميادة) ضاحكة:

-«اتفقنا – لو تأكدنا من أن المرأة نصابة _ على أن أغادر الغرفة ثم ألعب هذه اللعبة المرعبة .. كانت قد أعدت كراسًا قديمًا من كراريس (هالة) وأخفته في الحجرة ليكون هدية الأب .. لكنها لم تتوقع أن يتمنى شيئًا مخيفًا كهذا .. هي وحدها كانت تعرف أنها نصابة، لذا أصابها الهلع عندما سمعت صوتي خلف باب الشرفة»



جلست على مقعد ألتقط أنفاسي وسألت:

-«وصوت الدقات ؟»

-«سيناريو مرتب بعناية مع الخادم .. إنها في غرفة مجاورة تسمع الأحرف ثم تدق. والجدار خادع يوحي بأن الصوت من داخل الغرفة .. .. لقد وجدت الأرملة العجوز طريقة لا بأس بها لكسب الرزق .. كل من يزورها يجلب هدية معه وهكذا تحصل على نحو أربعين هدية كل شهر .. ليس هذا أجرًا ضئيلاً ..»

قال الأب في صرامة:

-«برغم أنني تمنيت أن تكون روح ابنتي قريبة، فإنني أكره أن يسخر مني أحد أو يتلاعب بمشاعري كأب .. لهذا أعددت هذا الانتقام وأنا واثق من أن (هالة) راضية عما قمت به .. هذه المرأة لن تخدع أحدًا ثانية ..»

هنا قال د. (فهمي) في أسى حيث وقف جوار العجوز المنكفئة على المنضدة:

-«لن تخدع أحدًا أبدًا !!»

ونظرنا له في رعب .. فكانت الإجابة واضحة .. القلب العجوز لم يتحمل هذه الدعابة الثقيلة .. أما عن هذا الصوت فهو خشب الأرضية ... لا تقل لي من فضلك أنها دقات جديدة .. لا تقل لي إن مدام (فريدة) ترسل لنا الآن رسالتها الأخيرة.

****



العشـــاء

دعوتي إلى العشاء هذه جاءت على غير موعد كما تعرف يا (شريف).. لم أتوقع ان أقابلك في هذا الحفل.. انت تعرف أننا لم نلتق منذ عشرين عامًا على الأقل .. ثم رأيتك أمامي فجأة ، ومعك تلك الأمريكية النحيلة القبيحة ..

هناك نوع من النضج تبلغه التفاحة كلما تقدم بها الزمن.. في لحظة بعينها تصير التفاحة تفاحة كما أراد لها الله، وكما تراها في كتب الأطفال، وكما سقطت يومًا على رأس الخواجة (نيوتن). هذه هي لحظة الاكتمال التي قضيت حياتك تحاول بلوغها يا (شريف).. لا أذكرك إلا شخصًا عاديًا باهتًا، لكن لشد ما دب فيك التغير .. يمكنني القول إن ذروة نضج التفاحة هذه هي بداية النهاية .. أنت على قمة الهرم الآن ولسوف تنزل غدًا .. غدًا تتغضن وتهرم ..

أخبرتني إنك سافرت إلى الولايات المتحدة وتزوجت (ماري دونر) عالمة الأنثروبولوجي الأمريكية .. وأنها اصطحبتك معها حول العالم .. كنت طبيبًا لكنك لم تعد تذكر شيئًا عن الطب لأنك اندمجت بالكامل في هذا العالم المبهر: (الأنثروبولوجي).. صرت مصورًا ومحررًا لما تقوم به زوجتك ..

«هناك فيلمان عن جزر (فيجي) اشترتهما منا (ناشونال جيوجرافيكس) بسعر خيالي»

كان هذا مثيرًا .. لم ألق كثيرين من أصدقاء الطفولة ممن صاروا يعملون في الأنثروبولوجي .. أكثرهم صاروا مراقبين ماليين وإداريين .. والمحظوظون منهم صاروا مديري عموم أو مفتشي ضرائب..

أذكر كيف أنك أصررت على دعوتي لدارك يا (شريف) ومعي زوجتي والأولاد.. أنت لم تنجب بعد لهذا تدعو الكثير من الأصدقاء ..



أذكر كيف أنني أعددت الأولاد لهذه الزيارة وضربت هذا وركلت ذاك، ووعدت بأنني سأحطم رأس أول من يكسر طبقًا أو يدخل الملعقة في أنفه

عند مضيفنا .. هذه هي مدرسة (جحا) التربوية الشهيرة: العقاب قبل الخطأ لا بعده، فهذا يجعلهم أكثر حذرًا ..خاصة أنك لن تستفيد شيئًا لو عاقبت بعد حدوث الخطأ..

وصلنا في الموعد إلى تلك الشقة التي استأجرتها في (الدقي)، ففتحت لنا الباب يا (شريف) ورحبت بالأسرة كلها .. لا تؤاخذني ..لكن زوجتي اندهشت جدًا من مرأى زوجتك .. فإذا كان المرء سيتزوج ساحرة عجفاء فلماذا يجب أن تكون أمريكية ؟...إن زوجتك بالتأكيد تختلف عن صورة الحسناء الشقراء زرقاء العينين المرتبطة في أذهاننا بلفظة (أجنبية)، لكني أفهمت زوجتي أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. زوجتك فازت بك بعقلها لا بحسنها.. قالت زوجتي:

«إذن لماذا لم يتزوج (أينشتاين) ويريحنا ؟»

زغرت لها كي تصمت قليلاً.. بينما جاءت زوجتك تدعونا إلى المائدة ...وجلسنا نتبادل أطراف الحديث .. أحكي لها كيف كنت زميلي في المدرسة وكيف اعتدت أن ألوث كراسك بالحبر، وكيف إنك كنت تختلف عنا بذلك الطموح المستعر لتجربة كل ما هو غريب .كان الحديث يتلون بين الإنجليزية والعربية إذا تعلق الأمر بزوجتي والطفلين .. ثم صار بالإنجليزية تمامًا كي تشترك زوجتك فيه ...

هناك لحم ..لحم متبل بالصلصة البنية ..تذوقته وبدا لي لذيذًا فابتسمت لزوجتك ..ثم إنها جاءت بسلطانية حساء وراحت تغرف لنا منه.. عصرة ليمون هنا وهناك ..لذيذ لكنه كثير التوابل ..لم أعرف هذا عن المطبخ الأمريكي لو كان عندهم مطبخ ..

هنا بدأت أنت تحكي خبراتك التي عرفتها عن علم الأنثروبولوجي خلال هذه الأعوام .. قلت لي:

-«إن ما أثار دهشتي هو ما عرفته عن أكل لحوم البشر أو (الكانيباليزم)... من الغريب أننا جميعًا نمت بصلة قربى لأجداد كانوا



يمارسون هذا الطقس .. هل تتصور هذا ؟... بعض الجينات التي وجدها العلم في خلايانا لا تفسير لوجودها إلا حمايتنا من تبعات هذا النشاط المرعب .. لقد وجد الأثريون عظامًا بشرية في أوعية طهي عمرها نصف مليون عام في الصين ..»

تذكر أنني نظرت لك في حيرة .. ما الذي جعلك تتذكر هذه السيرة (المهيبة) ونحن نتناول الطعام ؟.. قالت زوجتك لا فض فوها: «كلمة Cannibalism أي (أكل لحم الجنس ذاته) مشتقة من لفظة (كاريب) الأسبانية التي تصف قبائل (الانتيل) .. لقد مورس أكل لحم البشر عبر التاريخ في خمس حالات لا غير: 1- أثناء المجاعات ..2- في المدن المحاصرة ..3- بسبب التعود .. إن بعض البدائيين كانوا يحبون مذاق هذا اللحم بالذات .. 4- كنوع من المبالغة في إيذاء العدو .. لا تنكر أن هناك سادية لا بأس بها في هذا الفعل .. 5- وأحيانًا مورس كنوع من العلاج .. إن التهام عدوك ينقل لك قدراته كما يعتقدون»

كنت منزعجًا أما زوجتي فلم تكن تتابع الحديث، ولم تبد مهتمة إلا بمعرفة من أين اشتريتم هذه الأطباق الخزفية الجميلة .. أما عن الطفلين فلو فهما لراق لهما هذا الموضوع بالذات .. لا شيء يعجب الأطفال مثل مواضيع أكل لحوم البشر والعفاريت وهذه الأمور الرقيقة ..

قلت وأنت تشرب الحساء برقي واضح: «على كل حال يبدو أن أكثر قصص أكل لحوم البشر في التاريخ مختلقة .. هناك إشاعات قيلت عن السوفييت أثناء حصار (لينينجراد) في الحرب العالمية الثانية ...وهناك إشاعات قيلت عن الصينيين أثناء المجاعة والثورة الثقافية . تلاحظ هنا أن الإشاعات تدور حول شيوعيين .. طبعًا يمكن أن نخمن مصدرها ..»

سألتك في حيرة:

-«هل .. هل هناك من أكل لحم البشر في العصر الحديث ؟»

قلت ضاحكًا يا (شريف):



«كثيرون .. هناك واحد مشهور في الولايات المتحدة اسمه (إد جين)، هو المادة الخام التي ألهمت الرواة والسينمائيين بحشد من الأفلام منها (صمت الحملان) و(سايكو) و(مذبحة منشار الشريط في تكساس).. هناك كذلك الطالب الياباني (ساجاوا) الذي التهم صديقته الهولندية وهما يدرسان في (السوربون) .. واستطاع أبوه الثري أن ينقذه لأنه أثبت أنه مخبول .. اليوم هذا الطالب مؤلف شهير له مراجع مهمة عن هذا الموضوع..»

رحت أقطع قطعة أخرى من اللحم .. أعتقد أنه غريب المذاق فعلاً.. لكني أعرف أكثر من غيري ما يفعله الوهم في النفوس ... رباه... ليتك تغير هذا الموضوع .. قلت لك:

«هل أحببت الحياة في جزر (فيجي) ؟»

قلت لي باقتضاب (نعم) ثم واصلت الكلام:

«في عام 1972 سقطت طائرة تقل فريقًا رياضيًا من (أوروجواي) في جبال الأنديز .. واضطر الناجون لالتهام من ماتوا .. وقد تم إنقاذهم بعد شهرين .. هذه قصة شهيرة جدًا كتبت عنها عدة كتب .. وهناك قصة جماعة (دونر) الشهيرة عام 1846 ..كانوا مجموعة تتكون من 87 من المهاجرين الأمريكيين سافروا للغرب نحو (كاليفورنيا)، لكن الجليد احتجزهم في (أوتاه).. مات أربعة وهكذا وجد الباقون أن عليهم التهام اللحم البشري .. في البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملته هذه ..فكروا في أكل الأدلة الهنود (هذا نموذج واضح لرقة المشاعر الغربية) لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج .. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم .. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن .. ولم ينج إلا نصفهم في يناير 1847 ..»

هنا بدأت أغضب منك يا (شريف).. فعلاً .. وقلت في عصبية:

«ما السبب في إصرارك على هذا الموضوع أثناء العشاء ؟»

ابتسمت أنت في غموض وتبادلت نظرة مع زوجتك .. وواصلت الكلام:

«من الأسماء المهمة كذلك في تاريخ هذا الطقس قبائل (أناسازي) في أمريكا الشمالية، والأزتك وجزر (فيجي)..»

هنا قلت باهتمام:

«(فيجي).. هل رأيت شيئًا كهذا في (فيجي) ؟»

«لا .. لم يعد هذا الطقس يُمارس هناك لكن هناك الكثير من الحكايات عنه .»

هنا صاحت زوجتك في حماس بالعربية المهشمة:

«هل من يرغب في المزيد من اللحم ؟»

تصايح الأطفال أن نعم .. هذا طبيعي .. أنا من الطبقة المتوسطة وما زال أكل اللحم والمانجو يحدثان في نفس أسرتي نوعًا من الشعور بالذنب .. فكرتي عن الثراء هي التهام اللحم والمانجو بلا حساب .. لكني زغرت لهم كي يتأدبوا قليلاً...

قالت زوجتك:

«يزعم علماء التاريخ أن الكانيبالزم مورس كذلك على نطاق واسع في الصين القديمة .. »

قلت لها وأنا أضع الشوكة جانبًا:

«معذرة . لكن هل هذه فكرتك عن تسلية الضيوف أثناء العشاء؟؟.. أنا لا أفهم..»

قلت يا (شريف):

«الحقيقة أن هذا الطقس القديم ساحر .. إن الكلام عنه مثير فعلاً .. إنه نوع من مداعبة أكبر مخاوفنا النفسية الكامنة في مؤخرة وعينا: أن نؤكل

.. تصور ان مفكرًا مكسيكيًا اسمه (ريفيرا) كتب يقول: حينما تصل الحضارة إلى مستوى معين وتتحرر من كل التابوهات والخرافات الحالية، فلسوف يسمح بالكانيبالزم بشكل قانوني ..»

«إنه رجل مريض ..»

ورحت أنظر إلى اللحم .. أنا كذلك مريض .. أدرك هذا جيدًا ..

هنا قلت لي يا (شريف):

«لماذا لا تأكل؟.. انا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء .. كل شيء ! .. أنا أيضًا تمنعت في البداية ثم بدأت أجرب .. زوجتي علمتني أن أجرب .. حينما ترى أطعمة قبائل (البوشمان) أو بعض المأكولات الهايتية، توشك على فقدان وعيك .. ثم تبدأ تتساءل عن جدوى الحياة التي تأتيها وتفارقها من دون أن تجرب كل شيء.. لقد تعلمنا من (فيجي) أشياء كثيرة، و هذا اللحم جئنا به معنا من الولايات المتحدة .. لم تفتش حقائبنا ..»

هنا وضعت السيدة المزيد من اللحم في طبقي وقالت:

«لاحظ أن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة في الولايات المتحدة.. إن خيال المشرع لم يصل لهذه الدرجة .. المرات التي حوكم فيها أكلة لحوم بشر، أعدموا بتهمة القتل لا أكل لحوم البشر..»

كنت أنظر للطفلين وهما يأكلان في نهم، وزوجتي تتأمل الشوك والملاعق محاولة معرفة سعرها.. وكان عقلي يسترجع هذه الكلمات .. ماذا كان اسم زوجتك ؟.. ما اسم تلك الجماعة التي احتجزت في الجليد في يوتاه ؟... (دونر) ؟... البعض ظلوا أحياء .. البعض نقلوا ما تعلموه لأجيال أخرى .. هل من يرغب في المزيد من اللحم ؟.. انا مصر أن على المرء أن يجرب كل شيء .. كل شيء !

ورفعت عيني نحوك لأجدك ترمقني في ثبات يا (شريف) وتقول لي:

«أردت وزوجتي أن نجري تجربة مهمة .. هل يمكن للرجل العصري أن يتحمل هذه التجربة ويستمتع بها ؟.. يجب أن تقول لنا انطباعاتك بدقة ..!!»

لم أرد ..

فقط نهضت في حدة وانتزعت الطفلين من مكانهما، وجررت زوجتي جرًا نحو الباب وهي تحتج:

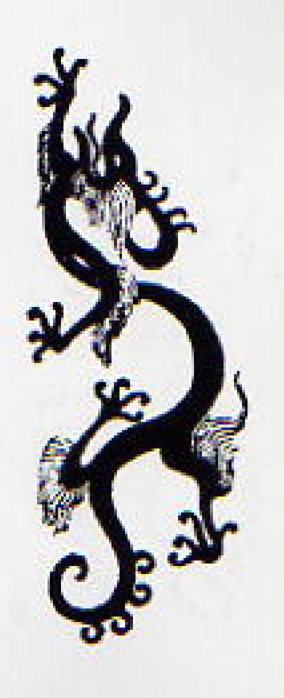
«لكن .. لم نتناول الفاكهة بعد !!... أترك لنا فرصة نغسل فيها أيدينا!.. هل جننت ؟»

فعلاً كنت قد جننت ..

ولم أقل لك كلمة واحدة .. لقد اتجهت إلى الباب وأقفلته ورائي بقوة هزت البناية هزًا .. وفي البيت حرصت على ألا تبقى ذرة من هذا العشاء اللعين في معدة أحدنا ..

****

اليوم - بعد شهرين من تلك الحادثة - تلقيت ذلك الخطاب منك .. لم أرد على أية مكالمة منك وتحاشيتك كالطاعون .. لو كنت متأكدًا مما أقول لأبلغت الشرطة .. لكني فتحت رسالتك من باب الفضول فوجدت نسخة من مقال نشرته زوجتك في مجلة علمية مختصة بـ (الأنثروبولوجي).. وكان عنوان المقال هو: «مدى الاستجابة للإيحاءات عسيرة التصديق لدى عينات منتقاة من الأسر المتوسطة في منطقة الشرق الأوسط». كان العنوان معقدًا لكنه واضح .. ربما كنت تتسلى علي يا (شريف).. ربما كنت توحي لي بشيء غير حقيقي لتدرس رد فعلي كما يقول المقال .. لكني أفضل أن أحتفظ باشمئزازي السابق .. كيف أعاودك واسم أسرة زوجتك هو (دونر) فعلاً كما كتب في المقال ؟.. كيف أعاودك وأنا لم أرتح قط لمذاق هذا اللحم ؟.. كيف أعاودك وأنا أعرف غرابة أطوارك وولعك بكل



ما هو غريب ؟.. ربما في مجلة ما يوجد مقال آخر عنوانه : «مدى الاستجابة لمذاق اللحم البشري لدى عينات منتقاة من الأسر المتوسطة في منطقة الشرق الأوسط» .

لكني لن أرى هذا المقال أبدًا ..

أعرف أنني لن أراه أبدًا.

****



حكايات الظلال

قال لي (مصطفى الحمزاوي) وهو يقلب السكر في كوب الشاي:

«كلها جرائم بشعة، وكلها جرائم منفذة بعناية .. هذان نقيضان لا يجتمعان إلا نادرًا .. من الصعب أن يخطط القاتل المتوحش لجريمة دقيقة .. ومن الصعب أن يرتكب عبقري جريمة بشعة .. هذا هو اهم ما يلفت نظرك في هذه الجرائم»

هل قابلت العقيد (مصطفى) من قبل ؟.. إنه ابن خالي .. رجل شرطة بالمعنى الحرفي للكلمة .. إنه يكره المجرمين فعلاً وينحاز للضعفاء بالكامل .. أنت تعرف أنني موضوعي ولن اجعل منه ملاكًا لمجرد أنه ابن خالي .. فقط أقول إنه رائع لسبب واحد هو أنه رائع ..

كنا صديقي طفولة، وكان يحب شقيقتي منذ سن المراهقة وإن لم يعترف بهذا إلا عندما صار في سن الزواج .. وهكذا صار زوج أختي .. صحيح أن داء السكر متفش في الأسرة وزواج الاقارب سوف .. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال .. لقد دخل هو كلية الشرطة بينما اهتممت أنا بالأدب الإنجليزي .. وقد اعتاد أن يحكي لي عن القضايا الغامضة التي تحيره ليعرف كيف أفكر .. أحيانًا يكون رأيي عبقريًا وأحيانًا هو الغباء ذاته ..

عاد (مصطفى) يقول:

«مثلاً هناك ذلك المحاسب الذي اختنق في مكتبه .. من الواضح أن المحاسب قد خدر، ثم شغل أحدهم المدفأة في شهر أغسطس وأغلق الغرفة بإحكام .. ثم غادر المكتب وبطريقة ما أحكم غلق الأبواب من الداخل .. ميتة بشعة لكنها متقنة كذلك .. خذ عندك أيضًا الموظف الذي تم تعديل جرعات الإنسولين التي يحقن بها نفسه لعلاج السكر .. كان يعيش وحيدًا وقد تسلل أحدهم إلى شقته واستعمل نوعًا من الإنسولين به مائة وحدة بدلاً من الأربعين التي كان يستعملها .. »

قلت في كياسة:

«هذا خطأ شائع لدى المرضى..»

«ليس مع من يُعالج من السكر منذ ثلاثين عامًا بالله عليك»

وعاد (مصطفى) يعد على أنامله:

«هناك امرأة قام أحدهم بتعرية سلك غسالتها الكهربية، وترك الطرف العاري عائمًا في المياه التي تبلل بلاط الحمام .. المشكلة هنا أنها كانت وحيدة في البيت ولم يكن بوسع أحد اتهام زوجها لأنه مسافر منذ أسبوع.. لكن من فعلها ؟... التقارير الفنية تؤكد أنه من المستحيل ان يحدث هذا قضاء وقدرًا ..»

قلت في نفاد صبر:

«يا أخي من السهل أن يفعل الزوج ذلك ثم يسافر ..»

قال بذات لهجتي:

«مستحيل لأن أختها زارتها قبل الحادث بساعات .. وكانت الزوجة تغسل الثياب في ذات الظروف من حفاء القدمين والبلاط المبتل والغسالة لكن شيئًا لم يحدث .. هذا السلك تدلى ليلمس الأرض في وقت ما بعد رحيل الأخت ..»

هكذا راح يعدد لي حوادث موت.. لا أعرف إن كان بوسعي أن اعتبرها جرائم قتل .. لكن من الممكن أن تكون هذه نماذج فريدة على اجتماع الإهمال بالغباء البشري المعتاد مع بعض الحظ السيئ ..

قلت له رأيي فقال وهو يحك رأسه:

«كان هذا رأيي وحياتك حتى أسبوع مضى ..»

ثم مد يده في كيس ورقي يحمله، وأخرج كومة من روايات صغيرة لها ذات حجم صفحة الفلوسكاب لو ثنيتها على نفسها مرتين .. وقال لي:

«(سعيد وهبي).. هل سمعت هذا الاسم من قبل؟»

هززت رأسي أن لا .. وأمسكت بروايتين تحملان عنوان (حكايات الظلال).. هذه سلسلة إذن ... قصص بوليسية على ظهر كل منها صورة لمؤلفها الذي له وجه فأر مذعور وشارب يذكرك بالأخ (هتلر).. كان هذا النوع من الأدب منتشرًا بين الشباب، لكنه لأسباب يطول شرحها غير محبب لدى أصحاب السنين من امثالي، ربما لأننا لم نعتد إلا الأدب

الواقعي أو الرومانسي أو السياسي ..

قلت له:

«لا أعرفه .. على كل حال لا أعتقد أن سوق الروايات البوليسية رائج في مصر ..»

«وهو كذلك .. لكني وجدت هذه الروايات عند ابني فقررت أن أسلي وقتي بها.. إنها ليست تحفة أبدية وبالتأكيد ليس هذا الرجل أخا (أجاثا كريستي)... لكن أنظر إلى قصة (شبح الوحدة) صفحة 154.. تجد أن القاتل قام بتعرية سلك الكهرباء في الغسالة ككمين لزوجته ..والآن افتح قصة (أشباح الماضي) صفحة 88 تجد أن القاتل العبقري استبدل نوع الإنسولين الذي يستعمله خصمه المبتز ...قصة (الابتزاز) بدورها تحكي عن عملية خنق بالمدفأة .. ثم ..»

قلت في لا مبالاة:

«إنه يستلهم صفحات الحوادث في الصحف كأي أديب آخر.. هذا أسلوب معروف»

«هذه الحوادث لم يُكتب عنها حرف في الصحف .. وهل تريد معرفة ما هو أكثر ؟»

ثم فتح الصفحة الأخيرة لرواية من هذه الروايات وقال:

«رقم الإيداع يدل على أن القصص كتبت منذ ثلاثة أعوام ..أي قبل أن تحدث أول جريمة بعامين ..»

****

هكذا وجد (مصطفى) نفسه على بداية الخيط ...

سوف يجد هذا المؤلف نفسه في مأزق عويص .. عليه إثبات أنه مُلهم إلى حد لا يصدق .. هناك فيلم أجنبي شهير كان المؤلف يكتب فيه قصص جرائم ثم تقع حرفيًا، وقد قدمته السينما المصرية تحت اسم (بطل من ورق)، لكن التفسير كان سهلاً هو أن هناك مجرمًا حقيقيًا يستلهم جرائم المؤلف .. سيكون على المؤلف إثبات هذا كذلك ..



فيما بعد حكى لي (مصطفى) الموقف كاملاً..

كان الرجل في الأربعين من عمره، وكان بالفعل أقرب لفأر مذعور .. لقد كانت الصورة صادقة .. أصابه الهلع حينما عرف أن الشرطة تهتم بقصصه، وأثار هلعه أن يعرف أن علامات استفهام تحيط به .. كان -كما بدا لـ (مصطفى)- مجرد رجل بائس لا يملك الكثير من الموهبة أو الخيال، وهو بالقطع عاجز عن قتل دجاجة، وكان يكتب ليظفر بالأربعمائة جنيه التي يدفعها له الناشر عن كل كتاب .. لا أكثر ولا أقل ..

(مصطفى) يميل إلى أن الرجل بريء .. لكن ما تفسير هذه المصادفة العجيبة ؟

قال له (مصطفى) إنه لا يشك فيه، لكنهم يريدون أن يساعدهم بمخيلته .. من عساه يستطيع أن ينفذ جرائم القتل تلك مستوحيًا القصص ؟.. لا إجابة ..إذن ما هي جريمة القتل التالية ؟.. لا إجابة ..

كانت حلقات الاتهام تحيط بـ (سعيد وهبي) لكن أحدًا لم يجد أدلة كافية، وكان هذا عندما وقعت جريمة القتل التالية .. جرى (مصطفى) يتصفح كل النسخ التي لديه ثم توقف عند صفحة بعينها وهتف بانتصار:

«ها هي ذي .. معالجة المصعد كي يتوقف بين طابقين .. فتح الباب وإخراج رأس الأستاذ (محمود) منه، ثم تشغيل المصعد ليطير الرأس .. بعدها يفر القاتل من فوق سطح البناية .. لا تقل إن هذه مصادفة من فضلك .. فقد كبرت على هذا»

لم أجد ما أقول .. فعلاً لا يوجد تفسير .. ومن جديد نعود لفكرة (بطل من ورق)..

بعد أيام اتصل (سعيد وهبي) بـ (مصطفى) يخبره بأن جريمة القتل التالية سوف تحدث خلال يوم أو يومين .. القتيل محام شهير سوف يجدونه مدفونًا في الصحراء حتى العنق .. هكذا سيترك عشرة أيام كاملة حتى يقتله الجوع والظمأ والخوف وحرارة الشمس ...

الآن بدأ الاتصال .. هكذا سأله مصطفى في حماس عن مصدر معلوماته.. فقال (سعيد):

«قصصي .. هذه جريمة قتل ابتكرتها أنا .. لقد آمنت بأن قصصي مصدر إلهام لقاتل مخبول»

«ولماذا اخترت هذه الطريقة بالذات الآن ؟.. قصصك مليئة بالقتلة والقتلى ولله الحمد ..»

«لا أستطيع تفسير ذلك لكن يجب أن تصدقني ..»

لكن كيف يمكن حماية كل محام في مصر ومنعه من أن يدفن في الصحراء ؟.... استعمل (مصطفى) الطريقة السهلة الوحيدة بأن يراقب (سعيد وهبي) جيدًا .. عشرات الرجال ضخام الجثة غليظي الشوارب شوهدوا يقرءون الصحف في الشارع الذي يقيم فيه ولمدة يومين، لكن الجريمة تمت بدقة .. وبعد أسبوعين وجد أحد البدو تلك الجثة ..

جن جنون (مصطفى) .. وكان السؤال المنطقي الأول الذي وجهه للمؤلف البائس هو:

«ما الذي يربط بين هؤلاء القتلى؟»

«لا أستطيع التفسير..»

هكذا كان صبر (مصطفى) قد نفد .. قرر أن يكشف عن انيابه لهذا المدعي .. جره جرًا إلى قسم الشرطة وأبقاه هناك ربما للأبد .. فقط كان يستدعيه ثلاث مرات يوميًا ليسمع القصة ذاتها ..

في النهاية انهار الرجل وقدم اعترافًا كاملاً..

«إنهم قتلة قصصي .. لقد تحرروا !...»

يمكنك الآن فهم رد فعل (مصطفى)... لقد أمسك بالمؤلف من تلابيبه وعاد يستعيده القول ..

«قتلة قصصي تحرروا وهم يقتلون الناس بذات الترتيب والطرق التي قمت بتأليفها ..إنهم لم يعودوا مجرد شخصيات على ورق .. إنهم الآن حقيقيون !»

عرضوه على الطبيب النفسي ... فكان رأيه الذي قدمه لـ (مصطفى)

ولي لأنني كنت هناك بالصدفة هو:

«أحيانًا تكون الكتابة عملية إعلاء نفسي .. هذا المؤلف يعاني عدة عقد نفسية ومحبط بشكل واضح، لهذا راح يمارس على الورق ما كان يمكن أن يمارسه في الواقع .. يقتل ويسرق وينال أجمل النساء .. كل قتلته نموذج للشخص الذي كان يتمنى أن يكونه بنفس المنطق الذي يجعل الناس يحبون قصص (آرسين لوبين) التي تحكي عن لص لا يشق له غبار..»

قلت له بلهجة الأدب:

«هذا إذن هو التطهير الأرسطوطالي»

«بالضبط .. ما كان يكتبه على الورق حماه من أن يصير وحشًا .. لكن هذا الإعلاء لم يعد يكفي .. هكذا خرج إلى العالم ينفذ بالفعل ما ارتكبه قتلته على الورق .. هذا هو الفصام»

قال (مصطفى):

«نظرية جميلة لكن الرجل لا يملك هذه القدرات الخارقة .. يتسلل إلى الشقق المغلقة ويفلت من رقابة مخبرينا .. الخ..»

«إنه ذكي .. لا أحد ينكر هذا .. وأعتقد أنه قادر على إيجاد السبل ..»

عندما جلسنا مع (سعيد وهبي) بدا مصرًا على نظريته .. وقال لي:

«هناك من القتلة الذين ابتكرتهم (راغب) الذي يجيد القتل باستخدام طرق طبية .. إنه طبيب فاشل شطبت النقابة اسمه لأنه كان يمارس الإجهاض .. وهناك (مختار) الذي يقتل بالكهرباء .. كل جرائمه لها طابع كهربائي ... كل هؤلاء خرجوا من قصصي ... كنت انام ليلاً فأسمعهم يتكلمون في الصالة .. كنت اخرج فلا أجدهم لكني أعرف يقينًا أنهم كانوا هنالك .. (راغب) يهوى رسم الأسهم على قطع الأثاث بمديته .. (منصور) الذي يحب قطع رءوس ضحاياه بالمصعد يسعل ويبصق كثيرًا .. في الصباح كنت اجد آثاره في الصالة، كما كنت أجد أعقاب السجائر تشي بأن هناك نحو خمسة رجال كانوا في داري ليلاً»



قال الطبيب النفسي:

«بضعة أيام في المصحة مع الملاحظة ..»

هكذا أودعوه غرفة انفرادية في مصحة عقلية .. وأغلقت القضية .....

بعد أيام اتصل بي (مصطفى) قائلاً:

«أريدك معي»

كان يريد أن يصحبني إلى المصحة ... هناك أدخلونا إلى غرفة يقف على بابها حارس مذهول، وعلى الفراش كان (سعيد وهبي) بمنامته الخالية من الخيوط والأزرار ينظر في ذهول إلى السقف .. لقد مات .. وعلى الأرض جثة كوبرا مصرية قتلها الحراس بالأحذية بعد ما لدغت (سعيد)..

«أنا لم أفارق مكاني ومن المستحيل أن يدخل أحد هذا الثعبان من النافذة الموصدة.. لقد سمعت صوتًا من داخل الغرفة، كأن عددًا من الرجال يتناقشون .. هناك من يسعل ويبصق وهناك من يضحك .. ثم سمعت من يقول: حان الوقت لننهي علاقتنا بك ..قلت لنفسي إنني أحلم لأنه لا يمكن أن يدخل إنسان هذه الغرفة، ثم سمعت صرخة فهرعت أقتحم المكان لأجد الرجل ميتًا والثعبان يتلوى حول ساقه ..»

كانت هناك أعقاب سجائر في كل صوب على الأرض ومعها بقع من البصاق.. واتجهت إلى إطار النافذة فوجدت تلك الخطوط التي رسمها أحدهم بمدية .. إنها أسهم .. لا شك في هذا ...

وجدت (مصطفى) يمسك برواية صغيرة في يده ويقلب صفحاتها حتى بلغ موضعًا .. وقال لي:

«أحضرتها معي لأنها الرواية الوحيدة التي يقتل فيها نزيل في مصحة»

ثم راح يقرأ بصوت عال:

«وبمجرد ما استطاع (درويش) أن يتسلل إلى جوار الفراش، أخرج هديته الخطرة من الكيس الذي يحمله غير مبال بفحيحها الغاضب ..



وألقاها على جسد النائم لتتلوى فوقه قبل أن تغرس نابيها في لحمه.. هنا تنهد (درويش) وبيد ثابتة أشعل لفافة تبغ وأحرق غطاء الفراش على شكل حرف D.

نظرنا معًا إلى الملاءة تحت جسد (سعيد) الخامد، فرأينا حرف D واضحًا هناك..

هل نحن واقفان أمام لغز آخر من ألغاز الكون؟، أم يتعلق الأمر بكاتب واسع الحيلة استطاع أن يهرب ثعبانًا إلى داخل المصحة لينتحر بطريقة تثير العجب؟.. كلا الاحتمالين عسير التصديق.. فقط نعرف أن الظلام يدنو وأن سرًا آخر سينضم إلى حكايات الظلال.

****

أوتوستوب

أوائل السبعينات .. الهيبيز ووشم الوردة و(مانسون) وأغنية (هاري كريشنا هاري راما) .. والبيتلز الذين عادوا من التبت وقد اعتنقوا البوذية وأدمنوا المخدرات. ثورة الشباب وحرب فيتنام .. لاحظ أن الهيبيز هم أصلاً شباب فروا من بيوتهم لأنهم يرفضون الحرب .. (البيض الذين انتزعوا الأرض من الحُمر يرسلون السود بعيدًا لقتال الصُفر)... وفي مصر هناك حالة الإحباط قبل حرب اكتوبر وأغنية (الطشت قاللي)، بينما على الجبهة يقبع الرجال حقًا في خنادقهم يخططون للعبور..

مع هذه الحمى العالمية التي ما زال علماء الاجتماع يحاولون فهمها انتشرت في مصر عادة غربية عجيبة هي الأوتوستوب .. نعم هي عجيبة .. فقط في الخارج يمكنك أن تتخيل فتاة طويلة الشعر تربط شريطًا حول جبهتها وتلبس الأسمال وتحمل على ظهرها جيتارًا .. تشير لسيارتك لتركب معك .. إلى أين ؟.. لا يهم .. في اللحظة التي تريدها سوف تبدأ حياة جديدة في مكان جديد مع شخص جديد .. هذا غريب عنا ولا مذاق له .. يذكرك بعادة أكل (الملوخية) بالشوكة التي يمارسها البعض ..

لكن -كي أختصر- يجب أن احكي لك قصتي ... هذا أنا في السيارة (الداتسون) التي يملكها (علاء) صديقي .. طبعًا لم تكن سيارتي لأنني لم أكن ثريًا قط .. كنا طالبين في الجامعة وكان المستقبل ممتدًا أمامنا.. ممتدًا كذلك الطريق الخالي من السيارات الذي راحت سيارة (علاء) تنهبه نهبًا ... كان مجنونًا لكني كنت اكثر جنونًا منه ..لهذا مضينا في هذا الطريق بلا وجهة معينة .. ولو أفقنا لنجد أننا في ليبيا لما اندهشنا كثيرًا ..

كنا نتكلم عن (غيداء) .. أنت تعرف (غيداء) الآن .. وكنت أرسم على وجهي تعبيرًا يقول: هي مجرد فتاة .. أنا لا أهيم بها حبًا .. وكان يتكلم عن .. عن (صفاء) ؟.. لا أذكر الاسم الآن .. وصوت (جون لينون) يدوي من كاسيت السيارة هامسًا: «تخيل لو كان العالم واحدًا .. تخيل لو لم تكن هناك حروب .. ربما تتهمني بأنني حالم لكني آمل في أن تنضم إلينا..»

****

يتحدثون كثيرًا عن هذه الظاهرة حتى يقال إنها الأكثر شعبية في



العالم .. ظاهرة شبح راكب الأتوستوب Phantom hitchhiker .. يقال إن هذه الظاهرة مقصورة على جنوب افريقيا واستراليا لكن الدراسة المدققة توضح أن كل مكان في العالم شهد ظاهرة مماثلة ...

القصة تتحدث دائمًا عن ضحية هلكت في هذا الموضع بالذات ... حادث من نوع ما ... بعد هذا بأعوام يمر في النقطة ذاتها عابر سبيل وحيد في سيارته فيفاجأ بمن يستوقفه طالبًا الركوب (أوتوستوب).. طبعًا يتضح متأخرًا جدًا أن هذا شبح الضحية ..

على كل حال يقول العارفون بهذه الأمور إن هناك ثلاثة سيناريوهات محتملة :

السيناريو الأول : الشبح يشير للسيارة لتتوقف .. ثم يركب .. لأسباب واضحة يكون هذا الشبح من الجنس الآخر .. وإلا ماذا سيدفع السائق للتوقف ؟

السيناريو الثاني : فجأة تصدم السيارة شخصًا .. وينزل السائق المذعور بحثًا عن ضحيته فلا يجد جثة ... ربما يكتفي الشبح بالظهور أمام السائق (ليفزع الجحيم من أحشائه) كما يقول الغربيون..

السيناريو الثالث : نوع مفيد من الأشباح .. يقوم بإيقاف السائق في موضع الخطر من الطريق .. أي إنه بهذا يحمي الأحياء من الحادث الذي قضى عليه هو نفسه ....

في استراليا هناك شبح معروف باسم (ماري العائدة للحياة Resurrec-tion Mary) وهي فتاة ألقاها صديقها من السيارة المسرعة بعد مشاجرة .. هي طريقة عبقرية لإنهاء النقاش مع الأنثى لكن النتيجة هي أن الأخت (ماري) عادت تظهر على الطريق بعد خمس سنوات طالبة من العابرين أن يوصلوها إلى المرقص.. بعد قليل تختفي من السيارة .. بعض القرى في جنوب أفريقيا تعلق على الطريق لافتة (احترسوا من الأشباح !) بنفس المنطق الذي نعلق به لافتات (عبور مدارس) أو (عبور ماشية) في بلادنا..

ثمة نقطة أخرى مهمة بصدد الأشباح التي تمارس (الأوتوستوب) هذه .. كل من يحكون هذه القصص تجمع بينهم صفة واحدة : هم

أشخاص لا يمكن أن تثق بكلامهم أبدًا !

****

ولم اكن أنا و(علاء) ندرك شيئًا من هذا ونحن نقطع الطريق بسرعة جنونية ... جزء من هذا الجنون يعكس توترنا وقلقنا بصدد الغد ...

على ضوء كشاف السيارة استطعت أن أرى ذلك الشبح الواقف على يمين الطريق .. في هذه الساعة ؟... إنني أحسد الشخص الذي امتلك من الجرأة ما يجعله يمضي راجلاً في هذه الفلاة في ساعة كهذه .. لكن ماذا عن كون هذا البطل فتاة ؟!. كانت تقف هناك وتشير بإبهامها على طريقة الأتوستوب الشهيرة.. وكانت تحمل حقيبة على ظهرها كأنها من السياح .. شيء واحد كنت متأكدًا منه .. لن نتوقف هنا لأي سبب ..

قلت لـ (علاء) ونحن نقترب من الشخص :

ـ«لا تتوقف .. استمر !»

ـ«إنها فتاة .. لابد أنها بحاجة لعون ..»

ـ«يا أحمق .. هذه المواقف تكون كمائن دائمًا.. سوف تقرأ اسمينا في صفحة الحوادث غدًا وربما صفحة الوفيـ.........آي !»

كانت الصرخة بسبب ارتطام رأسي بحاجز التابلوه لأن الأحمق ـ فعلاً ـ داس الفرملة ليقف بالضبط أمام تلك الفتاة ..

أغمضت عيني متوقعًا طلقات الرشاش التي سيفرغها فينا أولئك المطاريد المتوارون خلف الأشجار .. هذه هي اللحظة المناسبة... لكن لم يحدث شيء ..

فتحت عيني لأسمع المحادثة.. كانت الفتاة تقول:

ـ«نفس طريقك هذا .. سأنزل عندما نصل إلى العمران»

أشار لها إلى المقعد الخلفي لتركب .. الآن بدأ الأحمق يتوتر ولم يعد على طبيعته كأي رجل يتعامل مع فتاة جميلة .. لم تستطع فتح الباب لأنه لا يمكن فتح أي باب في سيارة (علاء)، لذا ترجلت لأفتح لها .. كانت



جميلة فعلاً وإن أدركت على الفور من ثيابها غير المهندمة وشعرها الطويل الذي يكسو خصرها أنها ممن تسربت لهم ثقافة (الهيبيز)..

انطلقت السيارة من جديد .. ورحت في ذهني أفكر في أن هذا غير عادل .. لو كان من يشير لنا رجلاً بائسًا في مأزق فعلاً لما توقف (علاء) .. لكن أسلحة الأنثى ماضية كما تعلم ..

سوف تخرج المسدس الآن وتدسه في رأسي طالبة أن نعطيها ما معنا من مال ونترجل، ثم تأخذ السيارة وتتركنا نجرب الأتوستوب بدورنا .. هذه هي اللحظة المناسبة ..

سألها (علاء) السؤال المنطقي وهو ينظر إلى معالم الطريق:

«ماذا أتى بك هنا في ساعة كهذه ؟»

قالت وهي تنظر من النافذة:

«هي قصة طويلة ..»

«هل لنا أن نتشرف بالاسم ؟»

«هذا لا يهمك في شيء ..»

وضحكت في وحشية في سري ... إن الصفعات غير المرئية تتوالى على خدي صاحبي .. لكنه يتمتع بكل صفات فاتن النساء وأهمها أنه عديم الإحساس بالمهانة .. (ما عندوش دم) باختصار شديد ..

قال لي وهو ينظر من فوق كتفه للخلف:

«ناولها بعض الشطائر .. لابد أنها جوعى .. لقد تناولنا العشاء في السيارة لكن هناك شطائر و..»

قالت بطريقتها الباردة:

«انا لا آكل ... أبدًا ..»

هكذا واصلنا السير في خرس تام .. غريب أمر هذا الطريق .. إنه بالفعل أكثر الطرق عزلة في مصر كلها ومنذ ساعة لم أر سيارة واحدة .. إن وجود هذه الفتاة يجعل المرء عصبيًا ولا أنكر هذا .. دعك من أنها تتأمل



قفاي باهتمام غير عادي .. كيف عرفت ؟.. ألم تشعر قط بتلك النظرات التي تحرق قفاك عندما ينظر لك أحدهم في حدة ؟...

بعد قليل بدأ (علاء) يتململ .. ثم أوقف السيارة إلى جانب الطريق وطلب منا أن نسمح له بثانية واحدة .. لماذا يا أخ (علاء) ؟.. لم يرد .. لماذا يا أخ (علاء) ؟.. في النهاية نفد صبره فصاح في غضب:

«أوشك على الانفجار يا أحمق !..لقد شربنا الكثير من المياه الغازية !»

هكذا فهمت .. وهكذا ترك أضواء السيارة مضاءة وانطلق إلى جانب الطريق ليتوارى خلف مجموعة من الأشجار ... جلست أرمق سقف العربة وأنا اشعر بأن الصمت ثقيل إلى درجة لا تصدق ..

«إنني أذكر هذا المكان جيدًا ..»

سمعت الصوت من خلفي فنظرت لها .. كانت قد مالت بذقنها إلى مسند المقعد حتى صار رأسها قريبًا جدًا مني .. وكان ضوء غامض ينعكس في عينيها فبدتا لا تنتميان لعالمنا هذا .. نظرت لها طالبًا تفسيرًا فقالت:

«منذ أعوام كانت هنا فتاة وحيدة .. طالبة في كلية العلوم .. قتلت ودفنت تحت شجرة جميز ولم يعرف أحد مكانها أو يسمع عنها بعد ذلك .. شجرة جميز غليظة لا تخطئها العين .. وصورة الفتاة ما زالت تتصدر نشرات (خرج ولم يعد)..»

نظرت لها وسألتها السؤال الوحيد البديهي:

«وكيف عرفت هذا؟»

قالت في غموض :

«أعرفه ..»

ثم نظرت لي بعينيها الغريبتين وهمست:

«أنت متوتر .. أليس كذلك ؟... هذا لأنكما شابان مهذبان .. لو كنتما شابين آخرين لكان التوتر من نصيبي أنا .. ألم يقل لك أحد إنه من الخطأ

أن تتوقف لطالبي الركوب أوتوستوب ؟.. أنت تعتقد أنه مادمت أنا انثى وأنت ذكر فهناك اتجاه واحد للخطر .. الحقيقة أن التهديد لعبة يلعبها اثنان .. الخطر يسري في الاتجاهين كتلك الأسهم التي كنا نرسمها للمعادلات الكيميائية ..»

ثم ضحكت ضحكة طويلة كريهة .. رباه !.. لماذا لا يأتي (علاء) ؟.. لا يتعلق الأمر بإفراغ بحيرة السد العالي على ما أعتقد ...

قالت وهي لا تتزحزح عن جلستها:

«أنت قلق بشأن صاحبك ؟... لا تقلق .. إنه الآن مستريح تمامًا »

ثم انفجرت تضحك ضحكة مستهترة قاسية ..

في هذه اللحظة كان تحملي قد بلغ أقصاه .. وسرعان ما فتحت الباب المجاور لي .. إنه لا ينفتح .. لا يوجد باب ينفتح في سيارة (علاء).. أخيرًا... وسمعتها تقول:

«إهدأ قليلاً..! ... أنا لن آكلك »

لكني غادرت السيارة .. وسرعان ما رحت أجد السير نحو صف الأشجار الذي توارى خلفه (علاء)... ربما هي تعبث بي لكني أفضل أن أعرف الحقيقة وأنا مع (علاء)..

مشيت وسط الأعشاب الطرية والظلام أتعثر وأصيح مناديًا الفتى ..

هل ابتعد إلى هذا الحد ؟.. مستحيل .. (علاء).. (علاء)... فجأة شعرت بيد غليظة تمسك بيدي فصرخت ..

«ماذا دهاك يا أحمق ؟»

قالها وهو يحكم إغلاق سرواله.. فقلت له وأنا أرتجف:

«تلك الفتاة .. إنها مجنونة ..»

«لكنها جميلة .. أفضلهن على شيء من الجنون ..»

«لم استطع البقاء معها .. إنها تقول كلامًا غريبًا ..»

راح يطلق السباب لاعنًا الزمن الذي يرتجف فيه الرجال خوفًا من الفتيات الوحيدات .. وخرجنا من وراء حاجز الأشجار إلى حيث السيارة .. فلم نجدها !

راح يصرخ في جنون .. ويتهمني بالعته والحمق .. لقد ترك مفاتيح السيارة بداخلها .. هذه أذكى عملية نصب في التاريخ .. الفتاة أثارت رعبي حتى تركت لها السيارة وفرت بها !.. والآن علينا ان ننتظر مرور سيارة يتعطف صاحبها ويقبل ركوبنا معه !..

لم اصدق براعة الفتاة .. لقد لعبتها بشكل متقن فعلاً ..

هكذا مشينا على الطريق المظلم .. لم أتلق قط كل هذا القدر من السباب والإهانات في حياتي .. لكني لم أرد لأنني استحققت كل حرف ..

لابد أننا مشينا نصف ساعة وفجأة لمحنا ضوءًا على جانب الطريق .. هتف وهو يركض ركضًا:

«السيارة !!»

بالفعل كانت هناك .. متوقفة .. مضاءة .. الأبواب مفتوحة .. المفاتيح موجودة .. ولا أثر للفتاة .. إذن هي ليست لصة .. إنها داعبتنا مداعبة ثقيلة لا أكثر ..

ركب السيارة وأدار المحرك فاطمأن إلى أنها ما زالت صالحة للسير .. لم تتركها الفتاة لأنها تعطلت بها إذن ..

هنا نظرت إلى المكان من حولنا ... هناك شبح عملاق يطل علينا ككابوس من خلف حاجز الأشجار . قلت له همسًا:

«تعال معي ..»

انتزع المفاتيح ودسها في جيبه هذه المرة ثم ترجل وعيناه تتساءلان .. مشيت وسط الأشجار إلى أن وصلت إلى شجرة الجميز العملاقة .. أشعلت عود ثقاب ونظرت أسفلها .. هذه الكومة العالية لا تريحني .. برغم كل شيء يبدو لي أنها صنعت بيد بشرية ..

«عم تبحث ؟»

لم أرد .. أشعلت غصن شجر جافًا ليدوم الضوء أكثر، ومددت يدي أنبش الطين الجاف .. ولم استغرق وقتًا كثيرًا حتى أخرجت كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا متسخًا .. فتحته فوجدت به كراس محاضرات لم يتلف لأن الكيس حماه .. وعلى ضوء اللهب المتراقص وعلى الغلاف الداخلي قرأت: (مي محمد وهبي .. علوم كيمياء) ... وبعد صفحتين وجدت سهمًا من (تلك الأسهم التي تسري في اتجاهين) ..

نظرت له ونظر لي .. وساد الصمت برهة .. ثم سألني:

-«ما رأيك ؟.. هل نواصل الحفر أكثر أم نفر من هنا ؟»

لم أكن أملك إجابة ...

بالفعل لم أكن أملك إجابة.

****



الشمعة والقناع

لهب الشمعة يتراقص .. ومع رقصته ترتسم تلك الظلال الغريبة العملاقة لنا على جدران غرفة المكتب .. لهب الشمعة يرقص.. ومع رقصته ألمح شمعتين ذهبيتين في عيني (سراج).. وذلك البريق المجنون الذي لم أره من قبل .. إما أنه مجنون فعلاً _ وهذا ما أتمناه _ وإما أنه شيء آخر ....

****

لهب الشمعة يتراقص ...

ورائحة الشمع الذائب المحترق تدغدغ أنفي .. كنت أحب هذه الرائحة حينما كان لي أنف نهم جائع إلى اكتشاف الجديد ..

ونحن جالسان في الظلام إلى تلك المنضدة الصغيرة أمام المكتب .. يداه مكبلتان بالصفد الحديدي ... ومن وسط السلسلة يخرج قيد آخر يثبته إلى قائمة المنضدة .. لهذا يضع مرفقيه إلى المنضدة ولا يكف عن فرك كفيه معاً.. أما أنا فأجلس أمامه ممسكاً بذلك المسدس الثقيل الذي أصر على أن أحمله .. أنا أخشى الأسلحة النارية وأؤمن منذ طفولتي بمقولة أمي «السلاح يطول».. معربة بذلك عن تصورها لماسورة البندقية تتلوى كالثعبان إلى الوراء لتطلق الرصاصة على رأس حامل البندقية نفسه، وقبل أن يلمس الزناد..

لكن (سراج) أصر على أن يكون المسدس في يدي، وأن تكون الفوهة مصوبة إلى رأسه.

ينظر لساعته ثم إلى الخارج .. إلى الستار الرقيق الذي يغطي النافذة .. ويهمس من بين أسنانه:

«حان الوقت!»

قلت لنفسي إنها ليلة سوداء .. لكني أعرف أنني لن أطلق الرصاص وأعرف أن هذا كله هراء .. بعد ربع ساعة سأنهض وأحييه وأفك الصفد بالمفتاح الذي في جيبي، ثم أعود لداري لأحلم بالكوابيس .. نشاط حافل

للأمسية كما ترى ..

قلت له وأنا أتأمل الشمعة :

-«هل لابد من هذه التأثيرات المسرحية ؟»

قال لاهثاً :

-«لابد .. قلت لك إن الشيء لا يحدث إلا في ضوء غير مباشر ..»

هكذا لم أعرف ما أقول .. ورحت أقلب المسدس في يدي .. كتلة الموت المجمدة الباردة ..

رحت أرمق الشمعة ..ومن جديد تذكرت كيف بدأ كل شيء ..

****

كان (سراج) صديقاً قديماً (رأى العالم) كما يقولون في القصص .. لقد ارتحل إلى كل مكان تقريباً ..

كان مهندساً عزباً في الأربعين لا غبار عليه، لولا ذلك الولع السوداوي المجنون لديه بالموت والمقابر .. لا أعتقد أنها جريمة ما .. هناك أناس مولعون بهذه الأمور فعلاً .. لقد وصف (مارك توين) فتاة مراهقة لا ترسم إلا شواهد القبور ولا تكتب إلا أشعار رثاء حزينة، إلى أن ماتت هي بدورها !.. وكنت ألاحظ ولع (سراج) الشديد بحضور الجنائز واهتمامه بأن يتدخل في كل شيء .. هو لا يكف عن إسداء النصح لأهل المتوفى ولابد من أن يحضر طقوس الغسل والتكفين الخ .. وكنت أرى في هذا شيئاً مرضياً يختلف نوعاً عن الرغبة في الاتعاظ بالموت .. أعتقد أنه سافر حول العالم ليحضر جنائز من مختلف الثقافات بدءاً بالدفن العادي وانتهاء بالحرق وإلقاء الرماد في نهر (الجانج)... لكن هذه الأشياء لم تجعله شخصاً كريهاً بالنسبة لي...

إلى أن رأيته هذا الصيف ...فشعرت أنه تقدم في العمر بضعة أعوام ..

كان مرتبكاً متوتراً... ثم طلب أن يزورني .. وفي هذا اللقاء العجيب

قال لي إنه لم يعد على ما يرام .. لقد تغيرت أشياء كثيرة في حياته .. هناك ليال كاملة لا يعرف ماذا دهاه فيها ولا أين أمضى ليلته .. فقط يصحو من النوم مليئاً بالكدمات منهكاً....

نصحته النصيحة الوحيدة الممكنة:

«تزوج .. لن تجهد بعد هذا في تذكر أين أمضيت ليلتك لأن زوجتك ستعرف.. لن تتساءل عن سبب تعاستك لأن زوجتك ستعرف .. الخلاصة أن كل مشاكلك المعنوية البلهاء ستتحول إلى كوارث مادية محترمة.. تذكر كيف كانوا قديماً يعالجون مرضى الفصام بحقنهم بجراثيم الملاريا!»

قال في عصبية:

«الآن صار من المستحيل أن أتزوج..»

ثم أردف وهو يدفن وجهه بين كفيه:

«بعد ما تكررت تلك الليالي الغامضة قمت بشيء بسيط .. أخفيت كاميرا الفيديو في موضع يراقب غرفة نومي ودخلت الفراش في موعدي المعتاد، وقدرت إنه لو كان هناك سر ما فلسوف أعرفه قبل أن ينتهي الشريط .. وقد جربت هذه التجربة ليلة واحدة وفي الصباح رأيت الفيلم.. أكثر الفيلم يصور باباً موارباً ولا شيء يحدث .. لكن قبل أن تنتهي الساعة الأولى رأيت هذا المشهد !.. هل عندك جهاز فيديو ؟»

كان يحمل في جيبه شريط فيديو، فقمنا بتوصيل الجهاز وجلسنا نشاهد ما التقطته الكاميرا.. كان قد ضبط الشريط على اللحظة المهمة بالذات .. وأمام عيني الحائرتين رأيت باب غرفة النوم الموارب ينفتح، ثم في الضوء الخافت رأينا (سراج) يغادر غرفة النوم.. ينظر حوله للحظة كأنه قد لمح الكاميرا ثم يخرج من الكادر ..لا يوجد شيء غريب .. لا يوجد شيء غريب باستثناء أن رأسه كان رأس ذئب !.. ذئب تتوهج عيناه في الضوء الخافت وقد انتفش الشعر المحيط برأسه كالنيران...

أعدنا اللقطة عدة مرات فكانت النتيجة أكيدة .. ولم أكن على استعداد لقبول حرف من هذا السخف أما هو فكان واثقاً مما رآه وما رأيته ..

«اسمع .. لو أردت لعب هذه الألعاب الصبيانية فليكن هذا بعيداً عني..»

قال متوسلاً :

«أنت أملي الأخير ويجب أن تصدقني .. يجب أن أذكر هنا أن تلك الليالي التي لا أعرف عنها شيئاً كانت ليالي قمرية .. !.. يقولون في أساطير الغرب إن الإنسان يتحول إلى مسخ ذئب لو ولد في ليلة مقمرة .. أو نام خارج الدار ليلة جمعة مقمرة .. دعك من أن يتعرض لعضة أو خدش ذئب ..الحقيقة أنني مررت بكل هذه الخبرات معاً ..هل يوجد أي تفسير لما تراه إلا أن أكون قد تحولت إلى مسخ ذئب ؟.. مذءوب .. تذكر ولعي غير العادي بالموت والمقابر ... هل هذه نفسية سوية ؟.. ألا يشير هذا إلى شيء على غير ما يرام في تكويني؟»

لم أكن على استعداد لمناقشة هذا الهراء، لكنه كان مصمماً على أن أصغي له ..

هل هي أسطورة حقاً ؟.. بالنسبة للقدماء كان الأمر مفروغاً منه لا يستأهل مجرد التساؤل ..سوف تجد في المخطوطات اليهودية كلاماً عن (نبوخذ نصر) ملك بابل الذي تحول إلى مذءوب أربعة أعوام كاملة ..وفي كتابات (هيرودوت) تجد كلاماً عن شعب (النيوري) الذين يتحولون لذئاب مرة كل عام .. و لو قرأت ملحمة (جلجاميش) البابلية لوجدت أن (إنكيدو) صاحبه أقرب إلى مذءوب ..

أما الشاعر (فيرجيل) فيصف رجلاً قادراً على تحويل نفسه إلى ذئب ..وقد زعم الشاعر أنه تعلم منه أسرار إعادة الموتى للحياة ..إن كتابات الطبيب الأركادي (مارسيليوس السايدي) عن داء (لايكانثروبي) ـ حالة التصور الذئبي ـ ترسم لنا صورة طبية رصينة عن مرض يتصور فيه المريض أنه ذئب حين يكتمل القمر .. يعوي ويأكل اللحم النيئ .. هذا ما

قاله .. ولكن ما رأيك في أن أطباء عرباً عظاماً ليسوا أقل من (ابن سينا) و(الزهراوي) ذكروا هذا المرض في كتبهم ؟.. الاسم العربي الذي اختاراه هو محاولة لتقريب لفظة (لايكانثروبي) إلى اللسان العربي، لذا صار اسمه (القطرب) بضم القاف .. وفيما بعد اتهم العلماء داء البورفيريا وهو من أمراض الدم الشهيرة، التي لا يستطيع أحد أبداً تذكر أسماء الإنزيمات المعقدة التي تسببها .. في أحد أنواعه يجعل المريض حساس الجلد للشمس مليئاً بالقروح .. وذا شعر طويل رمادي وحواجب كثة .. الأظفار تنمو بفظاعة .. الأسنان مدببة .. ثمة ميل غير حميد لمذاق الدم .. جنون عام .. هذا هو ما يفسر ميلاد الكثيرين من (الرجال الذئاب) في التاريخ .. ومراجع الطب تطلق على المرض أحياناً اسم (متلازمة الرجل الذئب)..

لكني بعد هذا كله لا أصدق حرفاً...

هنا كان طلبه العجيب إكراماً لصداقتنا (أخشى دائماً طلبات إكرام الصداقة هذه لأنها عسيرة كريهة على الأرجح) .. طلب أن أمضي معه ليلة مقمرة كاملة في بيته.. لن يجازف بشيء .. سيربط نفسه بالأصفاد بحيث لا يستطيع إيذائي ..أما أنا فعلي أن أمسك بالمسدس ... هذا المسدس ليس عادياً.. إن به طلقة واحدة صنعها هو بنفسه .. طلقة من فضة .. المفترض حسب هذه الكتب الرهيبة أن المذءوب لا يموت إلا برصاصة فضية .. من الطرق الأخرى أن تجرحه لينزف ثلاث قطرات من الدم .. طبعاً هي طريقة غير محببة وغير مضمونة ..

لو مرت الليلة على خير فعلي أن أفك قيده وأضحك وأخبره كم هو سخيف، ثم أعود لداري؛ أما إن حدث المحظور فهي الطلقة .. الطلقة التي أعرف أنني لن أطلقها أبداً... لأن هذا كله تخريف .. وفيلم الفيديو ؟.. إما أنه دعابة منه أو دعابة عليه .. إن أقنعة الذئاب تباع في كل مكتبة اليوم ويمكن لكل من امتلك عشرة جنيهات أن يصير مذءوباً..

لن أطلق هذه الرصاصة أبداً.. إذاً لماذا لا أريحه ؟

****



ولهب الشمعة يتراقص ...

ظله المخيف يرقص على الجدار خلفه وهو ينظر للهب في شرود كأنه منوم مغناطيسياً... سوف تنتهي هذه الشمعة خلال ربع ساعة على الأكثر لهذا أعددت واحدة أخرى .. لكني قدرت أنني لن أشعلها لأن شمعة واحدة تكفي لإعلان انه أحمق ..

نظرت لساعتي واتجهت إلى الستار وأزحته ..

الآن فقط أرى البدر مكتملاً فاخراً يطل علينا من فوق الأبنية المحيطة بنا..

نظرت له وضحكت في تشف .. وضعت المسدس على المنضدة، وبخطوات ثابتة تركته متجهاً إلى الصالة .. سمعته يصيح في دهشة:

-«إلى أين ؟»

لم أرد.. صوت احتجاجاته يخفت وأنا أتركه حيث هو عاجزاً عن اللحاق بي، وأتوغل في شقته. فتحت أكثر من باب إلى أن وجدت غرفة نومه .. أضأت النور الكهربي وانتظرت حتى زال الألم عن عيني بعد طول جلستي في الظلام، ثم رحت أفتش الحجرة بفظاظة وقسوة كأنني ضابط جشتابو يفتش حاجيات رجل من المقاومة الفرنسية.. بحثت في خزانة الثياب وتحت الفراش .. وفي النهاية وجدت كاميرا الفيديو إياها.. وتحت حشية الفراش وجدت ما كنت أبحث عنه .. قناع ذئب رخيص من النوع الذي قلت لك إنه يباع في كل مكتبة، ويمكن لكل من امتلك عشرة جنيهات أن يقتنيه.. قطعة بلهاء من الجلد لها تجويفان عند العينين وعند الأنف ..

أنت مخبول يا صاحبي .. فعلاً مخبول .. كل هذا الجهد من أجل تمثيلية سخيفة .. وما ذنبي أنا لتضعني وسط كل هذا التوتر؟

هكذا عدت إلى مكتبه لأخبره برأيي فيه ..

هنا وجدت أن الظلام قد صار دامساً.. لقد لفظت الشمعة أنفاسها الأخيرة .. اتجهت إلى النور فأضأته وهنا فوجئت بأن (سراج) لم يعد

موجوداً ... !.. لا أريد أن أكون هستيرياً لكن السلسلة التي كانت تثبته إلى قائمة المنضدة مفتوحة .. لقد فتحت بقوة لا يمكن أن أتصورها .. أين ذهب؟

هنا لمس شيء كتفي فأجفلت .. نظرت للوراء فوجدت أنه الستار يطير في هواء الغرفة .. إن النافذة مفتوحة ... والبدر ينظر لي في وقاحة متشفياً ...

ثم أين المسدس ؟

أسئلة كثيرة حملتها معي وأنا أهبط في الدرج .. وأنا أبحث عن سيارة أجرة تقلني إلى داري ...

ليلة طويلة تفعمها الكوابيس ولا تثريب عليّ ... مجنون .. لكن كيف يفر مجنون من صفد حديدي مزدوج ؟.. وكيف يفر مجنون من النافذة المفتوحة ؟

في السابعة صباحاً دق جرس الهاتف فهرعت كالثمل أرد عليه.. عرفت صوت (سراج) المبحوح المرهق يتكلم:

«أشكرك على أنك تركتني وحدي أثناء التحول.. لقد أفادني وجودك في أنه جعلني أتخذ أهم قرار في حياتي ..فكرت في الأمر ملياً ووجدت أن البقاء حياً أفضل .. لهذا أخذت المسدس معي .. الأهم من هذا أني صرت أتذكر جيداً ما كان يحدث لي في الليالي المقمرة.. أنا الآن في صورتي البشرية بعد ليلة صاخبة !»

قلت في غيظ :

«كف عن ألعاب الأطفال .. لقد وجدت القناع في غرفة نومك !»

عاد صوته المبحوح يقول :

«آه القناع !.. اللعبة التي اشتريتها لأولاد أختي ؟... قطعة المطاط الملساء ؟.. لو تذكرت الفيلم الذي رأيته يا صاح لتذكرت أن المذءوب كان منتفش الشعر وكانت عيناه تتوهجان كجمرتين .. لم أعرف أن ذلك القناع

الرخيص مقنع إلى هذا الحد!

ثم أضاف وقد كدت أقاطعه:

«أنت الآن تعرف عني أكثر من اللازم .. لن ألحق بك إكراماً لصداقتنا.. لكنك لن تراني بعد اليوم أبداً... اسم جديد ..عنوان جديد .. بلدة جديدة .. ومستقبل مفعم بالاحتمالات»

ووضع السماعة قبل أن أخرج كل الأسئلة التي احتشدت في حلقي في وقت واحد.

لو وجدت في المحلات قناع نئب له شعر منتفش حول العنق وعينان تضيئان كجمرتين، فإنني أرجو أن تخبرني .. فقط لأتمكن من النوم بسلام في الليالي المقمرة!

****

كتاب ديزان

(ك) كنت طالب دراسات عليا في ذلك الوقت، عندما سمعت للمرة الأولى عن ذلك الكتاب، وكان هذا عن طريق أستاذي الدكتور (مختار). لقد لاحظ اهتمامي البالغ بتاريخ السحر القديم ومحاولات البشر الوصول إلى أسرار الكون .. كنت أدرس بعض النصوص الإنجليزية العتيقة التي تعود لزمن كان السحر فيه دينًا .. وكانت المسيحية تكافح لتبقى وسط الشمال الأوروبي العاصف برياحه وأمواجه وقبائله الجرمانية المتوحشة .. لما رأى أنني مهتم فعلاً، دعاني إلى بيته وكان يحمل لي قنبلة ما ..

(ت) تأملت وجه الدكتور (مختار) وهو يصب لي الشاي .. كان شيخًا قصير القامة أصلع فيه كل ما ينفر الحسان ويجذب طالبي العلم، وكنت اعرف أنه لم يتزوج قط، وأنه يعيش وحده حياة كئيبة لا يشعر بأنها كذلك لأنه راهب علم حقيقي .. وكنت من الطراز التقليدي الذي لا يصدق أنه يمكن أن يرى معلمه في الشارع أو البيت، لذا ظللت منبهرًا متهيبًا لا اصدق أنني هنا في بيته ..

قال لي وهو يفتش بين رفوف المكتبة:

«أنت تعرف أنني لم أتزوج .. وبالتالي لم أنجب .. لكن العمر يدنو من نهايته وعلى المرء أن يرتب أموره ..»

أردت أن اقول له ما معناه إن عمره مديد إن شاء الله لكني وجدت أن في هذا لونًا صريحًا من الزيف والنفاق .. فعلاً هذا الرجل قد بقي حيًا حتى اللحظة بمعجزة ما .. هو نموذج حي لمقولة: الأعمار بيد الله ..

قال الأستاذ:

«هل سمعت عن قارة (ليموريا)؟»

هززت رأسي في غباء فقال:

«إنها القارة التي قيل إن أهل (أطلنطس) جاءوا منها، ولا تقل لي من فضلك إنك لم تسمع عن (أطلنطس)...»

ثم أردف:

«الليمور هو حيوان يعيش في أفريقيا وماليزيا ..كيف يتواجد في هذين المكانين المتباعدين فقط ؟ من هنا افترض العلماء أن هناك قارة كانت تربط أفريقيا بماليزيا قديمًا وقد أطلقوا عليها اسم هذا الحيوان .. (ليموريا).. غاصت هذه القارة في البحر يومًا ما.. كان الإغريق يسمونها (حقول الفردوس) والفراعنة يسمونها (حقول العشب) أو (حقول الأسلاف).. ثم غرقت فأطلقوا عليها (أرض الموتى) حيث لا يجسر بحار على الاقتراب»

(ا) ابتسمت في حيرة لأنني لا اعرف مناسبة هذا الكلام .. هل عبثت فئران الشيخوخة بالأسلاك الدقيقة داخل هذا العقل الجبار ؟... فهم سبب حيرتي فواصل الكلام:

«(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... اسم شهير في عالم الغرب .. هل سمعت عنها من قبل؟»

هززت رأسي كالعادة أن لا، فقال:

«توقعت هذا .. إنها عرافة شهيرة روسية الأصل تزوجت في شبابها ثم فرت من زوجها وارتحلت إلى بلاد الشرق، حيث عاشت في التبت وقابلت الرهبان البوذيين وعرفت منهم الكثير من الأسرار.. بعد هذا ذهبت إلى الولايات المتحدة عام 1873، حيث اشتهرت كوسيطة روحانية وقارئة أفكار ... وقد كتبت كتبًا شهيرة أهمها (الكشف عن لغز إيزيس) و(العقيدة السرية)..إن كتبها قد انقرضت تقريبًا ويعتبر العثور على أحدها نصرًا مهمًا .. هناك فصول كاملة لدى بعض المشتغلين بهذه

الأمور، ولكن يصعب أن يتبجح أحد قائلاً إن لديه كتابًا كاملاً من كتبها..»

(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... امرأة وضعت أناملها على سر الكون .. ودونت ما عرفته لكنه ضاع ..

(ب) بدت على الحيرة .. ما دخل هذا بقارة (ليموريا) ؟.. وما دخل الدكتور (مختار) بهذا؟

قال وهو يفتح بابًا سريًا في المكتبة:

«زعمت (بلافاتسكي) أنها وجدت خبر قارة (ليموريا) لدى رهبان التبت في كتاب شهير عندهم يدعى (كتاب ديزان).. وقد اعتمدت على هذا الكتاب بشدة في كتابها (العقيدة السرية).. إن الكتاب يحكي قصة الكون منذ البدء.. والقصة تصطدم مع الأديان في أكثر من نقطة، لذا كان من الأسهل أمنيًا أن تحتفظ بطنٍ من المفرقعات وطنين من المخدرات من أن تحتفظ بهذا الكتاب ..»

وفي اللحظة التالية وجدت كتابًا غليظًا قديما في يده .. وقبل أن أسأل قال:

«هو ذا كتاب (العقيدة السرية)... لقد قضيت عمري كله أبحث عنه حتى وجدته وحققته .. إنني الآن اضع يدي على سر أسرار الكون.. لكن لم يبق من عمري شيء تقريبًا .. لذا صممت على أن يرثه ابن لي .. لا ابن لي لكني احبك ولطالما اعتبرتك ابني الروحي .. لهذا أريد أن تحتفظ به..»

شعرت بالهلع .. بعد كل ما قاله لي صار الكتاب ملتهبًا كالديناميت .. ليست لدي أية نية للاحتفاظ بهذا الشيء .. لكن كيف ترفض هذا بعد ما عرفت كل ما عرفت؟

قال لي د. (مختار) وهو يلف الكتاب في كيس ورقي:

«إن الكتاب من مائة فصل .. معقد جدًا لا يصبر عليه إلا قليلون ..

معاني الأسماء .. الف باء السحر .. كتاب (إينوخ)... القبالة .. سحر الأعداد .. الأسلحة الخفية .. سر الشمس .. تاريخ المسيحية .. الجزويت .. سحر الفراعنة .. الماسونية .. عبدة النجوم .. بعلزبول .. كل شيء ..»

ثم التمعت عيناه وقال في حماس:

ـ«هذا كتاب كالبارود .. لا يجب أبدًا ان يقع في أيد غير مسئولة .. والآن يا (محفوظ) أنا أنتظر القسم ..»

ـ«أي قسم ؟»

ـ«أن يظل هذا الكتاب معك سرًا .. وأن يبقى في حرز مكين حتى تورثه !!»

واتسعت عيناه أكثر وهتف:

ـ«أقسم !!»

(د) دموع كثيرة سالت من عيني وأنا اقف مع الحانوتي الذي قام بتغسيل جثة الدكتور (مختار) الذي لم يكن له اقارب، لذا حضرت غسله باعتباري ابنه الروحي .. وسط رائحة البخور والعطر والبلل العام، تساءلت في سري: ترى هل آمن بتلك العقيدة السرية ؟.. هل كان مسلمًا حقًا أم أن الشيطان دفعه لتلك المتاهات الكابوسية ؟.. ليس هذا شأني وإنما هو شأن أرحم الراحمين .. فقط كنت أعرف أنني لن افتح هذا الكتاب أبدًا .. مهمتي محددة هي أن اوصله لجيل آخر ..

كنت اقف جوار الحانوتي في غرفة النوم وكانت هناك أوراق على الكومود .. مددت يدي لا شعوريًا أقلبها فوجدت مذكرة بخط اليد كتب فيها: «كان هذا خطأ... (محفوظ) كان الشخص الخطأ .. سامحوني .. لا تفتكوا بي»

هنا انتصب شعر رأسي .. لا توجد طريقة أخرى لفهم الكلمات المكتوبة .. لقد وصل لي الكتاب الرهيب بطريق الخطأ .. فهل يجب أن



اتخلى عنه؟.. هل وفاة د. (مختار) طبيعية؟.. من العبث والسخف أن تبحث عن سبب آخر لوفاة من كان في سنه وسوء صحته .. لكن هل هذا هو الجواب فعلاً ؟... نوبة قلبية .. لكن النوبات القلبية قد لا تأتي من تلقاء نفسها.. ماذا رآه وسمعه قبل وفاته؟..

نظرت لوجهه المتقلص في قناع الموت، وتذكرت كيف بذلوا جهدًا أي جهد كي يغمضوا عينيه الشاخصتين الخائفتين .. هل هذا ذعر الاحتضار أم..............؟

(ي) يوم زواجي حرصت على ان أخفي الكتاب الرهيب خلف خزانة الثياب .. الخزانة ثقيلة لن تتحرك إلا يوم أن نعيد طلاء البيت _ وهو ما لن يحدث _ أو نفارقه .. وهذا جعلني انسى الكثير عنه .. فقط ذات مرة قامت زوجتي بتحريك خزانة الثياب بمساعدة البواب وكانت تريد أن تفعل شيئًا ما وراءها .. شيئًا مما تصر النساء على عمله ولا يفهمه الرجال أبدًا .. كأن البيت لن يصير نظيفًا ما لم ننظف ما وراء خزانة الثياب .. ودخلت الغرفة لأجدها ممسكة بالمكنسة تحت إبطها وهي تحاول فتح الكيس الورقي .. فجريت وانتزعت الكيس منها غاضبًا .. نظرت لي في حيرة فقلت إنها اسرار يهمني ألا تعرفها .. هكذا تركتها تعتقد ان هذا الكيس يحوي .. إحم .. ربما مجلات مشينة أو ما هو ألعن .. لا باس .. أستطيع التعامل مع هذا .. المهم ألا تفتح كتاب الأخت (بلافاتسكي)..

لقد عشت حياة كاملة أخفي هذا السر عن الجميع .. أخفيت الكتاب في كل موضع من البيت تقريبًا، وظل السؤال الابدي يؤرقني: إلى من أعهد بالكتاب بعد وفاتي ؟... إلى اولادي ؟.. مستحيل .. لن احمل احدهم بسر كهذا .. وإذا اخترت تلميذًا من تلاميذي فهل هو الاختيار الأصوب ؟... أعتقد ان الدكتور (مختار) دفع حياته ثمنًا لسوء اختياره فكيف احسن الاختيار أنا ؟

(ز) زميل شاب متحمس استلفت نظري لفترة لا بأس بها، وفطنت إلى أنني أمارس معه ذات ما مارسه د. مختار معي .. أراقبه في صمت .. إنه مدرس أدب إنجليزي لكن لديه ولعًا شديدًا بالمخطوطات .. شاب في الثلاثينات مرح مولع بالحياة يصعب علي أن احمله بهذا السر الثقيل .. لكن هل لدي خيار آخر ؟.. وماذا لو تركت السر ينتهي معي ؟.. ثمة احتمال أن تلحق اللعنة بذريتي .. وثمة احتمال ان يجد الكتاب من لا يستحق ..

في هذه الفترة وجدت صورة الأخت (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي)... إنها تناسب بالفعل انطباعي عن الوسيطات .. قصيرة قبيحة لها نظرة خمول شريرة .. صورة قديمة تعود لعهد كانت الصور تسمى فيه (فوتوغرافيا).. ذات الطابع الكابوسي الذي تراه في صور (كراولي) و(هوديني) وسواهم .. هؤلاء قوم اقتربوا من الشيطان .. اقتربوا اكثر من اللازم ..

(ا) العمر يقترب من نهايته .. اعرف هذا وأفهمه .. كنت اسخر ممن يعتقدون أن الحجاب منكشف عنهم وأنهم يتمتعون بشفافية خاصة .. الحقيقة انني أمر بهذه الشفافية الآن وأدرك أن الفترة التي تفصلني عن القبر لا تتجاوز بضعة أشهر .. ربما عامًا على الأكثر ..

هذا لا يضايقني .. لكني أحمل هم هذا الكتاب الرهيب الذي صاحبني أربعين عامًا .. من سيجده ؟.. إلى من اعطيه ؟... مسئولية ثقيلة ألقاها د. (مختار) على عاتقي وعلي أن القيها على عاتق أحدهم، لذا قمت بدعوة زميلي المتحمس الشاب إلى بيتي .. اسمه (محمود) وقد سرني هذا التوالي المستمر لحرف الميم .. لابد أن لهذا معنى ما .. مختار .. محفوظ .. محمود ..

قلت له كلامًا فارغًا كثيرًا عن المسئولية وعن حاجة بعض الأسرار إلى

أن تظل مبهمة، ثم قلت إن لدي امانة يجب ان يحملها معه ويحافظ عليها .. لكن ليأخذ الحذر لأنها تختلف عن جريدة الصباح .. إنه كتاب يستحق أن يموت الملايين بسببه ..

كان ينظر لي في رعب عندما نهضت لأحضر الكتاب من آخر مخبأ له .. أي من تحت منضدة الصالون الرخامية حيث قمت بتثبيته أسفلها بشريط لاصق ..

مددت يدي تحت المنضدة فلم أجده !... لقد غادر مكانه أو اخذه أحدهم !!.. كتاب (العقيدة السرية) الذي جاء من كتاب (ديزان) سر أسرار رهبان التبت لم يعد لدي !!.. ورحت افتش عنه كالملسوع في كل ركن من البيت .. وفي النهاية سألني ابني المراهق عما ابحث عنه فقلت إنه كتاب .. قال ضاحكًا:

«ذلك الكتاب السخيف !.. العقيدة السرية ؟»

«هل .. هل قرأته ؟»

وضع يده على رأسه وقال:

«ليس لدي بال رائق لهذا الكلام الفارغ .. إن إنجليزيته ألعن إنجليزية يمكن تخيلها .. ثم إن عندي طبعة كاملة أنيقة منه .. لا حاجة بي لقراءة هذه النسخة البالية ؟»

(ن) نوبة صرع كادت تصيبني وهو يمد يده في درج مكتبه ويخرج لي كتابًا سميكًا براقًا على غلافه عنوان (العقيدة السرية) بقلم (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي).. وعلى الغلاف الأخير صورة تلك العجوز الشمطاء .. نظرت له في غباء فقال:

«اشتراه صديق لي عبر شبكة الإنترنت .. إنه كلام فارغ لكنه مسل .. لقد قرأه وحسب انه سيروق لي .. والآن لماذا تخفيه في غرفة الصالون يا بابا؟»

كان عقلي يدور .. إذن الكتاب معروف وموجود ومتداول !.. كل هذا التكتم والسر الذي اضناني كل هذه الأعوام يباع الآن على شبكة الإنترنت .. ذات شعور عابد الأصنام الذي يفاجأ بأن الصنم الذي كان يعبده يُباع على قارعة الطريق: اشتر ثلاثة وخذ الرابع مجانًا ... احتفظ بالكوبون لكي تدخل السحب وتكسب (بلاي ستيشن) ..!

(هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي) لم تكن سوى نصاب أجاد عمله، والنتيجة كتاب يتبادله المراهقون على سبيل الدعابة، بينما أنا قضيت حياتي مذعورًا أحسب أنني أعرف سر الأسرار ..

وانفجرت أضحك .. أمام عيني ابني وعيني د. (محمود) اضحك .. وما زلت اضحك حتى اليوم.

****

الموتى لا ينهضون

نعم .. الموتى لا ينهضون.. تحدث عن أي شيء من فضلك، لكن لا تقص علي تلك القصص السخيفة عن الموتى الذين يفتحون عيونهم في ظلام القبر.. يتحسسون الغبار من الداخل، ثم ينشبون مخالبهم في التربة الهشة إلى أن يخرجوا للسطح .. من ثم يمشون مترنحين في ضوء القمر.

إن الفكرة غير مقبولة دينيًا .. دعك من أنها سخيفة .. ألا ترى هذا معي؟

ولكن لماذا أقول هذا الكلام الآن؟...

لأنني تذكرت تلك القصة الرهيبة التي مررت بها يومًا عندما كنت أقضي الصيف في قريتي بعد انتهاء امتحان الصف الثاني الإعدادي.. أمسية طالت مع أصدقائي امتلأت بالمزاح والدعابات وبعض لفائف التبغ.. كنا مراهقين فلم نر في الحياة إلا ضحكة عالية مدوية، وإن قطع علي نشوتي أنني تأخرت.. إن عصا أبي ليست أداة للزينة لو كنت تفهم قصدي، وكان رحمه الله يضرب أولاً ثم يسمع الأعذار لأنه يؤمن أن المراهقين أوغاد يجب سلخهم أحياء..

هكذا فارقت الرفاق على موعد للقاء الغد.. ومضيت أجد السير عبر طرقات القرية المظلمة التي أحفظها كظهر يدي.. لو رأيتني لما عرفتني بذلك الجلباب الأبيض والخفين وتلك المشية الرشيقة الأقرب إلى الهرولة..

هناك طريقة مختصرة للعودة هي أن اجتاز المقابر... نعم.. ما الغرابة في هذا؟... القمر ليس بدرًا لكنه يجعل الرؤية ممكنة .. ثمة قصة قصيرة لإبراهيم المازني يحكي فيها كيف اضطر في مراهقته للسير وسط المقابر بعد سهرة مع أصدقائه، فلم ير في ذلك بأسًا، بل أنه لعب دور الشبح مع أحد عابري السبيل .. وكان رأيه هو ذات رأيي: ليس من شيء كالمقابر أبعد عن اهتمام مراهق سكران تفعمه الحياة ..

لم أكن سكران مثله لكن الحياة كانت تفعمني بالفعل، وكانت عصا أبي أكثر واقعية وتخويفًا من هذه الأجساد المتحللة الراقدة تحت الصخور..

هكذا رحت أثب بين الشواهد وبدأت اغني لأخفف من توتري، ثم قررت أن اخرس لأن صوت الغناء كان غريبًا مقلقًا .. ثمة كلب برز لي ونبح لكني ألقمته حجرًا .. كل كلاب القرية كانت تكرهني وتخافني.. الحق إنني كنت شيطانًا ..

توقفت جوار شجرة غليظة ألتقط أنفاسي ..وفجأة رأيت ما جعل الشعر ينتصب في مؤخرة عنقي ..

لقد كان حوش (أبو عيسى) ينفتح .. الباب الحديدي يفتح ببطء - وكل باب حديدي له صرير - ثم أرى ذلك الشيء الملفوف في القماش يخرج منه.. يمشي متعثرًا وهو يمد يديه أمامه على طريقة الخواجة (كارلوف) في فيلم المومياء... من بعدها صار كل الموتى العائدين يمشون بالطريقة ذاتها وكأنهم رأوا الفيلم ..

رأيت هذا الشيء يبتعد .. وفجأة شعرت بشيء يتحرك عند قدمي .. نظرت إلى مصدر الصوت فرأيت يدين تشقان الغبار في قبر منخفض المستوى عن سطح الأرض.. ورأيت شيئًا يخرج في الظلام متحاملاً ثم ينهض بصعوبة على قدميه ..

نظرت ورائي فرأيت مدفن (الفطاطري) ينفتح.. ورأيت شيئًا مشابهًا يخرج .. لو لم تخدعني عيناي فلابد أن هناك نصف دستة من هذه الأشياء تجول من حولي الآن ..

كنت قد وصلت لحالة من الهلع تكفي لقتلي لو كان قلبي أوهن من هذا، لكن الآلة الفتية العفية آنذاك ظلت تضخ الدم في صدري بلا توقف .. وسيطرت علي فكرة واحدة: يجب ان افر من هنا .. كانت مدافن قريتنا ترتفع قليلاً عن سطح الأرض مطلة على حقل محروث فوثبت وثبة واحدة ألقت بي وسط الأوحال .. وبوثبة أخرى رحت أركض

وأنزلق .. أركض وأقف .. أركض وألهث .. حتى ابتعدت ميلاً عن هذا المكان المفزع ..

وفي الدار تلقيت التوبيخ الضروري لكن العصا لم تؤد عملها، وكان شحوبي مقلقًا لهم لكني لم أتكلم.. لسبب ما شعرت بأن هذه المسوخ أخذت علي عهد الصمت، فلو تكلمت لجاءت لي..

وقضيت الليل كله أتوقع أن أفتح عيني لأجدها تحيط بي في غرفتي الضيقة ذات السقف المدعم بألواح الخشب.. أنت تكلمت .. ستدفع الثمن .. لم أتكلم .. والله العظيم لم أتكلم ..

بدا لي كل هذا وهمًا في الصباح، ورحت أمارس حياتي العادية. على أنني بعد أسبوع سمعت أقاويل عن (بسم الله الرحمن الرحيم).. وهذا هو معادل (الذي لا اسم له) في قصص لافكرافت .. أي انهم يتحدثون عن عفاريت.. هناك أشياء ما تمشي في القرية .. البعض رآهم عند الجسر.. البعض رآهم عند المطحن... يبدو أنهم أقرب إلى أشخاص يمشون وقد التفوا بالأكفان .. هناك من رآهم من بعيد في ضوء القمر يلتفون حول الكتاب.. لا احد يجسر على الاقتراب منهم مهما بلغ من شجاعة .. حتى الخفير ببندقيته الثقيلة وشاربيه الصالحين مرتعًا للصقور لم يستطع إلا أن يفر ليتوارى بين ذراعي زوجته البدينة .. الكلام يكثر ويكثر .. النسوة يخرجن من ديارهن عند ميلاد الليل ويضعن رغيفًا من الخبز وبعض الملح على عتبة الدار...

هناك نوع من التوتر العام مع سؤال لا يجسر أحد على التفوه به: ماذا لو كانت هذه الأشياء هي الموتى أنفسهم؟... مستحيل .. لكن هات تفسيرًا أفضل.. ماذا لو...؟

«النتيجة جاءت من البندر..»

وهكذا انتهت إجازتي عند هذا الحد لأني رسبت في مادتين .. لعله

انتقام الأشباح مني لأني عرفت أكثر من اللازم .. وعدت للمدينة مشيعًا باللعنات، ونسيت كل شيء عن هذه القصة وسط متاعبي الخاصة .. متاعب شهر سبتمبر الذي عرفت لماذا يطلقون عليه (أيلول الأسود)..

كبرت .. وتعلمت أن أتعامل مع الأمور بعقلية نقدية .. وفي ضوء هذه العقلية أدركت أنني كنت أخرف .. القرية كلها تخرف .. ربما خرفت القرية فتسلل الخرف إلى ذكرياتي .. أي أنني كونت ذكريات لم تكن .. برغم كل شيء يصعب أن تتيقن من حدث وقع منذ أربعين عامًا..

قرأت عن الزومبي في جزر الهند الغربية، فبدا لي الأمر مألوفًا .. لفظة (زومبي) في حد ذاتها مشتقة من (نزامبي) وهي كائن يشبه الأفعى من آلهة غرب افريقية الوثنية، على أن لفظة زومبي دخلت عدة لغات غربية للدلالة على الشخص فاقد الإرادة والشخصية الذي يأتمر بأمر شخص آخر. حسب المعتقد التاهيتي يكون الزومبي أناسًا فقدوا وعيهم وذاكرتهم نتيجة لأن ساحرًا سرق هذه الأشياء.. أحيانًا يحول الساحر فتاة أرادها وامتنعت عنه إلى زومبي لتكون تحت أمره للأبد. يقال أيضًا أنه يجعلها تبتلع مسحوقًا به سم عصبي مستخرج من نوع من السمك. وهذا يخدر الضحية لتصير في حالة أقرب إلى الموت، ويتم دفنها في المقابر.. من ثم يسرق الساحر الجسد ويعيد تحريكه ... يقال كذلك إن الساحر يسرق أرواح من ماتوا لأسباب طبيعية .. ذلك بأن يخطف الروح فور مغادرتها الجسد فيظل الجسد خاليًا .. ما يفعله الساحر الشرير هو إنه يركب حصانه بالمقلوب ويتجه إلى بيت الضحية المحتضرة فيمص روحها عبر ثقب الباب، ويضعها في زجاجة ويسدها، ثم يذهب للقبر بعد الدفن ويجعل الجثة تشم الزجاجة فتفيق ..هكذا صارت ملكًا له تأتمر بأمره للأبد وتمشي وراءه.. هنا لابد أن يمر أمام بيتها ليتأكد من أنها لم تعد تذكره ... أهل هايتي يسمعون

الزومبي عندما يمشون ليلاً ويضعون امام بيوتهم أرغفة الخبز والملح على سبيل التقية كي لا يتعرضوا للأذى ..

(وليام سبروك) في كتابه (جزيرة السحر) عام 1936 وصف عيون الزومبي الجامدة ووجوههم الحجرية المفزعة .. حكى كذلك عن خطأ جعل الزومبيين يأكلون بسكويتًا مملحًا فأفاقوا من عبوديتهم وعادوا للقبر ليتحولوا إلى عظام نخرة ...إن هذه هي الحرية الحقيقية بالنسبة لميت .. تحدث عنهم كذلك (فرانسيس هكسلي) عام 1959 .. قال إنهم كانوا يفيقون بعد شرب الماء والملح ..

كانت هناك دراسات علمية رصينة على ثلاثة من هؤلاء الزومبي .. وجدوا أن أحدهم يعاني السكيزوفرنيا .. نوع خاص منها يجعل المرء يتصرف كآلة .. أحدهم كان مصابًا بخلل في دورة المخ .. أما الثالث فقد أودى الكحول الذي تعاطته أمه أثناء الحمل بعقله .. عندما يجول شخص بهذه الحالة يسهل عليك أن تتصور أنه زومبي .. بالنسبة لعلماء النفس والمجتمع يعتبر الزومبي موجودًا فعلاً .. لكن هؤلاء العلماء يتحدثون عن الخواء الداخلي للشخص .. هذا شخص يتلقى المؤثرات الحسية جيدًا لكنه غير قادر على استيعابها .. فالسلوك قد يوجد بلا وعي والوعي قد يوجد بلا سلوك..

بدت لي القصة مألوفة .. لماذا كانت نساء قريتي يضعن الخبز والملح خارج ديارهن؟.. أتراهن تلقين الرسالة بالسليقة ؟ ..

ثم ماذا؟.. هل أصدق هذا الهراء عن الساحر الذي يركب حصانه بالمقلوب؟.. ولو صدقته فهل أصدق أن يحدث هذا في الريف المصري؟... مستحيل ..

عدت لقريتي بعد أعوام وقد صرت كهلاً أشيب الشعر والروح .. أمضيت عدة أيام هناك استرجع ذكريات الصبا وابحث عن رفاقي الذين ظلوا هناك .. وخطر لي على سبيل الدعابة أن أسأل كبار السن

عن تلك القصة الرهيبة التي كانت حديث المجالس في ذلك الوقت، لكني - لشدة العجب - لم أجد من يتذكرها .

هكذا عدلت عن السؤال حتى لا يظنوا بعقلي الظنون .. وهذا من حقهم لأني بدأت أشك بدوري في قدراتي العقلية .. يبدو أنني كنت مخبولاً فلا أندهش لكوني رسبت في مادتين في ذلك العام ..

اخترت ساعة الغروب لأزور المقابر بعيداً عن عيون الفضوليين، فرأيت بعيني ان حوش (أبو عيسى) ومدفن (القطاطري) لهما بابان حديديان أغلقا بإحكام بالجنزير والقفل .. لو صدقنا وجود زومبي فكيف نصدق أنه يستطيع فتح القفل من دون مفتاح ؟

وقفت أتلو الفاتحة لموتانا .. وتهيأت للانصراف لولا أن رأيت ما أنعش ذاكرتي ..

هناك تلك الغرفة الصغيرة جوار باب المقابر .. دنوت منها فوجدت ذلك العجوز الطيب الذي حسبته مات من زمن .. عم (بسيوني) الحانوتي الذي يعيش في المقابر والذي كان يطاردنا بغصن شجرة كلما حاولنا ان نلعب الكرة هنا ..

دنوت منه .. وركعت على ركبتي أمامه .. كان يعد الشاي وقد هرم جداً .. حاجبان كثان أشيبان يغطيان عينيه بالكامل ويوشكان على لقاء شاربه الكث .. (متوشالح) .. هذا هو الاسم الذي تذكرته في هذه اللحظة .. يملأ كفه بالشاي ويسكبه في البراد الأزرق القذر، ثم يضع السكر بصعوبة في كوب صغير .. استغرق بضع دقائق حتى يدرك وجودي لكنه لم يرني على الأرجح ..

«السلام عليكم يا حاج»

«وعليكم السلام .. من أنت ؟»

هذا الرجل يصعب ان يتذكرك ما لم تذكر له موتاك .. بالنسبة له كل

الناس موتى مع وقف التنفيذ .. بدأت أثرثر معه ثم سألته عن تلك القصة القديمة التي تثير رعبي منذ أربعين عامًا ..

لم يذكر شيئًا من ذلك .. الموتى يغادرون القبور ؟.. مستحيل يا دكتور .. لو كان المتكلم مجنونًا فليكن المستمع عاقلاً ..

وناولني كوب الشاي فرددته في رفق لأسباب واضحة، ثم أخرجت بعض المال ودسسته في يده ..

الآن أنا اعرف يقينًا انني كنت مخرفًا على أكبر نطاق .. معلومة جديدة عن نفسي أضيفها للأشياء التي ما زلت أكتشفها بعد هذه الأعوام ..

بعد يومين .. كنت على وشك الرحيل عندما توفي أحدهم .. يبدو أنه زوج ابنة ابن عم خال والدتي أو شيء من هذا القبيل .. المهم إنهم أمروني بالذهاب وإلا فالويل لي .. وهكذا خرجت في تلك الجنازة البطيئة المزدحمة وسط الحقول الترابية في طقس شديد الحرارة ..

وهناك عند المقابر وقفت أجفف عرقي المعجون بالغبار، وأرقب ذلك الشاب مفتول العضلات يضع الجثة في القبر، ثم يهيل عليها التراب، ويبلل الأسمنت ويسد الفتحة التي صنعها ..

سألت أحد الواقفين:

ـ«هو ابن الحاج بسيوني على ما أظن ؟»

ـ«بسيوني من؟»

ـ«الحانوتي .. إن صحته لا تسمح له بأي شيء ..»

نظر لواحد جواره وتبادلا بضع كلمات ثم قال لي وهو يسعل من فعل الغبار:

ـ«كان هناك حانوتي اسمه بسيوني .. لكنه مات منذ عشرين عامًا..



إنه مدفون هنا ..هذا الفتى يدعى (جابر)..»

ابتلعت ريقي وآثرت الصمت ...

الموتى لا ينهضون .. تحدث عن أي شيء من فضلك، لكن لا تقص علي تلك القصص السخيفة عن الموتى الذين يفتحون عيونهم في ظلام القبر .. إن الفكرة سخيفة .. ألا ترى هذا معي ؟

إن هذه المقبرة شريرة .. إنها تخدعك وتملأ عالمك بالرؤى .. لقد خدعت القرية كلها منذ أربعين عامًا وهاهي ذي تخدعني أمس .. ربما كانت تملأ عالمك بالهلاوس .. ربما تملؤه بالأشباح ... بالشياطين ..

لكن الموتى لا ينهضون يا صديقي .. أعرف هذا يقينًا كما تعرفه أنت ..الموتى لا ينهضون ..

****



جـاثـوم

سألني محدثي في البار الصغير:

ـ«هل تؤمن بالجاثوم؟»

قلت إنني لا أؤمن به .. لكني لم أعط نفسي الفرصة كي أقرر .. لربما لو فكرت في الأمر مليًا لبدا لي منطقيًا ..

****

في البداية أجد نفسي مضطرًا لأن أشرح لك كيف حدث هذا كله .. لا علاقة لي بأي بار إلا في الأفلام العربية، لكن هذه القصة حدثت عندما كنت أدرس في عاصمة الضباب، وخطر لي ذات ليلة أن أرتاد منطقة (إيست إند) .. تلك المنطقة البائسة التي تقع شمال نهر (التيمز) حيث تسكن الطبقة العاملة المطحونة .. ذات الطبقة البائسة التي وصفها (ديكنز) في قصصه .. نفس المباني الفكتورية التي تهاوى أكثرها في غارات النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية ..

هنا الناس الذين ينطقون Today هكذا: (توضاي) وينطقون Sir (صاير).. ولا ينطقون حرف الهاء أبدًا .. ذات اللهجة المضحكة التي سخر منها (شو) في مسرحية (سيدتي الجميلة)..

أقول إنني رحت أجوب هذه الشوارع، ثم قررت العودة .. هنا فطنت لحقيقة مريعة هي أنني ضللت الطريق .. ضللت الطريق في المساء تحت الأمطار حيث تكفلت العواصف والسيول بطرد كل كائن حي يمكن أن تهتدي به .. لا توجد سيارات أجرة .. وكل الشوارع تشابه بشكل مزعج .

أمضيت بعض الوقت أتلقى السيول وأحاول إقناع نفسي بأن الأمور ليست بهذا السوء، حتى بدأ الذعر والخوف والجوع يدبون في روحي، وقدرت أنهم سيجدونني جثة متجمدة في الصباح على الأرجح ..

هنا لمحت تلك الحانة التي تحمل شعارًا متفائلاً (حانة السادة) فأسرعت نحوها .. دفعت الباب الخفاشي لأجد نفسي وسط قاعة دافئة تناثر فيها أربعة أو خمسة أشخاص على المناضد .. يبدو أنهم دخلوا حالة السكر التي تجعل كلاً منهم لا يعي أنه هنا .. لتكن حانة أو بارًا .. المهم انها مكان ذو أربعة جدران وفيه بشر ..

مشيت إلى حيث البارمان البريطاني الملول، وطلبت قهوة مركزة .. هز رأسه ثم أشار لي إلى منضدة لأجلس عليها ..

جلست وأنا أرتجف كديك كمبتل .. نزعت معطفي ورحت أحاول تجفيف عويناتي .. أخيرًا جاءت القهوة فرحت أرشفها في نهم بيد ترتجف، وسألت الساقي عن طريقة الخروج من هذه المتاهة فراح يصف لي الاتجاه بتلك اللهجة التي لم أفهم منها حرفًا ..

هززت رأسي موافقًا وجلست أنتظر .. فلا أعرف متى جاء ذلك الرجل وجلس إلى مائدتي حاملاً كأسه وزجاجته .. لست مستجدًا هنا كي لا اعرف طباع السكارى .. إنهم يفرغون كل ما بداخلهم على العالم الخارجي .. يفرغون ما في بطونهم من طعام وما في قلوبهم من أسرار، وقد قدرت أن هذا الرجل جاء ليفرغ روحه على ثيابي وقد أقنعته الخمر أنني أخوه الروحي ..

لم يكذب ظني .. إذ سألني أولاً عما إذا كنت باكستانيًا فقلت إنني مصري ..

-«بلد جميل .. لابد أنك تزور (تاج محل) كل يوم ..»

هززت رأسي أن نعم .. (تاج محل) ليس في مصر ولا باكستان ..لكن لو صححت المعلومة فلن تبقى في ذهنه ثانية أخرى .. كان رث الثياب يعاني الفاقة بشكل واضح .. وكان في الأربعين من عمره نصف أصلع نصف ملتح نصف بدين .. قال لي:

-«هل تعتقد أن زوجتي تخونني ؟»

فقلت إنني لا اعتقد هذا نظرًا لأخلاق السيدة المتينة .. قال:

-«أنا كذلك لا أعتقد هذا .. أنا أدعى (جون برادفورد) وأقيم في الشارع الخلفي لهذا البار قرب المقبرة .. أنا أعمل في ورديات ليلية .. لي طفلان وزوجة لطيفة .. (ليز) زوجة طيبة لطيفة .. لكنها تخرف .. دعني أؤكد لك أنها تخرف ..»

ثم بدأ يحكي لي القصة التي لا اريد أن أسمعها .. منذ حوالي الشهر

يعود للبيت صباحًا فتسأله زوجته عن سبب قضائه الليل في الدار بدلاً من العمل .. ليلة وليلتان ثم بدأ يقلق .. لقد أقسم لها أنه لم يغادر العمل الليلي لكنها كانت مصرة على أنه جاء في الليل ونام في فراشه بشكل معتاد، على أنها حينما تصحو نهارًا لا تجده جوارها ..

«الملاحظ أنها كانت تصحو على كابوس في كل مرة أبيت فيها جوارها»

أصابه القلق .. لربما كان هناك لص اعتاد التسلل للدار عندما لا يوجد رجلها فيها.. وقرر صاحبي أن يعدل موعد عمله الليلي .. هكذا بات ليلة كاملة في البيت .. في الثالثة صباحًا شعر بحاجة لدخول الحمام فغادر الفراش .. لا يعرف كيف ولا متى غلبه النعاس في الحمام فنام جالسًا على المرحاض .. على انه عندما صحا وعاد للفراش وجده دافئًا برغم أنه تركه منذ ساعة .. سألته زوجته بصوت مرهق عن سبب استبدال منامته .. لقد كان نائمًا هنا بجوارها من دقيقة واحدة لكن بمنامة أخرى غير التي دخل بها الفراش .. وأضافت أنها صحت على كابوس مريع ...

جن جنونه وفتش كل مكان في البيت فلم يجد شيئًا .. الزوجة لم تكن قلقة لأنها تعرف زوجها ولن تخطئ التعرف عليه .. لقد كان هو الذي نام جوارها .. لا شك في هذا ..

أصابه الهلع .. ذهب لطبيب شركته يسأله عما إذا كان من الممكن أن يجول ليلاً .. هل يذهب إلى عمله الليلي ثم يجول في شوارع المدينة حتى يعود لفراشه وينام فيه ؟.. هل نام في تلك الليلة في الحمام .. ثم غادره دون أن يدرك ذلك، وأغفى في فراشه قليلاً ثم نهض وعاد للحمام ثانية؟

«قال لي الطبيب الذي لم يفهم حرفًا من نظرياتي إن مرض الجوال الليلي ليس بهذا التعقيد .. قال لي إنني على الأرجح واهم أو زوجتي واهمة .. لربما كان عليها أن تخضع لفحص نفسي ..»

لكن القصة تكررت .. في كل ليلة يدخل صاحبنا الحمام ليغلبه النعاس بالداخل .. ذات مرة دخل غرفة الطفلين ليطمئن على نومهما فغلبه النعاس هناك ونام .. وعندما عاد للفراش أخبرته زوجته أنه كان معها طيلة الوقت..

أصابه الجنون .. كان متأكدًا من أنها تعابثه بشكل ما ..

«في هذا الوقت بدأت الصحف تكتب عن المخبول الذي يسرق المقبرة الموجودة خلف دارنا .. قيل إنه غول لأنه يسرق بعض قطع اللحم من الجثث .. لحم الوجه واليدين ثم يترك الجثة في حالها .. هذا غريب .. ما أعرفه أن هناك طريقتين للتعامل مع الجثث: سرقتها كاملة أو تركها كاملة .. لكن الصحف وجدت أن الخبر مثير يرفع التوزيع، وخاصة نظرية الغول هذه .. إن الكلام عن أكلة لحم البشر ممتع دائمًا ويجذب القراء»

وجرع جرعة كبيرة من الزجاجة مباشرة وتجشأ ...

لم يربط الرجل بين قصته وتلك القصة الرهيبة .. لكنه قابل قس الحي وحكى له كل شيء .. الأب (جونز) كان رجلاً مثقفًا واسع الخيال لذا بدأ يفكر في الأمر بشكل مختلف .. سأله عما إذا كان قد سمع عن الجاثوم Incubus... يقولون إن الجاثوم تعني لغويًا الكابوس أو الشخص الثقيل كالكابوس... كلمة incubus اشتقاق لاتيني من معنى (الثقل) .. ولها ارتباط شديد بإحساس الثقل على الصدر الملازم للكوابيس .. يقول التراث الكنسي الغربي إن الجاثوم كان ملاكًا طرد من الفردوس بسبب شهوانيته. وبما أن الجاثوم كائن غير مادي فإن الأسطورة تفترض أنه يحيي جثة آدمية أو يغطي نفسه بلحم بشري يسرقه من مقبرة قريبة ويزور النساء النائمات ليمتحهن الكوابيس .. أي أنه يتدثر باللحم البشري كما تتدثر أنت بعباءة في ليلة برد.. أحيانًا يتخذ شكل رجل معروف للمرأة .. ربما زوجها .. كانوا ينصحون المرأة بأن العلامة التي تفرق الجاثوم عن الشخص الحقيقي الذي تعرفه هي غرق كل سكان البيت في نعاس عميق لحظة ظهور الجاثوم.

أضاف الرجل وهو يجرع المزيد:

«هكذا تجد أن القصة صارت أكثر تعقيدًا .. لكنها تفسر نفسها .. هذا الجاثوم يتسلل إلى المقبرة في كل ليلة فيسرق من اللحم البشري ما يكفي ليغطي نفسه، فيصير نسخة مني ثم يتسلل إلى داري .. لهذا أغفو كلما جاء ولهذا لم يستطع شيء أن يوقظ أطفالي .. إنها العلامة التي تعرف بها المرأة أن الذي أمامها جاثوم .. ولهذا تصحو (ليز) غارقة في العرق بسبب

كابوس زارها، لكن القصة غريبة جدًا لهذا لا تشك في شيء .. تكتفي بالشك في قواي العقلية لا أكثر..»

أما ما أضافه القس فهو أن طقوس طرد الأرواح لا تعمل مع الجاثوم كما ينبغي .. باختصار لا توجد طريقة للخلاص منه ..

ثم نظر لي (برادفورد) بعينيه الحمراوين وقال:

«ما رأيك ؟»

فكرت قليلاً في هذه القصة الرهيبة، وقررت أنها تحتاج لليقين على جبهتين: الرجل وزوجته .. ربما هو يخرف بفعل الخمر وربما زوجته تكذب عليه وربما الاحتمالان قائمان... لكن في جميع الحالات التفسير قريب وسهل..

قلت له:

«أولاً يسهل أن تعرف من أين جاءت قصة الجاثوم هذه .. بعد وجبة ثقيلة يتقلب النائم على ظهره، فيرتفع الحجاب الحاجز وهكذا يجد عسرًا في التنفس .. كأن هناك من يجثم على صدره، وفي الوقت ذاته يقل الدم الذاهب للمخ فتزوره الكوابيس..»

ثم أفرغت ما بقي من قهوتي في جوفي وقلت:

«أيضًا هناك تفسير الكبت .. إن الكبت يتخذ صورًا غريبة .. مثلاً في وطني..»

«تعني باكستان؟»

«أعني أي بلد يروق لك .. في وطني تحلم فتيات كثيرات بأن عفريتًا من الجن متزوج منهن .. ونفس الشيء يحدث مع الرجال الذين يزعمون أنهم متزوجون من ابنة ملك الجان .. إن تفسير هذا بالكبت سهل وقريب للأذهان..»

سألني وهو يضع الزجاجة على المنضدة:

«ليكن الجاثوم أو الكبت .. بم تنصحني ؟»

«الطبيب النفسي .. أنت وزوجتك .. وأرجو أن تكون متمتعًا بالتأمين الصحي..»

هرش رأسه قليلاً كأنما لم يعجبه هذا التفسير، ثم نهض بلا كلمة وداع متجهًا لباب الحانة .. وتوارى وسط الظلام المطير بالخارج ..

ليس هذا أغرب ما رأيت من هؤلاء السكارى .. لكن قصته لا بأس بها ويمكن أن اكتبها يومًا ما .. إن فيها شيئًا وحشيًا ساحرًا .. له رائحة محاكم التفتيش ومطرقة الساحرات وقداس الشيطان ..

لكن أين الساقي ؟..

نظرت حولي فلم أر إلا الرجال الجالسين على مناضدهم وقد ناموا جميعًا .. إنها الواحدة صباحًا فلا ألومهم كثيرًا .. أنا نفسي أحلم بفراشي كأنه أرض الميعاد.. نهضت قاصدًا البار لأنادي الساقي كي يأخذ حسابه .. دهشت عندما دنوت لأراه راقدًا على الأرض وقد توسد ذراعه .. حسبته قد مات أو فقد الوعي .. ثم ناديته بصوت أعلى فنهض مذعورًا ..

«كم الساعة الآن ؟»

قلت له إنها الواحدة صباحًا فخرج إلى النيام يهزهم هزًا غير رفيق، وهو يتساءل عما دهاهم كي يناموا جميعًا في الوقت ذاته .. من الواضح أنني كنت الشخص الوحيد الذي احتفظ بوعيه في الحانة كلها .. لابد أن يرحلوا كي يغلق المكان .. لا يعرف سر هذا الإرهاق الذي يشعر به، فلربما أفادته العودة لداره حالاً ..

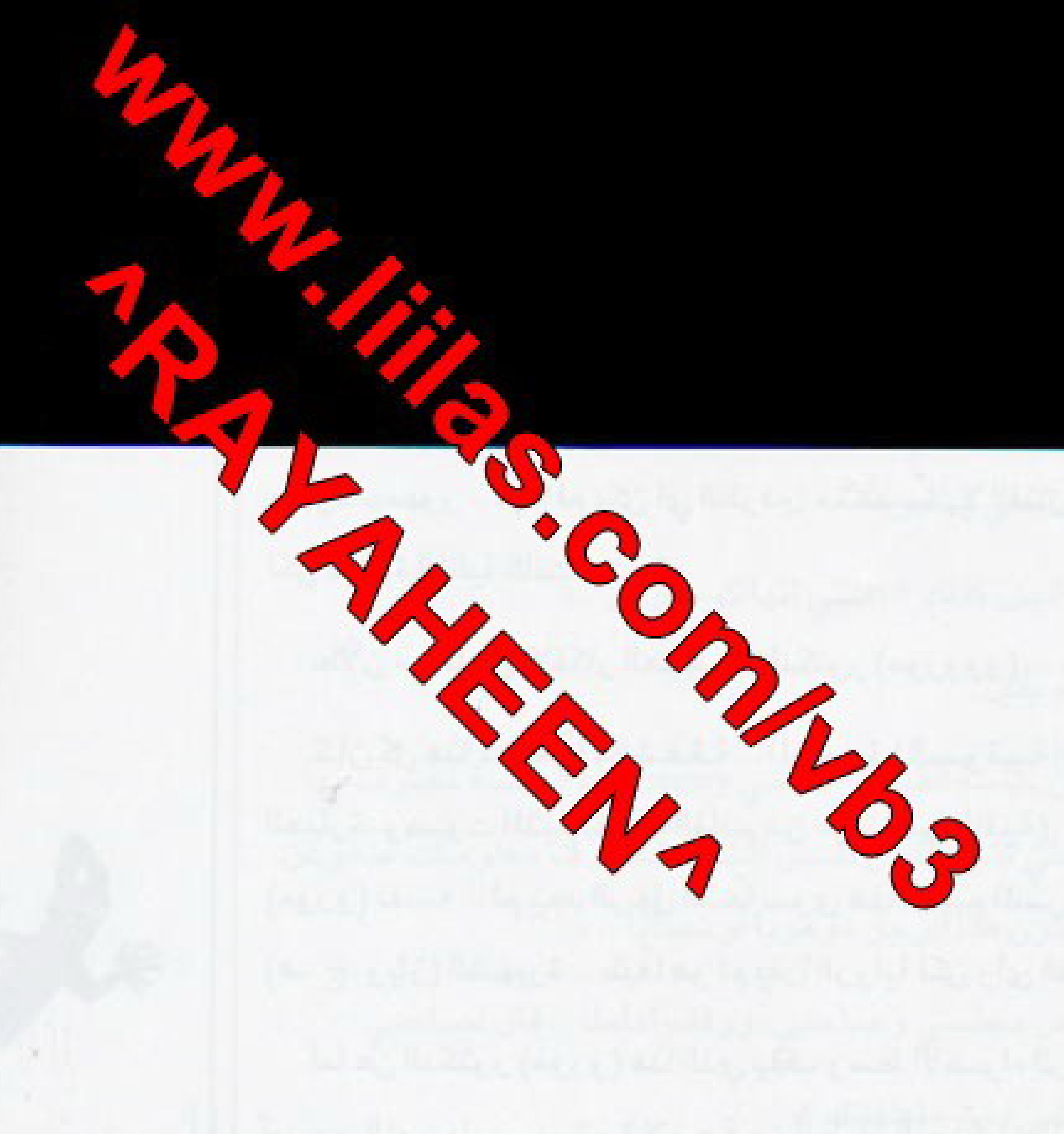
أخرجت ورقة وقلمًا وانتظرته حتى يفرغ من إيقاظهم كي يرسم لي طريقًا كروكيًا للخروج من (إيست إند)..

سمعته يناديهم واحدًا واحدًا إلى أن سمعته يوقظ احدهم صائحًا:

«هلم يا (برادفورد).. لقد تأخر الوقت .. إن (ليز) ستوبخك بشدة..»

نظرت بسرعة إلى (برادفورد) هذا فوجدت رجلاً يفتح عينيه من سبات عميق .. لقد كان يجلس على هذه المنضدة في ركن القاعة منذ جئت أنا لكني لم ألحظ وجهه إلا الآن .. كان رث الثياب يعاني الفاقة بشكل واضح .. في الأربعين من عمره نصف أصلع نصف ملتح نصف بدين.





استبصار

إسكندرية .. وليلة رأس السنة ...

الليل والشتاء البارد وذلك الشعور العام بالشجن .. لقد رحل المصطافون منذ ثلاثة أشهر تاركين لها ذلك الشعور المض الرقيق بالوحشة .. إسكندرية تشعر به وأنا أشعر به.. ونحن نحاول أن نخفف عن بعضنا تلك اللحظات ..

كنت جالسًا في ذلك الكازينو مع صديق لي .. هكذا اعتدنا أن نمضي أكثر وقتنا هنا، وجاء الساقي الودود فتبادل بعض عبارات المزاح معنا. كنت أرقب الكورنيش البادي من بعيد وأسمع الموسيقا التي تعزف على أوتار روح أو نياط قلب .. رغبة عارمة في البكاء تستبد بك ولا تعرف لها سببًا .. الألم الشخصي العبقري الذي تكفي لمسة كي تجعله ينفجر، وانفجاره يبلل المناديل دائمًا ..

كان الكازينو يقدم بعض الفقرات الرديئة التي ضاعف في بؤسها عدم وجود جمهور .. لهذا لم يكن أي الطرفين متحمسًا . لا الفنان ولا المتلقي .. لكن الفقرة التالية كانت جديدة:

«الآن مع قارئ الأفكار العجيب .. الدكتور (مورووو)...»

كان كل هذا موحيًا بالشفقة .. الموسيقا السوقية التي تصاحب العبارة، وصوت المذيع نفسه القادم من مولد (أبو طاقية)، دعك من اسم (مورو) نفسه .. لم يجد الرجل اسمًا سوى هذا الاسم المسروق من رواية (هـ. ج. ويلز) الشهيرة .. طبعًا هو لم يقرأ الرواية لكن رأى الفيلم ..

أما عن الدكتور (مورو) هذا الذي يقف وسط الأضواء الراقصة فرجل أسمر اللون يلبس سترة لامعة من الطراز الذي كان (ثلاثي أضواء المسرح) يقدمون به استكتشاتهم .. وعلى رأسه منشفة حمام عالية المفترض أنها عمامة ..



فقط لاحظت أن عينيه شيطانيتان بكل ما في الكلمة من معان ..

يمشي الدكتور وسط الناس .. ليس هناك الكثير منهم .. لكنه يقترب من سيدة متأنقة تجلس مع زوجها .. يقف أمامهما وبعينيه الناريتين يقول لها:

-«هل معك أي شيء يمكن أن ألمسه ؟... منديل أو قلم او أي شيء ؟»

كانت المرأة مذعورة، لذا نفذت طلبه بسرعة كي تتخلص منه .. ناولته منديلاً حريريًا فأمسك به ثم أغمض عينيه وقال:

-«مدام (شيرين السمان).. ربة بيت .. (ستانلي).. طفلان .. هل هذا صحيح ؟»

ضحكت المرأة في مزيج من الذهول والانبساط ... وصفقت فتعالى التصفيق ..

مال علي صاحبي يهمس:

-«متفقان .. أليس كذلك ؟ . اعني أنها كومبارس ..»

قلت في عدم يقين:

-«ربما .. لكن حاسة القياس النفسي Psychometry حاسة معترف بها.. إنها الحاسة التي تتيح لك أن تلمس الشيء فتعرف معلومات عنه وعن صاحبه .. قد يكون هذا الرجل موهوبًا او نصابًا .. »

دنا الرجل من مجلسي وصاحبي، ووقف أمامنا .. قال لصاحبي:

-«هل لديك شيء من متعلقاتك ؟»

قبل أن يمد صاحبي يده أخرجت أنا حافظتي وناولتها للرجل .. لكنه أعادها لي في اشمئزاز كأنها ملوثة وكرر طلبه لصاحبي:

-« شيء من متعلقاتك ..»

قلت في عصبية:

-«ظننت أنه لا فارق عندك بين واحد وآخر ..»

لم يرد وتناول عوينات صاحبي التي أخرجها من جيبه وأغمض عينيه وقال:

-«(مروان محمد).. من الجيزة .. أربعون عامًا .. و...»

أصابنا الذهول .. معلومات دقيقة فعلاً ومن العسير أن نجد مفرًا من هذه الحقيقة .. نحن فأران في مصيدة الآن .. لقد صار التشكك مستحيلاً..

ثم اغمض عينيه أكثر ... مضت دقيقة على ذلك، ثم فتحهما ونظر لصاحبي تلك النظرة النارية وقال وهو يمسك بيده:

-«خذ الحذر !... أنت في خطر داهم!»

حبسنا نفسينا في توتر .. ما معنى الجزء الأخير من كلامه ؟..

لم يفسر .. فقط انطلق يقرأ طالع واحد آخر .. ومرت الأمسية ..

اليوم - بعد خمسة أشهر - لا اعرف لماذا قرر صاحبي أن عليه أن يرجع إلى الجيزة الليلة بالذات .. نصحته بأن يقضي الليل معي لكنه كان مصرًا .. قال إن غدًا الجمعة وهو لا يتخيل أن يصحو يوم جمعة في غير فراشه .. يحلق ويستحم ثم يفطر ويذهب لصلاة الجمعة .. هذه طقوس لا يستطيع تغييرها ..

الليل والظلام والقيادة بذهن أرهقه السهر .. كنت قلقًا عليه بحق .. كان بوسعي أن أجبره على البقاء .. لكني تكاسلت عن ذلك..

خمسة أشهر مرت وذلك السؤال يعذبني ويرهقني .. خمسة أشهر

وأنا أتساءل عما حدث في تلك الليلة .. لماذا لم اصدق ما سمعته ؟

واليوم أعود إلى الاسكندرية ... أدخل ذات الكازينو .. أنا بطبعي لا أثق في موضوع العرافين هذا .. العراف الحقيقي لن يؤدي فقرات أمام الجمهور ليكسب ملاليم .. العراف الحقيقي يمكنه أن يكون أقوى شخص في العالم لو أراد ..

سألت الساقي المستجد عمن يدعى د. (مورو) فلم يعرفه، ثم طلب رأي من هو أقدم منه الذي قدمني إلى الكابتن (خميس)، وكابتن هذه رتبة من رتب السقاة تختلف عن معناها الرياضي المعروف .. كان الكابتن (خميس) رجلاً نوبيًا أشيب الشعر معتدًا بنفسه .. قال لي إن د. (مورو) يعمل في مكان آخر .. ووصفه لي ..

هكذا ذهبت إلى هناك ورأيته .. رأيت فقرته ذاتها وإن كان يقوم هذه المرة بقراءة أفكار الشخص إذا امسك بيده .. قرأ أفكار سيدة تجلس وحدها إلى منضدة فصاحت انبهارًا ..

بعد العرض نقدت أحد السقاة مالاً وطلبت منه أن يقودني إلى ذلك الدكتور (مورو).. اقتادني عبر مرات ضيقة كريهة الرائحة إلى غرفة ضيقة في أفقر حال .. لم تكن تشبه في شيء تلك الكواليس التي نراها في السينما .. الدكتور (مورو) نفسه كان خارجًا من الغرفة وهو يعرج بشكل ملحوظ، وقد نزع ثيابه فبدا أقرب إلى عامل فقير بثيابه الرثة وشعره الأشيب .. فقط ظلت عيناه ناريتين ثاقبتين .. كان يحمل حقيبة من القماش فيها أدواته وثيابه وفي اليد الأخرى منديلاً عملاقًا يبدو انه يلف بقايا طعام .. واضح انه نال أجره من بقايا (المزات) والأطعمة وكان يتأهب للانصراف عندما رآني..

قال إنه متعجل لأنه يريد الانصراف.. فطلبت منه في إلحاح أن يكلمني لنصف ساعة.. لا أريد إلا نصف ساعة .. سوف أدعوه إلى العشاء .. هناك



كبابجي قريب لا بأس به ..

لمعت عيناه وابتلع ريقه .. العراف العظيم جائع وقد تداعت كبرياؤه عندما تكلمت عن الكباب ..

وهكذا نحن نجلس في ذلك المطعم .. أمامي طبق به بعض قطع اللحم لكني فقدت شهيتي، بينما هو يفتك بطبقه فتكًا .. هكذا قربت منه طبقي ليجهز عليه وسألته:

«منذ أشهر قرأت طالع صاحب لي وقلت إنه في خطر داهم .... هل لديك تفسير ؟»

قال وهو يلوك الطعام:

«لا أذكر الواقعة لكن هذا يحدث كثيرًا جدًا .. لا أحد يصدق كلامي إلا بعد فوات الأوان ..»

«ما الذي تراه بالضبط ويقنعك بوجود خطر ؟»

قال في شرود وعيناه الناريتان ترمقانني:

«صدقني انا لا أعرف .. كنت موظفًا في بداية حياتي ثم شعرت بأن ذلك الشيء أقوى مني وأنني أريد أن تخرج هذه الموهبة للعالم .. إن لدي حزمة كاملة من المواهب التي لم أسمع أنها اجتمعت عند شخص .. التقمص العاطفي empathy أي أنني أستطيع أن أشعر بما تشعر به .. الحدس precognition أي رؤية ما سيحدث في المستقبل .. الاستبصار clairvoyance أي رؤية أشياء غير موجودة أمامي .. دعك من القدرة على قراءة الأفكار والتخاطر telepathy.. في البداية أصابني الذعر وحسبت انني موشك على الجنون، ثم قرأت قصة سيدنا (عمر بن الخطاب) عندما كان يخطب على المنبر فرأى بعين الخيال قائده في نهاوند (سارية بن زنيم) يوشك على الوقوع في فخ نصبه الكفار .. هكذا صاح وسط

الخطبة: يا سارية .. الجبل !!.. سمعه (سارية) في العراق وفهم أن عليه أن يحتمي بالجبل كي يتجنب الهجوم .. هذه القصة تحكي عن تخاطر واستبصار معًا وهي قصة موثقة لم يشك فيها أي مؤرخ..»

- قلت في دهشة:

- «لا تؤاخذني .. اعتقادي أن هذه المواهب تجلب الثراء لصاحبها .. لكن حالك .. لا تؤاخذني ..»

قال ببساطة:

- «هذه المواهب لا تطيعني دومًا .. أحيانًا تتخلى عني .. لهذا أعمل في مكان إلى أن يتكرر فشلي فأطرد وأبحث عن مكان آخر .. الآن ليس بوسعي معرفة ما تفكر فيه .. ربما أستطيع هذا بعد يوم أو يومين .. إن الموهبة التي لا تأتي حسب الطلب لا تخدم صاحبها..»

ثم أبرز ساقه من تحت المنضدة وقال:

- «هذا دليل على كلامي .. حادث سيارة مروع منذ أشهر .. فلو كانت موهبتي تطيعني دائمًا لما ركبت تلك السيارة اللعينة .. لقد كدت أموت في المستشفى ..»

كلام منطقي ولا شك .. لا يمكن أن يثري عازف الكمان الذي لا يعرف في أية ليلة يجيد العزف وفي أية ليلة يفشل .. سألته:

- «في تلك الليلة رفضت بشدة أن تقرأ أفكاري .. فلماذا ؟»

- «لا أذكر . لكن لابد أنني شعرت وقتها بأنك متشكك .. المتشككون أسوأ من يمكن قراءة أفكارهم لأن موجات أدمغتهم تضر عملي ..»

ثم راح ينتزع آخر بقايا اللحم من الريشة التي أمامه .. لابد أنه يتمنى لو كان لسانه خشنًا كالقطط لينزع المزيد ....

فجأة مد يده إلى الملعقة التي أمسك بها .. لمسها ونظر لي بعينيه الحادتين وهمس:

«الآن أذكر كل شيء .. أذكر صديقك ... أنت أيضًا في خطر داهم هذا الشهر .. خذ الحذر ..»

ثم التمعت عيناه أكثر .. ونهض وغادر المكان ...

وقفت خارج المطعم أرمقه وهو يبتعد، فدنا مني (مروان) وربت على كتفي وسألني:

«ظللت أنتظرك طويلاً .. ماذا توصلت إليه ؟»

قلت في شرود:

«لا أدري .. في تلك الليلة عندما قرأ طالعك شعرنا بدهشة ...ثم تذكرنا الساقي الثرثار الذي يمزح معنا كل ليلة .. لقد كان يعرف كل شيء عنك .. بالطبع اشار لنا من وراء الكواليس وأخبر (مورو) باسمك وعنوانك وسنك ..ولنفس السبب لم يقرأ طالعي لأنني لم أخبر الساقي بأي شيء عني .. لكني ما زلت لا أفهم السبب الذي جعله يحذرك من خطر داهم ..»

قال (مروان) ضاحكًا:

«لابد أنه ينصح الجميع بالشيء ذاته .. هل ترى ما أراه ؟»

وهناك عند المنعطف البعيد رأينا (مورو) يمشي مترنحًا مع امرأة ..امرأة رأيتها مرتين من قبل.. مرة كانت متأنقة تجلس مع زوجها واسمها مدام (شيرين السمان).. ومرة هذه الليلة بالذات .. وطبعًا هي زوجته وقد نزعت ثياب الشغل وعادت لثيابها الرثة ..

القصة واضحة الآن ولا تحتاج إلى تساؤلات .. لكن السؤال ظل يؤرقني: عندما استعاد (مروان) عويناته ولمس يد الرجل شعر برؤيا



تسيطر عليه ..كان يرى الدكتور (مورو) ينزف بعد حادث مروع .. سيارة مقلوبة وشجرة ساقطة .. قال لي (مروان) هذا بعد العرض فسخرت منه .. اقترح أن نحذر الرجل كما حذرنا لكني انفجرت في الضحك .. كيف يسمح النصاب لنا أن ننصب عليه ؟.. لكن (مروان) كان واثقًا مما رآه .. صحيح أنه عاد للجيزة في الليلة ذاتها لكنه ظل راغبًا في معرفة الحقيقة .. هل هو يملك موهبة الاستبصار ؟

اليوم جاءتنا الفرصة إذ عدنا لنعرف ما حدث .. وإنني لأتساءل: ماذا سيقوله (مروان) لو لمس يدي الآن ؟!

****



لماذا فعل ذلك ؟

قالت (هدى):

أنا رأيت الدكتور (عدنان) وهو يفعلها .. كنت واقفة في شرفة دارنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل أرمق الشارع الهادئ المظلم، وأحلم بألف شيء وشيء .. عندما رأيت ظلاً يقف في الشرفة المقابلة .. تلك الشقة الخالية التي يؤجرها أصحابها .. استطعت دون جهد أن أخمن أن هذا هو د. (عدنان) بالذات .. لماذا ؟.. لأنه لا يوجد أحد معه في الشقة ..

أعرف أنه متزوج وأن له أطفالاً، لكنه استأجر هذه الشقة منذ شهر مبعثرًا علامات الاستفهام في الحي كله .. صاحب العقار افترض أنه يريد أن يفتتح عيادة هنا خلسة، وهذا ببساطة لأنه افترض كالعامة أن (دكتور) معناها (طبيب) .. بالطبع هو لا يعرف أن د. (عدنان) حاصل على دكتوراه في علم النفس من جامعة بريطانية ما .. لكنه ليس طبيبًا نفسيًا ..

أبي افترض أن الرجل يريد أن يحيل الشقة وكرًا للملذات .. هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل رجلاً يستأجر شقة مفروشة يقيم فيها وحده في رأي أبي .. وقد راح أبي يحذرني من الوقوف في الشرفة أو إلقاء أية نظرة على تلك الشقة، على أساس أن الفجور معد .. ولو أغمض عينيه لحظة لضعت من يديه وبدأت التدخين ومعاقرة الخمور ..

طبعًا كانت تكفيه نظرة واحدة على وجه د. (عدنان) الكئيب الرزين الحزين ليعرف انه مخطئ .. مستحيل أن يفكر هذا الرجل الموشك على الوفاة في شيء مشين .. وبالطبع مر الشهر دون أن نسمع أو نرى أو نشم شيئًا يريب من هذا الرجل ..

ثم جاءت تلك الليلة التي رأيت فيها ذلك الظل يخرج إلى الشرفة .. وفي ثبات وبحركات كأنما تم التدريب عليها من قبل، رأيته يرفع ركبته على السور ثم يثب إلى الشارع ..

لقد احتبس الكلام في حلقي فلم أستطع أن استغيث أو أقول شيئًا .. أعتقد أنني سقطت مغشيًا علي .. وعندما أفقت كان أول سؤال سألته للآخرين ونفسي هو: لماذا فعل ذلك ؟

قال (عبد الغفار):

لا أعرف لماذا فعلها د. (عدنان) لكني كنت أشعر منذ البداية أن هذا الرجل يداري لغزًا .. أنا بواب هذه البناية، وقد رأيته في المرة الأولى يبحث عن شقة مفروشة في المنطقة .. كان يحمل حقيبة كبيرة وقد بدا عليه الارتباك والتوتر .. أعتقد أنه جفف عرقه عشر مرات وهو يكلمني ..

لكن لم يكن من شأني أن أحقق في امره .. لقد قابلنا الحاج (جوده) صاحب البناية، وكانت أوراق الدكتور تقول إنه رجل محترم، ونقوده جاهزة .. هكذا حصل على الشقة بالطابق الخامس ...

الحقيقة إنني لم أر منه ما يريب ، وهذا في حد ذاته مريب .. أين أهله؟.. عرفت أنه متزوج وله أطفال فهل هو (طفشان) من زوجته ؟.. لم استطع أن أتبادل معه أكثر من عشر جمل منذ سكن هنا ولم يكن يطلب أي شيء .. ولم يزره أي شخص باستثناء رجل يشبهه نوعًا وقد مكث عنده نصف ساعة في اليوم السابق للوفاة..

حادثة واحدة تستحق الذكر هي تلك التي انقطع فيها التيار الكهربي في شقته، وطلب مني أن أحضر له كهربائيًا .. هكذا دخلت مع الحرفي إلى الشقة .. وجدت أنه لم يغير فيها شعرة .. أعتقد أنه احتفظ بالغبار الذي كان فيها ..

وقفت أراقب الرجل وهو يعمل في لوحة توزيع الكهرباء..ثم حانت مني نظرة إلى غرفة داخلية تضيئها شمعة فوجدت ان بها كتبًا وجهاز حاسب آلي.. لكن ما أثار دهشتي هو أن هناك جماجم بشرية .. نعم ..

جماجم بشرية عددها نحو ثلاث موضوعة على المكتب حول الشمعة..

أنا أعرف ان الدكتور ليس طبيبًا .. السبب هو أنني طلبت منه فحصي فاعتذر .. إذن ماذا يفعله بهذه الجماجم ؟.. الحقيقة أن هذا المشهد جعلني أتقزز منه .. لماذا يحتفظ المرء غير الطبيب بجماجم بشرية في داره إن لم يكن ملعونًا أو ساحرًا ؟

الكهربائي قال إن هناك تيارًا عاليًا جدًا تم استخدامه فسبب احتراق المنصهر .. وسأل الدكتور عن الأجهزة التي لديه فأنكر هذا الأخير وجود شيء من هذا ..

عندما شكر الكهربائي ونقده أجره أراد أن يعطيني بعض المال، لكني رفضت في إباء .. لن آخذ هذا المال الدنس ...

هكذا كونت نظريتي الخاصة عن الرجل ولماذا يعيش وحده وماذا يفعله بالضبط .. توقعت على كل حال أن نهايته ستكون مريعة .. لكني ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك ؟

قالت مدام (عصمت):

لا أعرف السبب .. لكن الرجل كان مريبًا بحق .. كان يمضي في شقته أيامًا كاملة دون أن يخرج .. ولما كانت ظروف إقامته لا تسمح إلا بأن يكون مجرد زوج (طفشان) أو ماجنًا رقيعًا أو مجنونًا، فإني رحت أراقب كل صغيرة وكبيرة تحدث عنده .. إن شقتي تقع امام شقته ويمكنني مراقبة المدخل من عدسة الباب .. زوجي في العمل لساعات طويلة والأولاد في المدرسة لذا صار هذا الرجل تسليتي الوحيدة .. لم لا ؟.. تأمل نهم الناس لمشاهدة المسلسلات التلفزيونية .. ليس هذا ولعًا بالدراما كما تعتقد، بل هو ولع بما تتيحه المسلسلات من تلصص محكم على بيوت الآخرين !

لا توجد دلائل على أنه ماجن رقيع .. هم لا يبدون هكذا .. ولا يبدو زوجًا هجر بيته .. هؤلاء يكونون قلقين لا يبقون في بيوتهم لحظة .. إذن هو مجنون ..

كنت في بعض الليالي أسمع هديرًا غريبًا من الشقة وكان تيار الكهرباء يضعف .. لا اعرف السبب .. لم يحدث هذا معي إلا عندما كانت غسالتي (الفول اوتوماتيك) تالفة، لكني أعرف أنه لم ينقل أية أجهزة للشقة .. لم أر أي شخص يزوره باستثناء رجل يشبهه نوعًا ولم يبق عنده إلا نصف ساعة قبل الوفاة بيوم ..

ذات مرة وضع كيس قمامته على الباب فانتهزت الفرصة اثناء تظاهري بكنس الدرج، واختلست نظرة إلى الكيس .. كان يحوي ورقًا ممزقًا كتب عليه بالإنجليزية .. لا أعرف كيف أقرأ هذه اللغة لكن هناك رسومًا كثيرة تمثل رأس الإنسان .. كأنه رأس مفتوح عليه علامات ..

في ليلة الحادث قلت لزوجي أكثر من مرة إنني أسمع صوت بكاء ، لكنه أعتقد أنني مجنونة .. ثم سمعت الضوضاء في الشارع فخرجت إلى الشرفة .. وجدت زحامًا يلتف حول جسد راقد على الأسفلت .. ناديت البواب فأخبرني أن الرجل وثب من شرفته ..

كنت أتوقع نهاية غريبة لهذا الموقف، لكني ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك ؟

قال د. (محفوظ):

عندما عاد د. (عدنان) صديقي القديم من الخارج، كانت قد استحوذت عليه فكرة قراءة الجماجم Phrenology الذي كف الغربيون عن اعتباره علمًا منذ زمن طويل .. ذلك الفن الذي ابتكره العالم الألماني (فرانتس جال) حوالي عام 1800 .. يفترض هذا العلم أن كل صفاتنا وراثية ومصدرها

المخ .. وبما أن المخ موجود في الجمجمة فإن شكل الجمجمة قادر على كشف أدق أسرارنا النفسية ..

لقد استخدمت هذه الفكرة بإفراط لدى كل نظام فاشي أو عنصري .. شكل الجمجمة يحدد مسارك الأخلاقي منذ لحظة ولادتك وربما يحدد تفوقك العرقي كذلك .. هذا بالطبع ينافي أبسط قواعد الإنسانية، فلست مسئولاً عن شكل رأسي كي أحاسب على هذا الأساس .. ثم إنني كائن حر أختار وأحاسب على اختياراتي .. لو صرت مجرمًا غدًا فلأنني اخترت ذلك وليس لأن شكل جمجمتي أرغمني على هذا ..

انتقلت الفكرة بسرعة إلى الولايات المتحدة، وسرعان ما أنشأ الأمريكي (أورسون فاولر) شركة ودار نشر للتعامل مع قراءة الجماجم .. وفي القرن العشرين عادت الفكرة تلح بقوة مع نظرية (سيزار لامبروزو) عالم الإجرام الذي زعم أن ملامح المجرمين يسهل تمييزها ..

لو كان شيء قد بقي من هذا العلم، فهو حقيقة أن كل جزء من المخ البشري مسئول عن نوع من المشاعر أو الأفكار .. وهذا ما درسه علماء وظائف الأعضاء بدقة وبراعة ..

هناك فن آخر اسمه الميتوبوسكوبي Metoposcopy .. يقوم على قراءة تجاعيد الجبهة .. وهو علم تعصب له أرسطو وأبقراط وما زال يمارس في آسيا ..

عندما عاد (عدنان) من الخارج متحمسًا قلت له:

«أنت كمن يعيد اكتشاف الحديد.. هذا الفن قديم جدًا.. دعك من أن كل هذه الفنون تلعب حول فكرة القيافة التي يعرفها العرب منذ دهور .. لقد اشتهر أفراد قبيلة (بني سليم) بقيافة الأثر وهي تتبع آثار الأقدام والحوافر، وقيافة البشر وهي معرفة النسب عن طريق هيئة الشخص

الخارجية .. دعك من فن الفراسة الذي بلغوا فيه شأنًا عظيمًا .. كانوا قادرين على معرفة طباعك من شكل وجهك ..»

قال (عدنان):

«إنني أعيد زيارة هذا الفن من جديد، وأطبق عليه أساليب علمية حديثة .. مثلاً صرت أستعمل الأجهزة للقياس .. وقد ربطت النتائج بالكمبيوتر..»

قضى الكثير من وقته يقيس الرءوس فلم يترك جمجمة لم يجر قياسها، وكان يأخذ 37 قياسًا، وفي الوقت ذاته كان يجمع معلومات عن صاحب الرأس .. شخصيته . عقده .. وفي سبوع ابنة إحدى قريباته ضبطته الأم يقوم بقياس رأس وليدتها .. بالطبع كان موقفه بالغ السوء..

وفي النهاية قام بمقارنة ما عرفه مع ما تعلمه في مدارس غامضة بالخارج .. مدارس ما زالت تعتبر (جال) و(مسمر) عالمين .. يبدو أنه كون خبراته الخاصة عن الموضوع وصار واثقًا من نفسه تمامًا .. كنت أنا من أوائل الرءوس التي قام بقياسها لكنه لم يخبرني برأيه في سلوكي الإجرامي.. فقط قال لي: «أنت تتمتع بغباء أصيل تداريه بالتظاهر بالوقار والإفراط في استعمال المصطلحات ..»!

«شكرًا»

لم أعرف أنه ترك بيته وأسرته إلا عندما اتصلت بي زوجته تسألني إن كنت أعرف مكانه .. قالت إنه قام بقياس رأسها ورأس أولاده الأربعة ثم أصيب باكتئاب شديد .. عندما عادت من عملها وجدت أنه جمع حاجياته وأجهزته وكتبه وترك البيت ...

قلت لها إنني أعتقد أنه يريد الانفراد بأبحاثه لفترة .. سوف يعود .. كل الأزواج الفارين يعودون .. استطعت بكثير من الجهد البوليسي معرفة عنوانه الجديد وقمت بزيارته ..



كان يعيش في شبه رهبنة منعزلاً عن العالم .. طعامه المعلبات ونومه ساعات معدودات .. وكانت هناك بالإضافة لكتبه بعض الأجهزة المعقدة تذكرك بالمصباح الشقي ـ بكسر الشين ـ الذي يستعمله أطباء العيون .. سألته عن السبب الذي هجر البيت من أجله فقال:

ـ «إنهم مجموعة من الأوغاد .. كلهم مشاريع مجرمين وسوف يفتكون بي يومًا ما .. »

ـ «تتحدث عن الأولاد والمدام ؟»

ـ «طبعًا .. أنا صرت قادرًا على معرفة المجرم من مجرد نظرة وبضعة قياسات .. دعك من أن اثنين من الأطفال لا يمتان لي بصلة !..»

هنا انفجرت فيه:

ـ «هل تعرف أن القيافة ليست دليلاً لنفي البنوة ؟.. نحن في عصر الحمض النووي يا صاحبي فكف عن هذه الخزعبلات .. بصفتك عالمًا نفسيًا كنت أرغب في أن تشرح لي معنى البارانويا، وهذا لا علاقة له بمحادثتنا»

ـ «البارانويا هي أي شيء غير الذي أقوله لك الآن !»

ابتلعت غيظي، ثم سألته:

ـ «هل جربت قياساتك العبقرية هذه على نفسك ؟»

ـ «لا لم أفعل .. أردت أن أكون متجردًا علميًا .. لكني سوف أفعل ذلك غدًا .. والآن لو سمحت ..»

وهكذا وجدت نفسي أحمل حملاً إلى الباب، ثم أطرد طردًا .. لقد كانت نهاية معرفتي به عنيفة بعض الشيء ..

وبعد يومين قرأت خبر وفاته في الصحف .. يمكنني إذن أن أتصور ما

حدث في اليوم السابق لوفاته .. الرجل الذي يشك في نسب ابنين ويعتقد أن زوجته والأطفال مجموعة من الأشرار الذين يتربصون به .. الرجل الذي قضى شهرًا وحده في شقة مظلمة قذرة مع فكرة واحدة .. الرجل الذي قرر أن يجري قياسات جمجمته ليعرف من هو حقًا .. هذا الرجل قد فتح الشرفة في ساعة متأخرة ووثب إلى الشارع من الطابق الخامس.. فما الذي عرفه عن نفسه ؟.. هل عرف أنه سينتحر ؟

تبدو القصة منطقية، لكن لا تنس أنني (أتمتع بغباء أصيل أداريه بالوقار والإفراط في استعمال المصطلحات) لهذا ما زلت أتساءل: لماذا فعل ذلك ؟

****

فتيش

عندما جنت (إلهام) لم يجد أبواها أحمق آخر سواي ليعنى بها .

لماذا؟.. لأني دكتور في الأدب الإنجليزي .. هذا يفسر لك الأمر.. ما علاقة الأدب الإنجليزي بالطب النفسي؟.. هي علاقة واضحة جدًا بالنسبة لأبويها.. على الأقل هناك لقب (دكتور) قبل اسمي فلابد أنني أفهم في هذه الأمور ..

كانت (إلهام) في العشرين من عمرها وفي السنة الأخيرة من كلية العلوم، وكانت جارتي .. فجأة أصابها ذلك المرض المعروف.. الصمت.. الامتناع عن الأكل والمذاكرة .. البكاء بلا انقطاع.. وقد طلب الأب رأيي فأخبرته أن عليه أن يطلب رأي طبيب نفساني .. هذه سن يلعب فيها الكبت دورًا لا بأس به .. أحيانًا أعتبر (فرويد) حمارًا لكني أثق به ثقة تامة عندما يؤمن أن الاضطرابات الجنسية لها دور هائل في العصاب .. وفي مجتمعنا أعتقد أن كل اضطراب نفسي لدى شاب له جذور فرويدية ما ..

قلت هذا للأب المدير العام في الرقابة الإدارية فقال إنني حمار .. قلت له إن فرويد هو الذي قال هذا فقال إن فرويد حمار كذلك ..

-«ابنتي مهذبة حسنة التربية ولا يمكن أن تفكر في هذه الأشياء ..»

طبعًا من المستحيل أن تشرح له أن هذا لا علاقة له بقلة الأدب بل الهرمونات التي تمرح في دم الشاب قبل أن يستعد عقله ونضجه لها .. وكما يقول العظيم (صلاح جاهين): الواد يادوب دخل ثانوي .. ليه خده ينطر شوك بدا المنظر ؟

هكذا ذهب إلى أطباء نفسيين لا بأس بعددهم وكالعادة اصطحبني معه في كل مكان.. الطريف أنه لم يعط علاج أي منهم الفرصة كي يؤتي ثماره.. يبدأ بكبسولة أو قرص ثم يعلن أن هذا الطبيب أحمق



ويذهب لآخر.. هذا بالطبع من منطق أن الطبيب البارع سيعطي الفتاة كبسولة واحدة فتطير فرحًا وتبدأ في الرقص تعبيرًا عن سعادتها ..

في النهاية جاء دور الشيخ (عزام) الذي جلبته الأم .. لابد أن مدام (نازلي) أخبرتها بروعته وبراعته ..

لم أعرف بهذا إلا عندما صعدت الدرج فشممت رائحة البخور تهيج صدري .. وجدت باب جاري مفتوحًا وهذا الشيخ (عزام) يقف هناك .. لم يكن يلبس كالمشعوذين وإلى درجة ما شعرت بأنه محترم إلى أن عرفت كم تقاضى من اجل هذه الزيارة المنزلية ..

نزل الشيخ ونحن معه إلى مدخل البناية فرأيته ينقب هناك .. لم يكن البلاط يغطي عتبة البيت كلها، بل كانت هناك بقعة ترابية انتزع بلاطها منذ زمن ..

رأيته يقف هناك ويتشمم الهواء، ثم انحنى وراح يحفر بأظفاره.

-«جرب هذا ..»

قالها الأب وهو يناوله مطواة صغيرة فأمسك بها وواصل الحفر بينما وقف البواب وجار أو جاران ينظران للمشهد في دهشة .. في النهاية أخرج الشيخ كيسًا من الخيش أقرب إلى لفافة ..

نظر لنا في انتصار نظرة معناها (تم) ثم قال في رضا:

-«هذا العمل وضع هنا بحيث تضطر إلى أن تخطو فوقه عندما تدخل أو تخرج .. والحمد لله أننا وجدناه ولسوف نبطله»

سألته في فضول وأنا أتحسس هذه اللفافة:

-«ماذا فيها؟»

أبعدها عني بحذر حتى لا تؤذيني هذه الأمور التي لا أفهمها، ومد

يده داخلها وأخرج قطعة صغيرة من عظم .. شظية مغطاة بالغبار وقال:

«طبعًا لابد من تراب مقابر وجزء من عظم ميت.. هناك شعر كذلك لابد أنه شعر الفتاة.. من صنع هذا العمل حصل عليه بشكل ما.. في الغالب يتفق مع خادمة أو كوافير أو شيء من هذا القبيل»

ثم أخرج ورقة صغيرة لم أتبين فيها إلا عبارة (إلهام بنت فوقية) .. أما الباقي فكان كتابة أقرب إلى نبش الدجاج .. كتابة عفاريتي جدًا .. صحت بلا حذر:

«فوقية؟.. من فوقية؟»

صاح أبو (إلهام) في تحفظ حانق:

«هذا اسم المدام!... لا تكرره من فضلك!»

هكذا انصرف الرجل مشكورًا منتفخ الجيب مع تعليمات صارمة للأب أن يتخلص من هذه اللفافة في الماء الجاري .. ربما يلقيها في النيل إذا لم يكن حريصًا على البيئة ..

ظللت أنظر له وهو يبتعد ثم سألت الأب :

«كيف عرف اسم فوق ...... أعني المدام ؟»

قال في ضيق:

«من عمل هذا العمل لابنتي ودفنه هنا يعرف..»

«لكنك تعرف كما أعرف أنه هو من دفن هذا العمل هنا .. هكذا يفعلون دومًا .. وهكذا يفعل الرفاعية الذين يجدون الثعبان بسهولة لأنهم هم من وضعوه..»

ثم أضفت في حماس:

«وما الهدف من هذا العمل ؟.. لماذا يريد أي شخص شيئًا من ابنتك ؟»

«الانتقام !»

قالها في عمق وحنكة كأنه عرف الجواب اليقين، ثم اتجه إلى مدخل البناية حاملاً غنيمته .. لم يدعني للدخول فقررت أن أنصرف ..

****

قال د. (مصطفى) أستاذ علم النفس وهو يتحسس صلعته اللامعة الأنيقة:

«سوف تجد هذه القصة تتكرر دائمًا .. إنها في النهاية ليست سوى ذلك الزواج السعيد بين أسلوبين للسحر وصفهما (فريزر) في كتابه (الغصن الذهبي): السحر بالاقتران والسحر بالمحاكاة..»

ثم أشعل غليونه .كان يكره دخان الغليون لكنه مضطر لذلك كي يبدو مثل فرويد .. وأردف:

«السحر بالاقتران يرمز فيه الجزء إلى الكل .. الشعر أو الأظفار أو قطعة من الثياب ترمز للشخص كاملاً .. الرجل البدائي يعتقد أن ما يحل بشعره يحل به هو .. ولهذا تجد الطبقات الشعبية تحرص على التخلص من بقايا الحلاقة أو قص الأظفار في الحمام.. السحر بالمحاكاة يستعين بدمية (فتيش) تشبه الشخص موضوع السحر.. غرس إبرة في بطن هذه الدمية يعني أن يصاب صاحب الدمية بألم في بطنه .. الخ .. طبعًا من الواضح أن السحر المصري يستعمل النوعين معًا .. كان الفراعنة يعتقدون أن التمساح (إبيبي) يمنع (رع) من الظهور باعتباره قرص الشمس .. لذا كانوا يصنعون دمية للتمساح ثم يغلفونها بورق البردي، ويطعن الكاهن هذه الدمية ويدوسها ثم يلقي

بها في النار .. كان في بلاط فرنسا منجم مشهور اسمه (روجيري) كان مختصًا بصنع هذه الدمى الشمعية .. قيل إنه صنع دمية للملك شارل التاسع وجه لها ضربات في الرأس .. وقد مات الملك بعدها وهو يعاني ألمًا في الرأس .. هناك محاكمات لا حصر لها لسحرة مارسوا هذا الضرب من السحر الأسود وكلها انتهت بالإعدام طبعًا .. أما في انجلترا فقد حدثت حالة ذعر عندما وجدوا تمثالاً شمعيًا للملكة إليزابث وفي صدرها دبوس كبير .. الخلاصة أن هذا النوع من السحر قديم جدًا .. ما حدث في حالة فتاتك هذه هو أن هناك من صنع لها محاكاة تتمثل في عظام ميت وتراب مقابر مع اسمها .. ثم أضاف شعرات المفترض أنها منها للاقتران .. بهذا صار ما يحدث لهذه اللفافة يحدث للفتاة ..»

قلت في غيظ:

«لكننا نعرف أن ذلك المشعوذ لم يجد اللفافة .. لقد دفنها هناك بنفسه»

«هذا مؤكد .. لكن لو كان هناك طرف ثالث أراد أن يؤذي الفتاة لما فعل غير هذا .. لاحظ أن الأطفال والطبقات الشعبية يتصرفون ويفكرون مثل الرجل البدائي..»

قلت له في استمتاع:

«لابد أن تقرضني كتاب الغصن الذهبي هذا ..»

اتجه إلى أرفف المكتبة فانتقى مجلدًا ضخمًا بالإنجليزية ناوله لي، ثم أخرج شيئًا صغيرًا من على الرف تأملته فوجدت أنه دمية خشبية قبيحة المنظر .. دمية بدائية لا تشبه (باربي) بالتأكيد ..

«هذه من إندونيسيا .. هناك جزر كاملة تعتنق الوثنية فليس كل

الإندونيسيين مسلمين لو كنت تعتقد هذا .. وهذا الفتيش اشتريته من هناك ..»

أمسكت بالدمية في تقزز.. قبيحة فعلاً..

قال وهو ينفض الغليون:

-«يمكن أن تضع فيها شعر أو أظفار الشخص الذي تريد أن تؤذيه.. ما يحدث للدمية يحدث للشخص أو هذا ما يؤمنون به.. قل لي.. هل تجرب؟»

نظرت ليده فوجدت ذلك المقص الصغير .. قلت مراوغًا:

-«بالطبع لن أفعل ..»

-«لم؟.. أنت رجل علم تؤمن أن هذا هراء ..»

-«لكن هذا أقوى مني.. أنت تكلمت عن الوجدان الجمعي .. هناك جزء في عقلي يرفض هذا بقوة.. ما زلت أغطي قدمي أثناء النوم كي لا يمسك بها ذلك الشيء تحت الفراش.. أنا أؤمن أنه لا وجود له لكني أؤمن كذلك أن علي أن أغطي قدمي كي أحميها منه!»

ابتسم في ثقة، ثم اتجه إلى الحمام فعاد بفرشاة شعر .. انتزع منها بضع شعيرات ثم فك جزءًا من الثوب الخشبي البدائي المحيط بالدمية ودس الشعرات تحته ثم أعاد تثبيته بقطعة خيط ..

قال ضاحكًا:

-«الآن ما يحدث لهذه الدمية سيحدث لي ..»

ومد يده بحثًا على مكتبه حتى وجد فتاحة ورق .. أعطاني إياها وقال:

-«هلم .. أرني براعتك!»

«متأكد؟»

ومددت النصل بحذر ليوخز قلب الدمية .. رفعت رأسي نحوه فوجدته يبتسم في ثقة .. هكذا غرست النصل أكثر .. ورحت آتي هذه المرة بحركات لا حصر لها تدل على سادية واضحة كأنني أبرهن له على أنني لا أخاف .. لكنه كان واقفًا يبتسم وأسنانه على الغليون ويداه في جيبي الروب .. لم يعو من الألم ولم يمت ..

«هل ترى؟.. منطق العلم لا يهزم .. حتى لو كانت قرون من الخرافات تنعس في أعماق وجداننا الجمعي»

ابتسمت ثم رددت له الدمية .. ونصحته أن يحافظ عليها جيدًا .. وجلسنا نثرثر ربع ساعة ..

كنت على باب شقته عندما دق الهاتف فأشار لي أن أنتظر ثم رفع السماعة وسمعته يقول في قلق:

«ماذا؟.. أثناء المحاضرة؟... كيف؟.. لا يعرفون؟.. مستشفى (عياد)؟.. الدور الرابع؟... سآتي حالاً..»

ثم نزع الروب في ثانية فوجدته أمامي بالثياب الداخلية التي تتنافى مع وقاره خاصة أن الغليون ظل بين أسنانه.. جرى لغرفة النوم وعاد وهو يزرر السروال ويرتدي السترة في الوقت ذاته وقال لاهثًا:

«زوجتي.. دكتورة (غادة).. كانت تلقي محاضرة عندما أصيبت بألم حاد في الصدر والبطن.. لا أحد يعرف ما دهاها .. يقول الأطباء إنها أغرب نوبة قلبية رأوها.. أين هذا الجورب اللعين؟.. هل معك سيارة؟»

كان يركض على الدرج وهو يواصل ارتداء ثيابه، بينما أنا ألحق به.. نظرت إلى رأسه الأصلع وتساءلت عن حاجة رأس كهذا لفرشاة



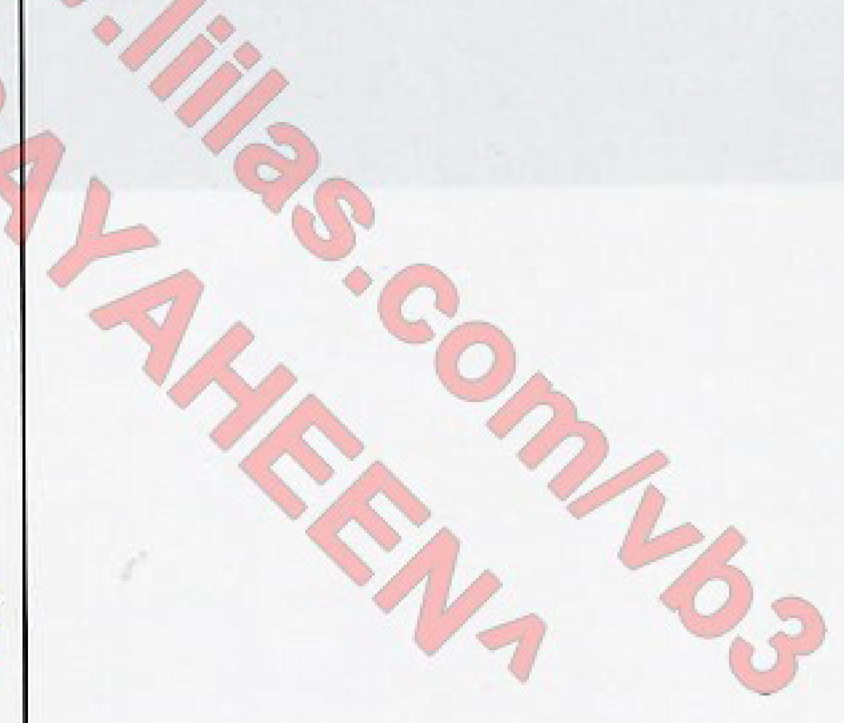
شعر ؟... الشعيرات التي انتزعها من فرشاة الشعر لم تكن تخصه... كانت تخص شخصاً آخر له شعر طويل يصففه عدة مرات كل يوم!

رباه!... وأنا الذي رحت أغرس النصل بإخلاص كأنه آخر عمل مفيد أقوم به في حياتي!

هل لهذا معنى ما؟.. هل هي المصادفة ؟.. هل تعمد استعمال شعرات زوجته؟.. هل فعل ذلك ليؤذيها أم لأنه لم يجسر على التجربة بنفسه؟

أسئلة كثيرة لا وقت لها .. فقط لنسرع إلى المستشفى ولندع الله أن تتحسن الأمور..







صرخات في الظلام

عندما أطفأ (عوني) نور غرفته دوت الصرخة شنيعة طويلة ..

كان فيها شيء مريع غير آدمي ولا أرضي، لكنه لم يبال بهذا قدر مبالاته بحقيقة أن الصرخة تأتي من حجرته ذاتها .. إنها معه هنا والآن .. وقد أضاء النور ووقف فوق الفراش مذعورًا ينظر ذات اليمين وذات اليسار .. لا يوجد شيء ..

جثا على ركبتيه تحت الفراش - حيث تنبعث رائحة الأثاث العتيق الكريهة - ليلقي نظرة، لكنه كان يعرف يقينًا أنه لن يجد شيئًا .. فهذا السيناريو تكرر أربع مرات من قبل على مدى ثلاثة أشهر .. لو أن (علاء) ذلك الأحمق لم يقرر أن الإقامة في شقة مفروشة لا تناسبه لكانت الحياة أهون .. رحل (علاء) ومعه رحل نصف الأمن ..

قام بجولة في الغرفة فلم يجد شيئًا ذا بال ..

خرج إلى الصالة المظلمة وجلس يلتقط أنفاسه .. أشعل لفافة تبغ .. هذا ما قاله لي فيما بعد ولم يحكه لأهله طبعًا لأنهم لن يبتلعوا أبدًا فكرة أن يرتكب ابنهم هذه الجريمة الشنعاء ..

عندما انتهت لفافة التبغ كان قد وصل إلى قراره النهائي: لن يبقى في هذه الشقة أبدًا .. لو تمسك أهله بها فلسوف يفارق كلية الهندسة ذاتها ..

وهكذا نزل إلى الشارع البارد المظلم .. على الأقل كان أكثر دفئًا وأمانًا من تلك الشقة التي لم يعد يطيقها .. أخرج البطاقة البلاستيكية ودسها في جهاز هاتف عمومي وطلب رقم (040) الذي يعني أنه يطلب الغربية، وانتظر حتى جاء صوت الأب المتسائل المذعور يسأله عما هنالك .. إن مكالمة نداء مباشر في الثالثة صباحًا لا تعني إلا شيئًا واحدًا..

«أنا لن أبقى في هذه الشقة ليلة أخرى .. سوف أعود لكم صباحًا ..»

«هل تمزح ؟.. إن الامتحانات على الأبواب .. لا وقت لهذا الهراء، ولن تجد أبدًا شقة شاغرة الآن..»

«قلت لك يا والدي إن هذه الشقة ليست على ما يرام .. إنها مسكونة .. أفضل أن أسافر من وإلى طنطا يوميًا ..»

«مستحيل !..»

قالها الأب في إصرار ثم قدم عرضه: لن يقدم الفتى على شيء مجنون، لكنّ الأب قادم في الصباح لمعرفة ما هنالك ..

هكذا لم يجد (عوني) مناصًا من أن يمضي ليلته في الشقة، لكنه أمضاها بطريقة متوترة بعض الشيء .. الأنوار كلها مضاءة وهو جالس على أريكة الصالة العتيقة مفتوح العينين وفي يده المصحف .. لم تكن هناك صرخات لكنك تستطيع أن تدرك بسهولة أن خشب الأثاث كائن حي .. الحشرات صاخبة فعلاً .. حتى صوت أنفاسك أعلى مما يجب ..

في الصباح جاء الأب ومعه صديق حميم .. طبعًا ما كان ليستطيع الوصول إلى هذا العنوان من دون صديق قاهري، وكان هذا المسكين هو أنا طبعًا .. المهندس (جودة) المدير العام على المعاش هبط على داري ليصحبني معه إلى تلك الشقة المفروشة التي يقيم فيها ابنه ..

كان (عوني) شابًا مهذبًا تمت تربيته جيدًا .. الطراز الذي تتركه في شقة مفروشة وحده في القاهرة متأكدًا من أنه لن يملأها بالغانيات وزجاجات الخمر وسجائر البانجو ، وكان له صديق يدعى (علاء) من ذات المدينة يدرس الطب ويقيم معه في ذات الشقة، لكنه فضل أن يسافر يوميًا لأنه لم يعتد الحياة بعيدًا عن (ماما) .. هذا يدلك على أخلاق (علاء) هذا .. إنه خجول أقرب للفتيات ذوات الخفر، ولا شك أن الأب تضايق لدى رحيل هذا الشاب الذي كان بلا شك صمام أمان بالنسبة

لابنه .. الحقيقة انه كان سيجن لو عرف أن ابنه يدخن وقد تعلم هذه العادة من (علاء)..

في العاشرة صباحًا كنا في الشقة المفروشة، وقد راح الفتى يحكي لنا قصته .. الصرخات التي تدوي في بعض الليالي من غرفته بالذات .. يقوم بالبحث في كل ركن لكن لا شيء .. صرخات مريعة يمكن أن تجمد الدم في عروقك بلا أية مبالغة، لكنها ككل تلك الظواهر (الفورتية) لا تحدث أبدًا عندما تنتظرها ..

كان الأب واضحًا .. نحن في نهاية العام الدراسي ولا وقت لهذا الهراء.. لو أن كل عفاريت العالم السفلي يقيمون في هذه الشقة، ولو أن القبور تفتح ليلاً لتقذف سكانها في غرفة نوم الفتى، فلا وقت للفرار .. لابد للفتى أن ينجح أولاً .. لا توجد شقق مفروشة في هذه الآونة، والفتى لن يستطيع أن يعتاد السفر في هذا الوقت القصير قبل نهاية العام .. إذن ضاع العام وضاع مستقبل (عوني) وضعت أنت يا (جودة) ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

«عندما كنت في الجيش كنا نمشي قبل الفجر ثلاث ساعات في الصحراء، وكنا نسمع أطفالاً يصرخون على جانبي الطريق فلا نبالي بهذا السخف .. أنتم شباب مدلل ..»

«وأنتم كنتم تفتقرون للخيال ..»

قلت وأنا أحاول أن أكون واسطة خير:

«اعتقد أنه بوسعنا فهم ما يحدث .. لكن لابد من أن تمضي ليلة معك..»

«قلت لك إن هذه الظواهر لا تأتي أبدًا عندما تريدها ..»

لكنني صممت على أن نجرب .. هكذا جاء المساء ونحن في الشقة

المفروشة نلتهم بعض شطائر الجبن الرومي والمخلل من (سعد) البقال الذي يقع متجره تحت الشرفة ـ وهو عشاء الفتى الدائم ـ ونشرب الشاي الثقيل الذي أعده لنا .. ثم جلسنا في حجرته .. أبوه على الفراش وأنا والفتى على مقعدين خشبيين .. طبعًا مر الليل بطيئًا سمجًا ثقيل الظل.. الأب تمدد على الفراش، وأنا أرحت رأسي على حافته وأنا جالس على مقعدي، بينما (عوني) راح يطالع كتابًا ثقيلاً أتحدى أن يكون قد وعى حرفًا مما فيه .. وقد غادر الغرفة مرتين .. فيما بعد عرفت أن هذا كان ليدخن على عجلة وخلسة لفافة تبغ في الشرفة بعيدًا عن عيني الأب....

عند الثالثة صباحًا دوت الصرخات وياله من حظ !..

تجمد الدم في عروقنا، ونهض الأب وهو يردد : بسم الله الرحمن الرحيم .. بينما ظل (عوني) صامتًا وهو يرمقنا وعلى وجهه شبح ابتسامة من طراز (ألم أقل لكم ؟)..

صرخات عالية جدًا .. مستحيل أن يكون هذا مزاحًا أو تكون هناك لعبة .. لولا أن توصيل الصوت سيئ جدًا في هذه الشقة لوجدت كل الشارع يقف على بابنا متسائلاً عمن يذبح من ..

وثبت مسرعًا بحثًا عن مصدر الصوت الذي تلاشى على كل حال .. لا يوجد .. اتجهت إلى خزانة الثياب العتيقة وفتحتها فلم أر بها إلا كيسًا بلاستيكيًا ضخمًا مع مجموعة من الأحذية العتيقة ..

أكاد أقسم أن الصراخ يأتي من هنا .. لكن كيف ؟

مددت يدي إلى الكيس وعبثت بمحتواه ثم قلبته على الأرض .. لم يكن فيه إلا أدوات تشريح صدئة وجمجمة آدمية صغيرة الحجم وبعض كتب التشريح البالية ..

قال (عوني):

«أنا جربت هذا قبلك .. لا يوجد جهاز راديو منسي ولا لعبة أطفال ولا فأر جريح. هذه الأشياء من بقايا (علاء) عندما ترك الشقة ولم يأت لاستردادها قط ..»

«لماذا ترك الجمجمة ؟»

«لأنه لم يعد يحتاج إليها في دراسته .. هذه الأشياء تظل في حوزة طالب الطب إلى أن يقرضها لطالب آخر ..»

عدت إلى الجلوس ونظرت إلى الأب والفتى، ثم قلت وأنا أنظر إلى الجمجمة:

«يبدو كلامي غريبًا لكن اعتقد أنني عرفت التفسير .. إن ظواهر الجماجم الصارخة معروفة في العالم الغربي لكننا لا نعرف عنها الكثير .. لقد وصفت في أكثر أجزاء إنجلترا، والقصة دائمًا هي قصة جمجمة تصدر صرخات مريعة ليلاً لأن هناك من حاول نقلها من موضعها، أو لأنها أبعدت عن أجسادها .. هناك قصة عن سيد إنجليزي عاد من الإنديز بعبد رقيق .. وقد أوصى هذا العبد لدى موته بأن يدفن رأسه في وطنه في إحدى جزر الكاريبي .. لكن بالطبع لم يقم أحد بتنفيذ هذا الوعد .. النتيجة أن صرخات مريعة كانت تنطلق من القبر الذي دفن فيه العبد .. ثم نقل أحدهم الجمجمة إلى داره .. عندها بدأت الصرخات تنبعث من هذه الجمجمة .. هناك كذلك قصة اخرى مريعة من القرن السادس عشر عن جمجمة الأب (أمبروز بارلو) التي يجدها الناس تنظر لهم من أعلى الدرج وتصرخ .. وقصة عن (ويليام كوردر) البريطاني الذي قتل عشيقته فشنق .. حصل احد الأطباء من هواة جمع الجماجم على هذه الجمجمة واحتفظ بها بعد ما قام بصقلها .. خلال أيام صارت الصرخات تدوي في بيته حتى اضطر للتخلص من الجمجمة .. المالك الجديد لها أصابه الهلع من الصرخات حتى أنه قام بدفن هذه البقايا .. هناك اعتراضات كثيرة



على هذه النظرية لكن لا اعتراض على مغزاها الأخلاقي: من حق المرء أن يموت وهو يعرف أن أحدًا لن يعبث بعظامه»

نظر لي الأب بوجهه الممتقع وقال:

«هل تريد أن أصدق هذا ؟»

«لا أريد أي شيء .. فقط أنا أرجح أن (علاء) حصل على هذه الجمجمة عن طريق أحد اللحادين .. طبعًا ما يفعله كثير من هؤلاء هو سرقة المقابر .. هناك قصص مريعة في إنجلترا عن لحادين قتلا ستة عشر شخصًا فقط ليوفرا عظامًا طيبة لطلاب الطب .. ما حدث هو أن اللحاد سرق جمجمة ما كان ينبغي لها أن تسرق .. جمجمة تكره الانفصال عن جسدها..»

قال الأب وهو يقف حافي القدمين ينظر للبلاط المتسخ:

«بيني وبينك .. لا أصدق حرفًا .. لكني متفق على أن عظام الميت يجب أن تكرم .. هذه الجمجمة يجب أن تحظى بدفن لائق ..»

نظرت إلى (عوني) مبتسمًا وقلت:

«هكذا سوف تحل مشكلتك .. سوف نأخذ هذه الجمجمة ونعيدها إلى (علاء) كي يدفنها..»

«ولماذا لا ندفنها نحن ؟»

«أعتقد أنها يجب أن تعود لقبرها الأصلي .. هذا هو تصوري للموقف..»

قال (عوني) وهو يرتجف:

«وهل تعتقد أن خلاصي من هذه الجمجمة يحل المشكلة ؟.. بعد هذا أنام في شقة أعرف أنه كانت فيها جمجمة صارخة ؟»

قال الأب وقد احتقن وجهه:

«ستفعل ذلك أيها المدلل وتنجح وتحصل على تقدير عال .. عندما كنت في الجيش كنا نمشي قبل الفجر ثلاث ساعات في الصحراء، وكنا نسمع أطفالاً يصرخون على جانبي الطريق فلا نبالي بهذا السخف .. أنتم شباب رقيع ..»

ينوي أن يحكي القصة للمرة الألف ..

في النهاية أعطيت الفتى وعدًا بأن أجد له من يقيم معه في هذه الشقة.. وانصرفنا راضين عما عرفناه ..

عندما عاد الأب أخبر (علاء) صديق ابنه بالقصة كلها، ولكن طالب الطب الشاب لم يكن يعرف مصدر الجمجمة لأنه ورثها من طالب طب آخر كالعادة .. ربما لو تتبعت السلسلة لقابلت عشرة أسماء .. هكذا خرج الأب و(علاء) إلى المقابر ونفحا لحادًا بعض المال كي يدفن لهما هذه الجمجمة دفنًا لائقًا ... المفاجأة الأكثر إثارة هي أن السفر المتكرر أرهق (علاء) لذا قرر أن يعود للإقامة في تلك الشقة في الأشهر الباقية على امتحان آخر العام .. هكذا حلت المشكلة مرتين ..

نسيت كل شيء عن القصة إلى أن دق الهاتف عندي ذات ليلة فرفعت السماعة لأجد (عوني) يقول لي:

«عمو (محفوظ).. قد عادت الصرخات !»

فركت عيني في ذهول .. ثم عدت أسأله:

«هل عرفت مصدرها ؟»

«نعم .. لقد فتح (علاء) الخزانة ليجد الجمجمة ذاتها هناك !.. إنه مصاب بانهيار عصبي الآن.»

فكرت حينًا ثم قلت وقد تذكرت:

«في بعض القصص. ومنها قصة جمجمة (كوردر) هذه. قيل إن الجماجم غادرت التربة وعادت.. حتى أنهم اضطروا في بعض الأحيان إلى سحق الجمجمة للخلاص منها.»

جاء صوته المغتاظ في الهاتف:

«ولماذا لم تخبرني بهذا ؟»

«لأنني نسيت بعض التفاصيل .. إن عقلي ليس دفترًا لو كان هذا قد خطر لك .. اسمع يا بني .. لا أرى داعيًا لكل هذا الصراخ .. حاول أن تجد طريقة لسحق هذه الجمجمة وبعدها سوف يعم السلام الأرض وينعم الجميع بحياتهم .. والآن أرجو أن تتركني أنام.. من فضلك !»

****

ماذا يحدث في شقتنا؟

عندما عاد مهندس الإلكترونيات (أحمد الشرشابي) إلى شقة (العجمي) لم يستطع أن يصدق ما يراه ..

وقف مذهولاً ومن خلفه زوجته (همت) وولداه المراهقان، فلو أن (رودان) رآهم لنحت أربعة تماثيل رائعة وعرضها متحف اللوفر تحت اسم (الذهول)..

هم أولاء مرهقون من السفر والحقائب في أيديهم، لكنهم ينظرون في لهفة ودهشة إلى الفوضى العامة التي جعلت الشقة الجميلة ساحة معركة.. المقاعد مقلوبة .. البساط مطوي .. الستائر ممزقة .. هناك أثر دام على الأرض يذكرك بأسد جر فريسته الممزقة عبر طريق من غبار ودم .. علامات على الجدران، لكنها ليست علامات عشوائية، بل هي رسوم تم رسمها بدقة بقلم من فحم ..

الغريب في الأمر أن الشقة مغلقة جيداً . لم تقتحم شرفتها ولم يقتحم الباب.. هناك من فتحها بعناية وأحدث كل هذه الآثار ثم غادرها وأغلق الباب..

قالت الزوجة وهي تشمر عن ساقيها وساعديها:

-«يجب أن أنظف هذا كله .. تنحوا جانبًا ..»

لكنه منعها من ذلك .. لابد أن يرى رجال الشرطة المشهد ..

فتش عن كل شيء ثمين أو قابل للسرقة فوجده . اللص الذي لا يسرق جهاز الكاسيت الثمين ولا التلفزيون خفيف الحمل هو لص أمين أكثر من اللازم أو أحمق .. صحيح أن شاشة التلفزيون كانت ملطخة بالسواد لكن هذا كل شيء..

جاء رجال الشرطة والتقطوا صورًا وسألوه إن كان يتهم أحدًا .. قاموا بفحص كل شيء .. لا توجد سرقة .. نعتقد أن متسكعًا تسلل للشقة وأمضى فيها عدة أيام .. هذه الأشياء تحدث مع شقق المصايف التي لا يستعملها سكانها إلا بضعة أيام كل عام ..

لكن كيف دخل من دون عنف ؟

-«فكر جيدًا .. هناك من حصل على المفتاح واستخرج نسخة منه ..»

هذا يسهل قوله .. لكن (أحمد الشرشابي) لم يكن ممن يفقدون المفاتيح..



هناك مفتاحان معلقان في مكتبه بشقته في القاهرة، وهما لا يغادران المكتب إلا إلى جيبه .. الولدان أصغر سنًا من مغامرة كهذه .. لكن رجال الشرطة لا يصدقون هذه الأمور .. شعارهم هو (لا يمكن أن تكون حذرًا أكثر مما يجب) كما يقول الغربيون .. كل إنسان يعتقد أنه واع متيقظ جدًا لكن العكس صحيح .. هناك عشرات القصص المماثلة، وهناك دائمًا أخ عابث يسرق المفاتيح منك لتكون له شقته الخاصة في العجمي من دون علمك..

-ليس لي أخ على كل حالش

هكذا وقف في الشرفة يدخن ويرمق أمواج البحر، بينما (همت) في الخلفية تنظف الشقة بمعاونة الولدين .. ماذا حدث ؟.. ومتى ؟.. هل هناك جريمة قتل دارت هنا ؟.. من جديد يبرز السؤال عن كيفية دخول القاتل ؟

هكذا مد يده إلى جهاز الهاتف يطلب رأيي ..

كان جوابي بعد سماع القصة عمليًا جدًا: أنت لن تعرف أبدًا .. لن تتفوق على رجال الشرطة .. لم يُسرق شيء ولم يتأذ أحد، لذا أنصحك بأن تنسى الموضوع وتبدل قفل الباب وتؤمن الشرفة وتستمتع بإجازتك..

-«أستمتع ؟.. هل تعتقد أنه بقي لي استمتاع ؟»

هكذا مرت الإجازة .. لكنه كان قلقًا وبالفعل لم يستمتع لحظة .. إنه الافتقار إلى الأمن .. الشعور بأنك عار تمامًا مكشوف تمامًا، وأن البيت ليس حصنًا والمفاتيح لا تضمن شيئًا ..

عادت الأسرة إلى القاهرة.. وعادت تمارس حياتها العادية، لكن (أحمد الشرشابي) أمضى أسبوعًا يفكر، ثم انطلق إلى العجمي في (كبسة) مفاجئة .. لا يعرف السبب ولا ما دفعه لذلك، لكنه أحسن صنعًا .. لقد كانت الشقة في ذات الحالة التي وجدها فيها من قبل !.. نفس الفوضى المريعة فيما عدا أن آثار الجر على الأرض كانت أعنف .. مرآة الحمام عليها ثلاث قطرات دم ..

عندما اتصل بي كان في أسوأ حال، وقال في هستريا:

-«هذه الشقة مسكونة .. لا يوجد تفسير آخر ..»

قلت في هدوء من ليست يده في النار:



«هناك تفسير عقلاني ونحن واجدوه من دون شك .. إن هذا الذي يحدث يذكرني بكابوس قديم في طفولتي .. ترى ماذا يحدث في شقتنا بعد تركها لفترة ؟.. لو وضعنا كاميرا هناك لتصور فماذا سترى ؟.. ما الذي يحدث في الشقة الخالية المظلمة في هذا الوقت ؟»

كانت فكرة مرعبة وأعتقد أنها أثرت فيه .. لقد صمت قليلاً فلم أسمع إلا أنفاسه ثم قال :

«دائرة تلفزيونية مغلقة تسجل كل شيء .. هذا هو الحل .. أنا مهندس الكترونيات ويجب أن أعرف كيف أفعل ذلك ..»

«هل تمزح ؟.. أي شريط يتسع لعام من التسجيل أو بضعة أيام ؟»

«بل بضعة أيام .. ثانيًا سوف أضع خلايا كهروضوئية متناثرة .. إذا قطعها شيء بدأ التسجيل لمدة ربع ساعة .. هناك جهاز صغير يجعل هاتفي المحمول يرن إذا عبث شخص ما بهذه الخلايا .. أي أنني سأتلقى إشارة على جهاز المحمول تبلغني أن هناك من يتحرك في الشقة .. هكذا أسافر إلى الاسكندرية فورًا، وأرى ما سجله الشريط ..»

«ما زلت أرى أن بيع الشقة أسهل ..»

«ليس قبل أن أفهم ما يحدث ..»

ووضع السماعة .. كان بارعًا لذا عرفت أنه سيؤدي العمل بإتقان .. (شغل المعلم لنفسه) كما يقولون .. وعرفت أنه عاد إلى القاهرة وعاد يمارس عمله .. أعتقد أن القصة انتهت عند هذا الحد ..

لا لم تنته .. لقد اتصلت بي زوجته ذات صباح كئيب تخبرني بأنه سافر إلى الاسكندرية ليلة أمس، لكنه لم يعد ولا يرد على الهاتف .. قالت إنه تلقى إشارة من هاتفه المحمول تبلغه أن هناك من تسلل للشقة .. وقد وعدها بأن يحضر معه البواب ورجال الشرطة قبل أن يقتحم الشقة، فهو لا يبغي لعب دور (رامبو)... أخذت منها عنوان الشقة بدقة ووعدتها بأن أتصرف .. طبعًا لا نية لي في أن اذهب إلى العجمي من أجل هاتف معطل..

اتصلت بصديقي الاسكندراني (حلمي) وأخبرته بالقصة ـ الجزء

الأخير منها ـ ووصفت له عنوان الشقة .. أنت تقيم في (الدخيلة)، فهل بوسعك أيها الصديق العزيز المخلص أن تذهب إلى هناك وتسأل البواب عنه وتدق جرس الباب حتى يفتح لك؟... تذكر أن هناك زوجة قلقة ..

«سأفعل .. لكن اتصل بي أنت لأن رصيد الموبايل ...»

«مفهوم . مفهوم .. فقط تحرك ..»

بعد ساعة اتصلت بـ (حلمي) فرد على الفور ..

«أنا الآن أقرع بابه .. يبدو أنه لا أحد بالشقة .. لقد مررت على البواب فقال لي إن المهندس (أحمد) دخل شقته معه ورجل شرطة ليلة أمس .. لم يكن هناك شيء لكن الشقة كانت في حالة فوضى مروعة .. قال إن المهندس كان متعجلاً للتخلص منه ومن رجل الشرطة .. كان يريد التواجد وحده لسبب ما .. هكذا تركاه بعد ما أكد لهما انه بخير .. لكنه لم يغادر الشقة حتى اللحظة .. انتظر .. إن الباب موارب في الواقع وليس مغلقًا .. أعتقد أنني سأدخل ..»

«إذن كن حذرًا من فضلك ..»

على الفور دوى صوت يشبه جرس الإنذار .. وتساءل (حلمي) في ذعر عن مصدر الصوت فقلت:

«جهاز المحمول الخاص به .. إنه يطلق إشارة إنذار لو تسلل احدهم للشقة مثلك .. أنت تجتاز دائرة كهروضوئية .. المهم هل ترى شيئًا ؟.. معنى وجود المحمول أنه هنا»

قال وهو يلهث رعبًا:

«إنه هنا بالفعل .. على الأريكة والذعر في عينه .. إنه متصلب وأعتقد أنه ميت ..»

ابتلعت ريقي .. ثم سألته:

«آثار عنف ؟»

«لا . آثار رعب .. هناك جهاز تلفزيون أمامه . يخيل إلي إنه كان يشاهد فيلم فيديو عندما أصابته نوبة قلبية ..»

«اسمع .. قد يبدو كلامي غريبًا لكني أريد أن تعيد شريط الفيديو قليلاً إلى الوراء وتصف لي ما تراه ..»

«فعلاً هذا أغرب مطلب سمعته .. رجل متوف وتطلب مني أن ... لحظة .. هاهوذا .. هذه لقطات ثابتة من أعلى تظهر هذه الصالة في ضوء خافت .. لا يوجد شيء .. سأتحرك للأمام بالشريط قليلاً .. لكن ... رباه!... ارحمني يا رب !!!!!!»

ودوت الصرخة .. ثم سمعت شيئًا يرتطم بالأرض وبعدها انقطعت المكالمة .. حاولت الطلب من جديد وقلبي يثب بين ضلوعي، فلم أسمع إلا الفتاة تقول بطريقتها المهذبة الودود (هذا الهاتف قد يكون مغلقًا) ..

هرعت إلى غرفة نومي فارتديت ثيابي، وسرعان ما كنت أنطلق بسيارتي - التي ملأتها بالبنزين - إلى الاسكندرية ..

(حلمي) من أعز أصدقائي ولن أسامح نفسي لو حدث له شيء .. كنت غارقًا في الأفكار .. ماذا حدث ؟.. هل هاجمه أحد ؟..

وصلت إلى العجمي مرهقًا منهكًا ..

اتجهت إلى العنوان الذي صرت أحفظه عن ظهر قلب ..

لم يكن البواب هناك فصعدت الدرج مسرعًا .. أخيرًا وجدت الشقة .. كان الباب مواربًا بالفعل .. وبالطبع لم أبال بطرقه فدخلت .. كانت الرائحة منفرة بحق .. رائحة الدم المسفوح التي أعرفها من قفص النمور في حديقة الحيوان ..

ثمة شيء تحرك .. ثمة شيء تحرك بسرعة خارجًا من مجال بصري .. ثم سمعت صوت الإنذار الغريب الذي سمعته على الهاتف .. بحثت بعيني فرأيت تلك الخلايا الكهروضوئية في كل مكان .. خلف المزهرية .. جوار الباب .. وراء لوحة على الجدار .. نظرت لأعلى فرأيت عدسة الكاميرا الصغيرة المتلصصة التي تذكرك بعدسات السوبر ماركت التي تتذرك لو زين لك الشيطان شيئًا ..

على كل حال دلفت إلى الصالة، لتقابلني ألعن فوضى رأيتها في حياتي .. كأن خراتيت كانت تتسابق هنا .. ورأيت مشهدًا عجيبًا .. على





الأريكة كان (أحمد) راقدًا مفتوح العينين متسعهما صورة للرعب الميت في اصدق صورها .. جواره على الأريكة جهاز الهاتف يصدر تلك الضوضاء الغريبة التي جعلته يأتي من القاهرة في تلك الليلة ..

ونظرت إلى المنضدة المقابلة فرأيت جهاز التلفزيون مغلقًا ... طبعًا يغلق ذاتيًا عند انقطاع الإشارة لفترة .. نفس الشيء مع الفيديو .. لكن هناك علامات سوداء واضحة على شاشة التلفزيون .. علامات لا يمكن مشاهدة الصورة في وجودها ومعنى هذا انها وضعت بعد مكالمة (حلمي) الأخيرة ..

أين (حلمي) نفسه .؟؟ هوذا على الأرض وجواره هاتفه المحمول الذي سقط فتشهم إلى ألف قطعة .. عيناه متسعتان والرعب على كل قسمة من وجهه ,.. نفس العلامات ..

لا أعرف ما الذي قتلهما لكنه مريع بما يكفي ..

دق جرس هاتفي فأجفلت .. جاء صوت (همت) المذعورة تسألني:

ـ«هيه .. د. (محفوظ).. هل نجحت في الاتصال به ؟»

لم أكن أريد المزيد من الضغط العصبي، لذا قلت في كياسة:

ـ«أنا في الطريق .. سوف أبلغك بكل شيء .. سلام»

مهما كان الأمر فهذا الشريط يحمل السر .. السر الذي رآه (أحمد الشرشابي) ورآه (حلمي).. يجب أن أعرف .. مهما اتسع خيالي فلا أتصور أن يكون الأمر رهيبًا إلى هذا الحد .

نظفت الشاشة بمنديل ورقي، واتجهت إلى جهاز الريموت وأدرت شريط الفيديو للخلف ثم شغلته ..

كانت هناك لقطة وحيدة من أعلى للصالة .. لا شيء يتحرك .. هذا مؤكد .. إضاءة خافتة رهيبة لكن لا شيء يتحرك ..

لكن إذ أدقق أرى شيئًا ما .. الآن تتضح الحقيقة أكثر فأكثر .. ودقات قلبي تتسارع ..

رباه !... أنا لا أصدق هذا الذي أراه .. لا أصدقه !!

****

الرقص بين الأحجار

تنظر إلى السماء المكفهرة التي اكتسبت لون الرخام.. ترفع يديها .. ترجع رأسها للخلف .. تغمض عينيها .. تمشي في تؤدة كأنها راقصة باليه .. بضع خطوات ..ثم تبدأ الرقص .. رقصًا لم أره من قبل ولا يمت لعالمنا بصلة .. كأنها تصغي للحن خفي آت من وراء الآباد والأبعاد .. ترقص .. تنتشي .. تضحك .. ثم تتوقف وتنظر لي في ثبات ..

****

من جديد أستعيد ذكرياتي مع جمعية البحوث الروحانية البريطانية، ومع د. (جيمس ماتيسون) بقامته القصيرة وعصبيته وعينيه النافذتين.. كان هذا عندما كنت أدرس في إنجلترا. لم انضم للجمعية قط كما تعرف لكني عرفت مجموعة لا بأس بها من الأصدقاء الرائعين حقًا ..

كان هناك (هاري كليف) .. وكانت هناك (إلستري)، وهي شابة بريطانية جدًا تدرس علم النفس، وقيل إن لديها طاقات نفسية خارقة .. وقد اعتقدتُ لفترة إنني أهيم بها حبًا ثم قدرت أن هذا يعود للشفقة لا أكثر.. معظم المجموعة كانوا من أساتذة الجامعة أو الدارسين .. بعضهم كان مقتنعًا بما يفعل، والبعض الآخر كان يجرب بعقلية متعادلة ..

حكيت لك قصتي مع الأختين اللتين كانتا تحدثان صوت دقات .. لكني اليوم أحكي عن زيارتي لجنوب البلاد .. بالتحديد في (ولتشاير) على بعد 18 كيلومترًا شمالي (سالزيوري)...

كنا هناك في السهل تحت السماء الرمادية .. منذ طفولتي تجعل هذه السماء الرمادية أمعائي تتقلص .. البرد .. صوت الريح .. ثم ذلك الشكل الحجري العجيب ..

لم يكن المكان منعزلاً... في الواقع كان أقرب إلى السيرك بكل هؤلاء السياح .. وحيث تجد السياح تجد تلك الخيام وسيارات الفان و(الأكشاك)

التي تبيع التذكارات والماء والمرطبات .. لهذا صدر عام 1978 قانون يمنع العامة من الدخول إلى مركز الموقع الأثري، لأن هذا الأثر العظيم موشك على التحول إلى فتات .. يبدو أن هواية الكتابة على الآثار أو سرقة قطع منها ليست مصرية فحسب.. لكننا بالطبع كنا مستثنين من هذا المنع لأن بيننا علماء ..

أنا قادم من بلاد الأهرام .. من بلاد أبي الهول .. أعتقد أن كل حجر يخفي تحته أثرًا عظيمًا عمره أربعة آلاف عام، لهذا لم أكن مستعدًا لأن أتحمس لهذه التشكيلة العجيبة من الصخور .. وقد بدا لي حماس هؤلاء القوم سخيفًا ..

قال لي (ماتيسون) وهو يشير إلى الكاميرا المعلقة من عنقي:

«هل حقًا لم تحرك الستونهنج Stonehenge شهيتك لالتقاط بعض الصور؟»

«حاضر ..»

وأخرجت الكاميرا التي ليس فيها فيلم ورحت ألتقط عشرات الصور لهذه الصخور .. كليك .. كليك .. كليك ..

ثم أن (ماتيسون) نظر إلى (إستري) وسألها:

«أنت لم تأتي هنا قط .. أليس كذلك ؟»

«نعم .. هذه أول مرة أرى فيها هذه الأحجار رأي العين .. إن انتقالي عسير كما تعرف»

هذه الصخور يمتد عمرها إلى العام 2000 قبل الميلاد .. من حولها ترى ذلك الخندق الدائري الذي يفصلها عن باقي معالم الوادي .. أشكال حجرية غريبة شيدها الإنسان في هذه العصور الغابرة .. لأقربها لذهنك تصور أنها حرف U اللاتيني مقلوبًا .. في البدء كان الخندق وبه 56 حفرة

للدفن .. اكتشفها عالم يدعى (أوبري)، لذا أطلقوا عليها اسم (حفر أوبري).. ثم ظهرت تلك الصخور المتراصة في دائرة مزدوجة .. ثم ظهرت تلك الصخور العرضية التي تربط التكوينات ..

إن الـ Stonehenge لغز آخر من ألغاز الكون .. فصل محبب في أي كتاب يحكي عن الأسرار الغامضة .. الأهرام .. أهرام الأزتك .. الستونهنج .. كهوف تسيلي .. رجل الثلوج المخيف .. الخ ..

عندما دنا الظلام قال (ماتيسون) للفتاة أن تتقدم إلى وسط الدائرة .. طلب منها أن تركز وان تتخيل ماذا كان يحدث هنا في عصور غابرة ..

كانت هذه هي التجربة ... لقد كانت (الستري) تتمتع بقدرات نفسية غامضة، وكانت تستطيع أن تعرف أشياء كثيرة عن الجسم الذي تلمسه..

أغمضت (الستري) عينيها ولمست بأناملها أحد الأحجار .. ثم همست:

«أراهم جميعًا هنا .. إنه الليل والقمر يتوسط السماء .. أرى الرجال يتقدمون إلى هنا .. أراهم يقتادون عذراء جميلة إلى الصخرة العرضية .. إنها ترقد فوقها ... الكاهن يحمل سكينًا .. يتعالى الإنشاد .. يهوي على عنقها .... الدم يسيل .. يلوث الصخر ..»

كان أداؤها يتعالى وصدرها يعلو ويهبط شأن من هو موشك على حالة هستيرية ..

«بعد هذا جاءوا بالأطفال .. إنهم يكررون ما قاموا به .. لا .. ليس الأطفال .. لا !»

ودفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي .. نظرت إلى البروفسور فوجدته يفكر في عمق، ثم أعلن ان علينا أن ننهي التجربة .. قال احد العلماء في حماس:

«لقد نجحنا !... لقد عرفت (الستري) بحاستها لغز هذه الأحجار ..



كانت الأضحيات تقدم هنا في العصور الغابرة .. كان الدرويديون يمارسون ديانتهم هنا»

والدرويديون هم سكان إنجلترا القدامى من قبائل (الكلت).. لم يتكلم (ماتيسون) بل بدا عليه نوع من الهم ..

وفي لوبي الخان الذي نبيت فيه، قال لي:

-«تجربة فاشلة ..»

-«ولم ؟.. الفتاة حكت قصة غاية في الاكتمال ..»

-«هذه هي المشكلة .. قصة متكاملة أكثر من اللازم .. لم تقل شيئًا إلا ما قاله عالم آثار من القرن السابع عشر اسمه (ستوكلي).. لقد درس هذه الصخور ثم قال إنها كانت مكان أهوال لا توصف كانت تحدث في منتصف الليل في عصر الدرويديين .. طبعًا هذا كلام فارغ لأن الدرويديين لم يظهروا في إنجلترا إلا قبل ميلاد المسيح بمائتي عام ..»

-«وهذا يعني ...»

-«يعني إنها لم تر شيئًا .. إن عقلها الباطن يعج بقصص من هذا النوع.. وهي قد رأت ما في عقلها الباطن لا أكثر ..»

ثم أضاف وهو يصب لنفسه بعض الشراب:

-«ما زال هذا الستونهنج لغزًا .. لماذا شيدوه ؟.. من فعل هذا ؟.. بأية معجزة تمكنوا من رفع هذه الأحجار الضخمة ؟.. نفس ما يقال عن الهرم الأكبر مع فارق الحجم طبعًا .. المشكلة أن من يدرسون هذا الأثر فريقان .. فريق من علماء الآثار الذين يجهلون كل شيء عن علم الفلك، وفريق من علماء الفلك الذين يجهلون كل شيء عن علم الآثار .. علماء الفلك ـ وعلى رأسهم (جيرالد هوكنج) ـ يؤمنون أن هذه الأحجار أجهزة رصد غاية في التعقيد .. وقد أطلقوا عليها اسم (الكمبيوتر الحجري).. هذا الكمبيوتر له



وظائف دينية وسياسية مهمة لدى الأقدمين .. لكن هذه النظرية يدحضها علماء الآثار .. لو كان ستونهينج مرصدًا لكان من الواجب ألا تحيط به أية أشجار، بينما برهنت الحفريات على أن المنطقة كانت غابة كثيفة في الماضي البعيد ..»

نمت في غرفتي نومًا عميقًا بلا أحلام، لكن الهاتف أيقظني عند منتصف الليل .. كان هذا (ماتيسون) يقول لي:

-«(الستري) ليست في غرفتها ..»

-«كيف ؟.. إن هذا مستحيل»

-«الأدهى أنه لا يوجد مكان تذهب إليه هنا .. قال لي موظف الاستقبال إنها غادرت الفندق في ثياب غريبة يقتادها شاب أشقر طويل الشعر .. هل تعرف فيم أفكر ؟.. أفكر في الستونهنج ..»

كانت هذه الكلمات كافية كي أرتدي ثيابي وألحق به في اللوبي ..

وفي الليل البارد مشينا نلهث .. لقد بدأ المطر ينهمر لكنه ليس كثيفًا لحسن الحظ ..

من بعيد نرى الستونهنج .. الوحوش الصخرية الغامضة التي تجثم هناك منذ أربعين قرنًا .. تعرف كل شيء ولا تتكلم أبدًا .. لكن هناك شيئًا غير معتاد في المكان .. لا أعرف ما هو لكنه موجود ..

فجأة تصلب (ماتيسون)..

كانت هناك تقف بين الأحجار العملاقة كأنها دمية بين الغيلان.. بالفعل كانت تلبس ثيابًا غريبة .. أقرب إلى جلباب أسود طويل .. وكانت ترقص .. ترقص بلا لحن نسمعه، لكنه رقص موقع جدًا حتى انك توشك على سماع اللحن الذي تسمعه هي ..

قلت هامسًا:

«لقد جنت .. التجربة قد زعزعت استقرارها النفسي. ثم كيف يمكنها أن ...؟»

«ش ش ش ش »

فجأة عرفنا أننا لسنا وحدنا .. كان هؤلاء القوم يخرجون من الظلمات .. كلهم يلبس ذات الثياب العتيقة .. لم تكن هناك مشاعل لأن القمر كان مكتملاً وإن جعلت الأمطار الرؤية عسيرة فعلاً .. لكن اعتقد أنهم كانوا حوالي أربعين ..

كانت ترقص .. بينما التفوا من حولها .. ثم أنها رقدت على صخرة جاعلة وجهها للسماء ..

همست في رعب:

«ماذا يحدث ؟.. إنها تكرر ذات المشهد الذي رأته !»

لكن (ماتيسون) ضغط على ذراعي في قوة ليسكتني .. كدت أثب من مكاني لأمنع المشهد الذي أتوقع أنه سيحدث .. نائمة وعنقها مكشوف .. فماذا يعني هذا ؟

إنهم يتكلمون لكني لا أفهم حرفًا .. يهمس (ماتيسون) وهو يرتجف:

«إنها لغة الكلت القديمة !.. يقولون إنها كاهنتهم العظمى التي عادت لهم .. يقولون إنهم سعداء بعودتها وإنهم ينتظرون الوقت المناسب لتقديم الأضحية ..!»

الأمطار تنهمر أكثر .. وهي تنهض من جديد لترقص حول الستونهنج .. لو رأى السياح هذا المشهد لجنوا طربًا .. لكن لا يراه سواي أنا و(ماتيسون) ..

كانت (الستري) ترقص .. ترقص .. ترفع يديها .. ترجع رأسها للخلف .. تغمض عينيها .. تمشي في تؤدة كأنها راقصة باليه .. بضع خطوات.. ثم تعاود الرقص.... تنتشي .. تضحك ..

إنها تشير نحونا حيث توارينا بين الأطلال.. تشير لنا لا شك في هذا..

قلت:

ـ«لقد رأونا !.. أعتقد أنني أعرف من هو القربان الأول لهم !»

ونهضت لأفر .. هنا سمعت (ماتيسون) يقول بصوت عال:

ـ«كان من الواجب أن تأتي هنا ليلاً.. تأتي بكامل ارادتك .. هذه هي التقاليد ..»

ـ«عم تتكلم ؟»

ـ«لقد كان (ستوكلي) على حق، وكذلك (هوكنج)... الحقيقة أن طقوسًا مريعة كانت تحدث هنا، لكنها أعقد مما تتصور .. وهي تمت لعهد يسبق الدرويديين بآلاف السنين .. لقد عادت هذه الطقوس للحياة على أيدينا .. ألم تفهم بعد يا أحمق أي مأزق وقعت فيه ؟!!!»

وفي اللحظة التالية كان يتشبث بساقي وهو يصرخ مناديًا هؤلاء القوم، ومن بعيد دوى صياح (الستري):

ـ«عليكم به !»

ركلت وجهه في جنون.. فهو ضئيل الحجم يسهل أن تتخلص منه، ثم أطلقت ساقي للريح بينما هؤلاء القوم يزومون ويصخبون وهم يقطعون المسافة التي تفصلهم عني .. أركض تحت هذه النصب الحجرية المخيفة وقلبي يتواثب بين الضلوع ..

أركض .. أركض .. وفي النهاية بلغت الخان وقلبي يوشك على أن يكف عن العمل نهائيًا ..



استطعت أن اغلق باب حجرتي علي ثم أدت الطبيعة عملها وفقدت وعيي .. وفقدان الوعي صار نعاسًا حتى الصباح ..

عندما فتحت باب حجرتي وجدت (ماتيسون) واقفًا إلى جوار (الستري) وهما غارقان في الضحك .. وقال في خبث:

«لقد كان منظرك مسليًا أمس .. مجموعة ممثلين وجو موح .. هذا كان كفيلاً بجعلك تركض كالأرانب .. لقد كانت دعابة عملية قاسية لا أكثر ..»

«كنتما مقنعين أكثر من اللازم ..»

«لو لم نكن مقنعين لما كانت الدعابة بهذه البراعة ..»

هنأتهما على هذه التمثيلية، ثم طلبت ان يمهلاني بعض الوقت حتى أغسل وجهي وأستعد للإفطار .. على أنني فور انصرافهما أعددت حقيبتي على عجل، وغادرت الخان من دون كلمة واحدة، ومن دون أن أعرج على قاعة الطعام ..

كانا يمزحان .. انا مستعد لفهم هذا .. فقط لو فسر لي أحدكم شيئين: أولاً متى نبتت هذه الغابة الكثيفة من الأشجار التي رأيتها ليلة أمس حول الأحجار ؟.. أقسم أنها لم تكن موجودة صباح أمس عندما كنا هناك، وهي التي منحتني ذلك الإحساس الغريب بأن هناك شيئًا مختلفًا ..

الشيء الثاني هو رقص (الستري) البارع .. كيف ترقص (الستري) وهي مشلولة لا تتنقل إلا على مقعد متحرك؟

****

ساحر الماء

قريتي تعرف جيدًا الشيخ (عبد الرازق)..

منذ طفولتي كان الشيخ (عبد الرازق) موجودًا ، ومن الواضح أنه سيظل هناك أبدًا حتى بعد ما نموت نحن .. هذا الطراز من المسنين لا يموتون بسهولة .. إنهم قد عقدوا مع الموت صداقة وحلفًا منذ عقود..

هناك كنت تراه .. جوار جدار الكتاب المتداعي، يجلس منهمكًا في خياطة شيء ما .. يضم حبات مسبحة ما .. جواره ذلك الكيس الخيشي الذي لا يعرف أحد أبدًا ما يحتويه، لكنك على الأقل ترى علبة المعسل الذي يلوكه طوال الوقت .. وجواره العصا المشقوقة الشهيرة التي تشبه حرف Y اللاتيني ..

باختصار كان الشيخ (عبد الرازق) يحمل كل المواصفات التي يعتبرها الريفيون (بركة).. لم يكن أحد يعرف متى يظهر ولا متى يختفي .. فقط تراه جوارك يردد:

«قيووووووم !»

بصوت ممطوط طويل غنائي .. ثم يروح يردد:

«الله .. الله»

مالئًا بها فمه متلذذًا بحرف اللام المفخمة ..

في المقابر كنت تراه .. في المآدب كنت تراه .. عندما تهرع القابلة لتغيث أم عباس التي جاءها المخاض كانت تراه على الباب ..

حتى في هذه السن الصغيرة كنت أشعر بانه شخصية أدبية ساحرة.. هات (يحيى حقي) و(يوسف إدريس) و(مارك توين) و(ماكسيم جوركي) وامش بهم في قريتنا .. سوف يتوقفون جميعًا أمام الشيخ (عبد الرازق) لأن عينهم الحساسة لن تتركه ..

إلا ان أهمية الشيخ (عبد الرازق) كانت تتضح بشكل خاص عندما



يرغب أحدهم في البحث عن شيء ضاع منه . عندها كانوا يجلبونه ويقفون في احترام بينما يتقدم هو نحو المنطقة التي عليه أن يفحصها .. يفرد قامته ويردد بعض الأدعية الغامضة ثم يرفع عصاه ممسكًا بفرعيها، تاركًا طرفها الآخر يتدلى قريبًا من الأرض .. يمشي بضع خطوات مترددة .. قدماه المشققتان تضربان الغبار ضربًا .. شفتاه ترتجفان كأنما التيار الكهربي يسري فيهما ..

فجأة تهتز العصا ..

فجأ يتوقف حيث هو ويراقب الاهتزاز ليتأكد إن كان أصيلاً أم لا .. يتدلى الطرف الحر نحو الأرض.. يتوقف ويقول في وقار:

ـهنا !

ثم ينقض على الغبار يحفره بأظفاره التي توشك أن تكون مخالب .. وسرعان ما تتبدى لأعيننا لفافة ما ..أو الشيء الذي فقده صاحبه ..

كان الفلاحون يهللون ويجزلون له العطاء، وسرعان ما يركض صبي إلى البقال (عزت) ليبتاع بعض علب العسل وكيلوجرامين من السكر وبعض الشاي ..

من حين لآخر كانت القرى المجاورة ترسل في استدعاء هذا (الخبير الفني) للبحث عن شيء ما .. وكان ينجح دومًا .. على إنه كان يقوم من حين لآخر بالبحث عن أماكن المياه إذا أراد أحدهم دق (طلمبة) في هذا المكان بالذات ..

كانت عصاه لا تخطئ .. وكان مصدر فخر دائم وتهيب في قريتنا ..

كان هذا في الماضي .. غير إني لم أعد ابن القرية كما تعرف .. تركتها وتعلمت في العالم الواسع، لكني لم أزل أذكر الرجل وأندهش بشدة لقدراته تلك ..

في العالم الغربي رأيت فيما بعد ذات المشهد كثيرًا ... الرجل الذي

يحمل عصا مشقوقة كلسان ثعبان يفتش بها عن بئر ماء .. عرفت أن هذا نوع من السحر معروف ومشهور جدًا عندهم .. لكني قدرت على كل حال أن الصدفة تلعب دورًا لا بأس به في هذا كله ..

في تلك الأمسية كنت في دار د. (مصطفى) أستاذ علم النفس .. هلم !... أنت تذكره بالتأكيد .. لقد كانت لي معه قصة أو قصتان في هذا الباب بالذات ..

كنا نتكلم عن القدرات الخارقة، فحكيت له عن هذا العجوز .. ظل يصغي لي في اهتمام وعيناه تتسعان في كل ثانية .. فلما فرغت سألني:

«هل هو ما زال حيًا ؟»

«على قدر علمي نعم ..»

كان د. (مصطفى) واسع الثقافة .. وله اهتمام بالغ بعلم الأنثروبولوجي، كما كان مهتمًا بالحضارات القديمة باعتبارها تمثل نوعًا من العقل الباطن عندنا .. إن دراساته عن (فرويد) و(يانج) وميلاد العصاب جعلته مهتمًا بهذه الأمور بشدة ..

نهض إلى مكتبته العامرة فانتقى كتابًا سميكًا تصفحه ثم قال:

«أنت تتحدث عن سحر الماء أو الـ dowsing .. في هذه الطريقة السحرية يستعمل أحدهم عصا أو قضيبًا للبحث عن الماء تحت الأرض أو المعادن النفيسة .. هنا يستعمل ممارس هذا السحر أساليب خفية للوصول إلى أجسام مادية .. هناك طريقة أخرى هي استخدام الخرائط .. هؤلاء تضع أمامهم خارطة وهم يحركون البندول فوقها حتى يبدأ الاهتزاز .. تكون هذه علامة على وجود ما يبحثون عنه هناك ..»

ابتسمت في سري وقد تخيلت الشيخ (عبد الرازق) يرفع بندولاً فوق خارطة .. سوف يعتبرك مجنونًا أو رقيعًا لو طلبت منه شيئًا كهذا ..

أردف د. (مصطفى):



-من يؤمنون بهذه الظاهرة يتحدثون عن القوى الكهرومغناطيسية التي تحدثها المياه تحت الأرض .. هذه القوى تتسرب لعضلاتهم فتجعل العصا تهبط .. هذا قد يفسر البحث عن الماء لكنه لا يفسر البحث عن الكنوز أو البحث على الخرائط .. أما من لا يؤمنون بهذه الظاهرة فيقولون إنها حركة عضلية .. أو فكر - حركية ideomotor action تتم بوساطة عقل الساحر .. أي إنه مقتنع بما يفعله ولا يتعمد خداعك، لكن عضلاته تفعل ذلك... »

قلت في شك:

-لكن هذا لا يمنع من أنهم يجدون أشياء فعلاً»

-ليس تمامًا .. عام 1949 أجريت في أمريكا تجربة شاملة على عدد من هؤلاء السحرة .. حوالي 27 منهم .. وقد فشلوا فشلاً ذريعًا في العثور على الماء في حقل .. بينما استطاع عالم جيولوجيا أن يجد الماء في 16 موضعًا في الحقل ذاته .. هذا يلخص مقولة: كذب المنجمون ولو صدقوا .. لكن هناك تجربة اخرى هي تجربة (شوين) التي تمت في ألمانيا عام 1987 أجريت على 500 ساحر ماء .. اسم التجربة (شوين) ومعناها (الجرن) والسبب أنها تمت في جرن قرب ميونيخ .. وقد بينت أن هناك جانبًا من الصدق في القصة .. أنت تقدم لي الآن ساحر ماء مصريًا ومن قريتك .. (محفوظ).. يجب أن أرى هذا الرجل ..»

قلت في غيظ:

-أنت لا تتوقع مني أن آخذك لقريتي في هذا الوقت بالذات .. أنا مشغول .. ولست متأكدًا من أن الرجل حي .. ثم ....»

-الآن أنت تعرف ما أريده منك !.. لقد وفرت علي عناء السؤال !»

هكذا وجدت أنني منطلق بالسيارة إلى قريتي في ظروف غريبة جوار عالم أصلع متحمس ..

عند العصر وجدنا الشيخ (عبد الرازق) كما هو جوار جدار الكتاب المتداعي الرطب .. يمضغ التبغ ويردد بصوت ممطوط طويل غنائي :

«قيوووووووم !...الله .. الله»

مالئًا بها فمه متلذذًا بحرف اللام المفخمة ..

لم يكن قد تقدم في السن .. كيف يتقدم في السن من يبدو منذ مراهقته كأنه في التسعين؟..

كان (مصطفى) قد أعد الاختبار من قبل كما يلي: نحن نملك قيراطين قرب الساقية القديمة .. تجول هناك قليلاً وعد الخطوات معتمدًا على ناظور غرسناه هناك .. ثم نزع ساعته الذهبية وحفر لها حفرة، ثم دفنها فيها بعد ما لفها في كيس بلاستيكي..

صحت محتجًا أن هذه مخاطرة .. الساعة ثمينة بالفعل .. لكن (مصطفى) قال لي في ثقة:

«إما أن يجدها فتعود لي .. وإما لا يجدها فتظل حيث هي لأستخرجها أنا .. لاحظ أنه لا أحد يعرف مكانها سوانا»

عندما فتح الشيخ عينيه الرماديتين، وحينما بدا أنه يتذكر أبي، دسست في يده علبتين من المعسل وهي اللغة الوحيدة الي يجيدها وقلت له إننا بحاجة له .. هذا صديقي من القاهرة .. د. مصطفى ..

سأله بصوت واهن:

«دكتور ؟.. هل معك علاجات للمفاصل ؟»

قلت ضاحكًا:

«ليس دكتورًا بالمعنى الذي فهمته .. فقط نحن في حاجة إليك لتساعدنا في العثور على ساعته الذهبية التي فقدها في أرضنا .. إنها باهظة الثمن فعلاً»

هكذا نهض معنا الشيخ حاملاً عصاه الثمينة .. وسألني عن اسم أبي ألف مرة .. فكنت أجيب وأؤكد له إنه مات .. سرعان ما ينسى هذا بعد ثلاث دقائق ..

أخيرًا وقفنا في أرضنا .. قلت له إن هذا هو المكان وإن له الحلوان لو وجد الساعة ..

راح يردد أدعيته الغامضة ثم رفع عصاه بتلك الطريقة التي رأيتها ألف مرة وراح يدور في الحقل منتظرًا الإشارة .. أو ربما منتظرًا أن يتولى عقله الباطن الموضوع ..

مرت عشر دقائق وهو يروح ويجيء .. لم يقترب قط من موضع الساعة ..

نظر لي (مصطفى) نظرة ذات معنى .. واضح انه سيفشل ..

أخيرًا دار الشيخ حول جدار متداع في ركن الأرض .. بقايا غرفة كان خفير يقيم فيها يومًا ما، ووقف هناك .. لقد هبط طرف العصا في هذا الموضع .. كان هذا واضحًا ..

صاح بصوته الواهن:

«هنا يا ابن ... قلت لي ما اسم أبيك ؟»

لم أرد .. فقط مشيت إلى حيث كان يقف وحيث كانت العصا تشير، وقلت في هدوء:

«لا أعتقد أن عصاك صدقت هذه المرة يا عم الشيخ ..»

«عصاي لا تكذب !»

قالها في لوعة وحرارة .. فجثوت على ركبتي وأزحت بعض الغبار .. طبعًا ليس هذا هو المكان ولا يمت له بصلة .. فقط أردت التأكد من انه لا يوجد شيء ثمين آخر هنا ..

كان الرجل مصرًا في عناد على أن هذا هو المكان، بينما أصررت أنا عليانه لا يوجد شيء .. دنا مني (مصطفى) وقال همسًا:

-«الأمر واضح .. لقد فشل مثل سحرة (مين)... لكني أريد أن نجربه في شيء آخر غدًا ..»

قلت للشيخ إننا سنرحل، لكنه راح يؤكد أنه لن ينصرف قبل أن يجد الشيء وينال الحلوان .. قلت لمصطفى همسًا:

-«يبدو أنه لا جدوى من استرداد الساعة الآن .. هي في أمان على كل حال ..»

وابتعدنا تاركين الرجل يواصل التنقيب في الأرض ..

كانت ليلة هادئة بات فيها (مصطفى) في دارنا وأكل كثيرًا جدًا، مما يدل على أن العلم لم يأخذ كل شيء منه ..

في الصباح الباكر قال لي إنه راغب في استرداد الساعة.. واضح انه سيرحل وقد اكتفى من البحث العلمي بكل ما أكله من بط وفطير مشلتت..

هكذا ذهبنا إلى الأرض.. وعددنا الخطوات إلى أن وجدنا مكان الساعة.. استخرجها من كيسها ولبسها، ثم سألني عن موعد تناول الإفطار .. فهو لا ينوي العودة إلى القاهرة (على لحم بطنه)..

قلت له:

-«ما زلت لا أفهم سبب فشل الشيخ (عبد الرازق)، ولا لماذا أشارت عصاه إلى ذلك الجدار القديم»

قال ضاحكًا:

-«ربما وجدت كنزًا تحت الجدار ..»

مشيت نحو الجدار المتداعي ووقفت أرقبه قليلاً.. ثم تصلبت .. لقد رأيت القدمين المشققتين من ورائه .. درت حوله لأجد الشيخ (عبد الرازق)





نائمًا على ظهره .. لا لم يكن نائمًا .. كانت عيناه تشخصان إلى السماء .. ولم يكن يتنفس.

هاهو ذا الكيس الخيشي إياه جواره .. الكيس الذي كانوا يقولون إنه مليء بالكنوز ..

عندما لحق بي (مصطفى) شهق في رعب وتساءل هل هو ..؟.. فقلت له نعم.

ثم أضفت وأنا أغمض عيني الرجل:

«لم تكذب العصا كثيرًا .. عندما أشار طرفها إلى هذا الموضع بالذات كان يقول إن هذا هو الموضع الأخير .. نهاية رحلة الشيخ .. لقد مات وحده في هذه الحقل وهو يفتش عن ساعتك ..»

قال د. مصطفى في ضيق:

«رحمه الله .. لكن العصا لم تتنبأ بشيء .. لقد وافته المنية لأن أجله حان ..»

قلت وأنا أنهض:

«هل تنبأت العصا بموضع موته، أم أن الموت جاءه في الموضع الذي أشارت له العصا..؟.. هذا سؤال سفسطائي ملتف حول نفسه ولن نعرف إجابته أبدًا .. فقط أعرف أنني لا أحب سحر الماء هذا.. وأتمنى لو لم أصغ إليك... هل استرددت ساعتك؟.. إذن تعال نخبر أهل القرية بوفاة الشيخ (عبد الرازق).. ساحر الماء الذي فشل في مهمته الأخيرة»

****

غير المدعو

«لا يا دكتور (مسعود) .. صدقني لن أطيل عليك ..

أعرف أنك مشغول .. أعرف أن وقتك لا يسمح .. انت من هؤلاء القوم الذين يتلذذون بأن يشعروا الآخرين بأنهم غير مهمين.. أذكر ما كتبه د. (عادل صادق) أستاذ الطب النفسي الشهير عن أن الناس يمارسون لعبة (أنا بخير.أنت لست بخير) طيلة الوقت .. ومن ضمن أساليب هذه الطريقة أن يتظاهر المرء بالانشغال طيلة الوقت كأن الآخرين تافهون يملكون كل الوقت ..

لكني أرجوك أن تصغي لي بعض الوقت، فأنا مذعور وقلق ومتشكك..

متى بدأت القصة؟.. ربما منذ شهر أو شهرين ..

أنت تعرف أنني كنت بحاجة إلى تلك الجراحة التي تأخرت طويلاً... كنت أؤجل ذلك اليوم على أمل أن أجد نفسي شفيت تلقائيًا، ثم صار الأمر لا يُطاق.. هكذا دخلت المستشفى الخاص الذي تملكه وبدأت أستعد لذلك اليوم..

أنت تعرف أن فصيلة دمي غريبة وغير شائعة، لذا طلبوا مني أن أستعد بلتر دم من ذات الفصيلة، وقد استطعت تدبيره على كل حال..

أحضرت اللتر الثمين وتأكدوا من أنه خال من داء الإيدز والتهاب الكبد (سي)، وفي ليلة الجراحة جلست وزوجتي مهمومين ننتظر .. أخبرتها بما تفعله غدًا إن لم أعد للحياة بعد الجراحة، وهو احتمال وارد جدًا ..

في الصباح ذهبت لحجرة الجراحة حيث الكل يركض ذات اليمين واليسار، ولا أحد يعبأ بي .. فقط رائحة الكبريت هذه تضايقني .. كنت هناك تلبس ثياب الجراحة وقد وضعت ذلك المنظار الأنيق الذي يغنيك عن وضع العوينات، وبدوت وقتها كأحد سادة الجراحة في كتب الطب .. قلت لي بتلك الطريقة العجول:

-«مستعد؟... جميل .. جميل ..»

وأشرت إلى مساعدك د. (عصمت) كي يعد كل شيء، ثم دخلت إلى غرفة الانتظار .. د. (عصمت) طبيب شاب ممتقع الوجه دومًا نحيل بطريقة غريبة، له رقعة شعر قبيحة المنظر في عنقه .. ومنذ عرفته لم أشعر براحة لمرآه .. هنا جاءت ممرضة مذعورة تقول:

-«الدم الذي أحضره ليس في الثلاجة !»

«ماذا ؟.. هل أخذه أحد ؟»

«هذا واضح !.. لقد سرق من الثلاجة ولا أحد يجد تفسيرًا ..»

ساد صمت رهيب، ثم نظر لي د. (عصمت) وقال في شيء من الخجل:

«معذرة .. لا نقدر على إجراء هذه الجراحة الكبرى من دون دم احتياطي.. على الأقل حاول تدبير نصف لتر لموعد مقبل»

ثم انصرف .. نظرت له وهو يبتعد وقلت للممرضة:

«مهذب هو د. (عصمت)..»

نظرت حولها ثم قالت في شيء من الحرج والرعب:

«لا أدري .. لا أستريح له ..إنه لا يحضر إلا الجراحات الليلية .. لونه غريب جدًا .. له رائحة كريهة ..»

لم ألحظ شيئًا غريبًا، ولكن .. صبرًا .. من أين تأتي رائحة الكبريت هذه ؟.. شعرت الممرضة أنها تكلمت أكثر من اللازم ففرت ... شعرت بأنها أرادت التخلص من ضغط عصبي بأي شكل ومع أي واحد ..

هكذا بدا شكلي شديد البلاهة وأنا أغادر غرفة الجراحة إلى حيث تنتظر زوجتي القلقة .. قالت في لهفة:

«ما شاء الله .. لم أعرف أنه بارع لهذا الحد !»

قلت في غيظ:

«لو كان من أجرى لي الجراحة فريق مكون من (الزهراوي) و(هالستد) و(لستر) و(مجدي يعقوب)، لما انتهوا بهذه السرعة .. لقد سرق أحدهم الدم ..»

هكذا غادرت المستشفى وخضت مغامرة أخرى للحصول على دم من أحد المتطوعين في العباسية .. كان فتى تبدو عليه علامات الإدمان كلها، ويتكلم بطريقة (اللنبي) في الأفلام .. غير أن (اللنبي) كان يبغي إضحاكك .. هذا الفتى كان جادًا .. اسمه (بي سالب) وقد أكد لي الجميع إنهم لا يعرفون له اسمًا آخر .. تمكنت من جعله يتبرع بنصف لتر، لكني أوصيت المختبر بالتأكد من ان دمه نظيف .. مع هؤلاء المدمنين يصير كل شيء ممكنًا ..

من جديد تحدد يوم الجراحة .. ومن جديد استعددت، ومن جديد قابلت د. (عصمت) أمام غرفة الجراحة .. ضحك لي مشجعًا لكني لم احب نظرته قط ..

فجأة شعرت بجو عام من الارتباك .. سمعتك تصرخ يا دكتور (مسعود):

«أنتم تمزحون !! . لو كانت التسلية هدفكم فاعلموا أن وقتي لا يسمح بهذا !!»

وسمعت من يقول:

«هناك أكياس كثيرة سرقت من الثلاجة .. لا نعرف كيف ولا متى .. هذه مسئولية المختبر .. على كل حال الدم الذي جلبه هذا المريض سرق قبل أن يفحص ....»

ومن جديد عاد د. (عصمت) يقول لي مواسيًا:

«فعلاً لا نعرف سبب هذا الحظ السيئ .. على كل حال (كل تأخيرة ولها خيرة)...»

لكني كنت على وشك الانفجار من فرط هذا التلاعب بوقتي وأعصابي ومالي .. هكذا تشاجرت ولعنت الجميع، ثم جمعت حاجياتي وغادرت المستشفى مع زوجتي .. لا أعتقد أنك تلومني يا د. (مسعود).. أنت نفسك كنت في حالة ثورة غير عادية ..

على الباب اعتذر لي موظف الاستقبال وقال:

«في المختبر أصابهم الذعر .. الفنيون والمرضات يتحدثن عن رؤية وطواط في المختبر قبل حدوث كل حادثة سرقة من هذا النوع .. هذا هراء طبعًا .. لقد مسحنا المستشفى بعناية فلم نجد شيئًا.. هذه بناية استثمارية حديثة لا يمكن أن ترى فيها شيئًا كهذا ..»

نسيت كل شيء عن هذا الموضوع وغادرت المستشفى إلى غير رجعة .. وصممت على أن أجري الجراحة في مكان آخر مع طبيب آخر .. أنا آسف طبعًا..

على أنني بالصدفة قابلت تلك المرضة التي كلمتني عن د. عصمت .. قابلتها بعد أسبوع في سوبر ماركت، ويبدو أنها تذكرتني .. أنا المريض النحس الذي يسرق دمه في كل مرة .. قالت لي عندما سألتها عنك وعن د. (عصمت):

«د. (عصمت) مريض جدًا ... لا أحد يعرف ما أصابه، لكنه في المستشفى



منذ غادرتها أنت .. شاحب تمامًا .. ويعاني حالة فقر دم متقدمة ..»

كانت تبدو مسرورة لهذا .. ولم ألمها بالتأكيد ..

على أنني بدأت رحلة البحث عن دم من أجل الجراحة القادمة .. ذهبت لذلك المقهى في العباسية وسألت عن (بي سالب) فقال لي القهوجي:

«إنه مريض يا بك .. يبدو أنه الإيدز والعياذ بالله !.. إنه في مستشفى الحميات الآن ..»

ارتجفت هلعًا .. هذا هو الدم الذي كنت سأتلقاه في الجراحة .. لحسن الحظ أنه سُرق ورب ضارة نافعة .. صحيح أن الفحوص كانت ستثبت ذلك قبل الجراحة على كل حال، لكن الفكرة ذاتها مروعة .. تذكرت هؤلاء البؤساء الذين كان ينقل لهم الدم قبل أن يعرف الطب مرض الإيدز، وفي الوقت ذاته كان المرض موجودًا .. هؤلاء كان نقل الدم لهم حكمًا بالإعدام..

هنا خطرت لي فكرة مرعبة .. هناك طبيب غريب الأطوار لا يعمل إلا ليلاً يدعى (عصمت).. هذا الطبيب شاحب جدًا .. طبيب تصدر عنه رائحة كريهة كرائحة الكبريت، وله رقعة شعر غريبة في عنقه .. هذا الطبيب تتكرر سرقات الدم من ثلاجة المستشفى فقط عندما يكون موجودًا .. وطواط في المختبر قبل سرقة الدم .. سرقت عينات الدم الخاصة بـ(بي سالب) هذا، وبعدها مرض د. (عصمت) مرضًا لا يعرف أحد كنهه .. لم يعرف أحد أن (بي سالب) مصاب بالإيدز إلا متأخرًا جدًا .. فما معنى هذا؟

ماذا لو شرب مصاص الدماء دماء رجل مصاب بالإيدز ؟.. فرضية ثورية حقًا .. كان مصاصو الدماء سعداء الحظ قبل ظهور الإيدز أما اليوم فهم في مشكلة .. من المنطقي أن يمرض .. ويبدو أن المرض لا يتصرف مثل الوباء العادي الذي يدمر الجسد ببطء على مدى عدة أعوام .. يبدو أن الاستجابة سريعة جدًا هذه المرة ..

هل تتابعني يا دكتور (مسعود)؟.. أعرف أنني أهذي .. أعرف أنني أخرف .. لكني طلبت منك منذ البداية أن تتحملني ..

لقد قرأت الكثير عن مصاصي الدماء بعد هذا .. عرفت أن أساطيرهم تبدأ منذ عصر الفراعنة مع (سخمت) المخيفة التي لها رأس لبوءة .. بعد هذا نجد مصاصي الدماء بقوة في الأدبيات البابلية والآشورية .. لاميا .. لاماستو ..

ليليث العبرية .. الأخوات إمبوسي .. الهامة عند العرب .. كلهن الشيء ذاته.. .في كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج .. إنها موجودة في الأساطير البابلية .. الآشورية .. العربية .. العبرية ..

لفظة Vampire ذات أصل سلافي .. إن أهم أساطير مص الدم موجودة عند السلافيين .. تذكر أن دراكيولا روماني .. هناك انقسام كنسي مهم حدث عام 1054 عندما اعتنق الصرب والروس والبلغاريون العقيدة الأرثونكسية، بينما اعتنق التشيك والبولنديون الكاثوليكية. كانت هناك مشكلة الجثث التي لا تتعفن في التربة .. هذه الجثث اعتبرها الكاثوليك جثث قديسين بينما لأسباب واضحة اعتبرها الأرثونكس جثث مصاصي دماء.. لكن لفظة Vampire دخلت انجلترا وفرنسا عندما اشتهرت قصتان مخيفتان عن (بلوجويوفيتز) و(أرنولد باول)... باحث فرنسي محترم هو (أوجستين كالميه) كتب عن مصاصي الدماء عام 1746 وأقر أنهم موجودون.. هكذا صارت كلمة (مصاص دماء) على كل لسان .. عام 1816 قدم (جون بوليدوري) قصة (مصاص الدماء) التي كرست فكرة مصاص الدماء الأرستقراطي في الأذهان . وقد استوحى الشخصية من الشاعر البريطاني لورد (بيرون).

الجانجريل GANGREL نوع من مصاصي الدماء يفضلون الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معاشرة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم أكثر. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القطة أو الفراء أو أذن الوطواط .. هل يذكرك هذا بشيء ؟

قالوا في الغرب أنه يسهل عليك معرفة مصاص الدماء لأنه يكون الطفل السابع لأخوة من نفس الجنس .. عندما يموت وتفتح قبره تجد قدمه موضوعة في ركن التابوت ..

في الهند يؤمنون أن البطيخ الذي يترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول لكائن يمتص الدم .. قرأت عن الأساسابونسام في غانا.. الداشنافار في أرمنيا الذي يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلاً .. في البانيا (اللوجات) .. في استراليا (يارا ما يها هو).. في بلغاريا (أوبور).... في الصين (شيانج شيه) .. يخرج من جثة منتحر ويبدو بشرياً لكنك تعرفه عندما لا يتمكن من عبور الماء .. الفرايكولاكاس في اليونان الذي يأتي لدارك

ويناديك بالاسم طالبًا الدخول..

هل كل هذه أساطير؟..

لهذا اتصلت بك يا د. (مسعود) طالبًا هذا اللقاء .. من الغريب أنك لم تطلب مني أن آتي لك .. قلت إنك ستأتي لي في داري مساء اليوم.. هذا شرف عظيم ولا يتسق مع انشغالك الدائم .. طلبت كذلك أن أكون وحدي في الدار لأن ما سنتكلم عنه سيقلق زوجتي .. هكذا رتبت أن تذهب زوجتي والأولاد إلى بيت حماتي ...

من الغريب كذلك أنك وقفت على بابي وسألتني في اهتمام:

«هل تدعوني إلى الدخول ؟»

«طبعًا .. طبعًا ..»

«متأكد ؟»

سرني هذا التهذيب المبالغ فيه وسمحت لك.. الآن احكي لك هذه القصة وأقول بكل وضوح: أنا أشك في مساعدك د. (عصمت).. كل شيء في هذا الفتى يوحي بأنه سارق الدم .. ومن المؤسف أنه لا يسرقه ليبيعه بل لأغراض أخرى.. ما رأيك؟»

نظر لي د. (مسعود) وابتسم في غموض وقال:

«قد يكون (عصمت) مجرد ضحية بائسة!.. فكر في هذا مرتين!»

«لا أفهم..»

«أنت قرأت الكثير عن مصاصي الدماء.. لكن ألم تقرأ قط عن أنهم لا يدخلون دارك إلا إذا دعوتهم؟.. فقط أردت أن أقول: لا توجد قواعد في موضوع الخوارق هذه.. لا يجب أن يحمل (الجانجريل) رقعة فراء أو عين قط!»

ثم راح يضحك.. يضحك.. وصدره يهتز.. هنا رحت أتذكر القصة من جديد.. لماذا أصر على أن أدعوه لداري؟.. أمر غريب بالنسبة لرجل مهم كهذا مشغول كهذا ..

في لحظة كنت على الباب .. وفي اللحظة التالية كنت في الشارع برغم أننا نسكن في الطابق الرابع .. ورحت أجري وأجري .. ويبدو أنني سأظل أجري ما تبقى لي من عمر.

****

مسمرة!

قابلت في حياتي ـ كما تعرفون ـ عددًا لا بأس به من غريبي الأطوار.. جزء من هذا يعود لأنني فضولي جدًا مولع بمعرفة كل شيء أجهله، أو بعبارة أخرى مولع بأن أضع إصبع قدمي في أي ماء لأعرف إن كان ساخنًا أم باردًا ... الجزء الثاني يعود لأنني أنا نفسي غريب الأطوار.. الطيور على أشكالها تقع في كل مكان وزمان ..

(ممدوح الفار) كان غريب الأطوار بالتأكيد .. لا أعني أنه كان يمشي عاريًا بكسرولة على رأسه (وليته فعل) لكنه كان معجبًا بأمور غريبة .. علم قراءة الأبراج .. الجان .. تحضير الأرواح .. الويجا ..

أما عن ملامحه فلا تهمك في شيء .. لنقل إنه من طراز (أصلع ـ نحيل ـ فارع الطول ـ مذعور على الدوام ـ يصدق كل شيء).. وهو متزوج لكنه منفصل عن زوجته .. يحب أن يصف هذا بـ (الطلاق النفسي) .. كان أستاذًا للفلسفة في الكلية التي أعمل بها ولن اعطي تفاصيل أكثر حتى لا تخمن من هو ..

كلما تذكرت هذه القصة تذكرت تلك الآلام في ظهري والتي لم يستطع الأطباء أن يجدوا لها حلاً .. سبب تذكري لها ستعرفه حالاً ...

كانت هناك دومًا جلسة تحضير أرواح يحضرها يوم الخميس .. وقد طلب مني أكثر من مرة أن أنضم له هناك فكنت أعتذر .. بصراحة كانت تجربتي مع تحضير الأرواح محبطة، وفي كل مرة كنت أجدها مجرد أكذوبة معقدة .. لم يعد بوسعي أن اضيع وقتي أكثر من هذا ..

على أنه ألح علي في هذه المرة بالذات .. والسبب ؟

ـ «سنحضر روحًا فريدة من نوعها تستحق أن تشهد زيارتها .. تذكر أن صديقنا المشترك (عزمي) سيكون هناك»

قلت في برود:

ـ «لا تقل إنك ستحضر روح (هتلر) أو (نيرون)..»



-لا هذا ولا ذاك .. لكني لن أعطيك أي تلميح ما لم تأت ..

-إذن لن أعرف أبدًا .. هل تعرف السبب ؟

-لا ..

-لأنني لن آتي مهما حاولت ..»

كنت باترًا قاطعًا مما جعله يتعامل بنوع من الفتور المغتاظ معي ..

مر يوم الخميس إياه، ولم ألقه إلا بعد ثلاثة أيام فسألته عن الجلسة فقال إنها كانت ناجحة .. لا مشكلة هنا لأن الجلسات لا تفشل أبدًا في رأيه..

مرت الأيام واتصل بي يطلبني لتجربة معينة، فذهبت له في داره.. لأن ما يقدمه كلام فارغ غالبًا لكنه مسل دائمًا ... الدار خالية تعمها الفوضى كما هي العادة لكن لديه مكتبة تثير حسد مكتبة الكونجرس ذاتها .. حياة عزاب كئيبة فعلاً من الطراز الذي تجد فيه الملاحة في الحمام والمنشفة فوق التلفزيون.. مضرب التنس القديم يستعمل كمصفاة للمكرونة كما يفعلون جميعًا ..

قال لي وهو يجلس أمامي:

-ما زالت تلك الآلام في ظهرك طبعًا ؟

-أوشك أن أعتبرها ضرورة للحياة ..»

جلب مقعدًا وجلس أمامي حتى تلامست الركبتان، ثم مد يده والتقط اصبعين من كفي .. مشهد عاطفي مؤثر حتى توقعت أن أسمع موسيقا (دعاء الكروان).. لذا أجفلت وجذبت كفي لكنه قال بلهجة هادئة:

-ثق بي .. وانظر في عيني»

رحت أنظر في عينيه المذعورتين المتسعتين .. بينما راح يمرر أنامله في رفق من ذراعي إلى كتفي مرارًا وتكرارًا .. وضع يده تحت حافة ضلوعي وساد صمت طويل ..



قلت له في تململ مرتاب:

-«ماذا بك ؟»

قال آمرًا:

-«ش ش ش ش !.. اخرس من فضلك»

فخرست ..

في النهاية قال لي:

-«هل تشعر بها ؟»

-«ما هي ؟»

-«تلك التشنجات الخفيفة .. في ظهرك»

الحق أني بدأت فعلاً أشعر بشيء كهذا .. لكن ما معناه ؟

قال في هدوء:

-«لقد زال ألم ظهرك !»

رحت أتحسس ظهري .. هذا صحيح .. لا أشعر ألمًا .. لكن ما أقوى الإيحاء!.. إن المعالجين الروحيين يفعلون هذا وأكثر .

قال لي:

-«الأمر ليس سحرًا .. فقط أنا أحاول ان أعطيك بعضًا من مغناطيسيتي الحيوية الذاتية .. الصحة هي تدفق حر للحياة عبر القنوات في أجسادنا، وعندما تنسد هذه القنوات يحدث المرض ... هنا نحتاج إلى الدنو من جسم حيواني مغناطيسي ..»

بدا لي هذا الكلام مألوفًا .. هناك كلام شبيه بهذا يقال عن الإبر الصينية .. لكن الإبر الصينية علم تمت دراسته جيدًا أما هذا الكلام فأقرب إلى الفلسفة ..

قلت له :

«من علمك هذا الكلام ؟»

«لا أدري .. لكنه مهم إلى درجة لا توصف»

فارقته وأنا أعرف ما سيحدث حتمًا .. سوف تعود الآلام كما كانت .. وهو ما يحدث لكل من يتعامل مع المعالجين الروحيين سواء كانوا الخبير الفليبيني (ماكمارا) أو الشيخ (عطوة) في قريتك .. في البداية يغمرك الذهول والانبهار وتعتقد أنك شفيت .. بعد أسبوع تدرك انك خدعت ..

عدت أمارس حياتي إلى أن اتصلت بي زوجته بعد أسبوعين .. كان لديها رقم هاتفي طبعًا .. سألتني عنه وعن حالته العقلية، فقلت إنه ليس أكثر خبالاً من المعتاد ..

قالت لي بصوت خائف:

«إنه يأكل كميات هائلة من الطعام وقد ازداد بدانة .. وقد أنزل خصلة شعر على جبينه كأنها (قُصة)..»

كنت أعرف أنهما منفصلان تقريبًا، فلماذا لا تتركه في حاله ؟.. إن هي إلا حالة مراهقة متأخرة .. ثم أنه نحيل جدًا وسوف تفيده بعض البدانة ..

قالت لي في توتر:

«زارني الأسبوع الماضي وهو يحمل بعض البقالة متلطفًا، وأصر على أن أكل وجبة كبيرة من رقائق القمح باللبن.. أنا لا أحبها .. وهو لم يأكل معي .. فقط شعرت بنعاس عميق .. عندما صحوت من نومي فجأة .. هل تعرف ما كان يفعله ؟.. كان يثبت على جسدي عددًا من قطع المغناطيس الصغيرة .. قطع في حجم الظفر .. وقد أصابني الهلع من هذا الجنون فصرخت فيه وطردته .»

«كان عليك الانتظار حتى يفسر الأمر ..»

«لم يفسر .. لكني أشك في رقائق القمح هذه ..»

قلت لها في شيء من الخبث:

«لأن رقائق القمح من المصادر الثرية جدًا لبرادة الحديد .. إنها سامة فعلاً لكن الآباء المخابيل يصرون على شرائها لأطفالهم، ومعنى هذا أن زوجك أطعمك في تلك الليلة كمية وافرة من برادة الحديد، ثم راح يثبت مغناطيس على جسدك!»

«ولماذا يفعل هذا؟..»

«وكيف لي أن أعرف؟.. إن للناس هوايات غريبة .. ربما كان تثبيت المغناطيس على جسد امرأة ابتلعت حديدًا أمر مسل..»

ثمة شيء مألوف في هذا كله ..

في مكان ما في زمن ما قرأت عن تجربة مماثلة لهذه .. لكن أين ومتى؟

وعندما انفردت بنفسي في مكتبي، رحت أقلب الموسوعات .. ثم بحثت عن عنوان (المغناطيسية الحيوانية) .. هذا هو ..

على الفور يطفو على السطح اسم (مسمر).. الألماني (فرانتس مسمر) الذي ولد عام 1734، والذي اعتبره البعض عبقريًا واعتبره البعض نصابًا.. لكن لفظة (مسمرة Mesmerism) دخلت كل اللغات الغربية بمعنى (الغائب عن الوعي شبه المنوم مغناطيسيًا) .. ولا غرابة في هذا لأن أبحاثه هي التي قادت إلى التنويم المغناطيسي كعلم بعد ذلك ..

كان (مسمر) يجرب نقل طاقته المغناطيسية للناس .. وبعد محاولاته على أفراد قام بعمل جهاز عملاق يذكرك بأجهزة الحاسب الآلي العملاقة Mainframe يمكن لعدد كبير من الناس أن يجلسوا حوله، وأن يلمسوه بأيديهم لتصلهم طاقة (مسمر)..

جرب (مسمر) عمل نوع من المد الصناعي على امرأة بأن أطعمها

الحديد ثم ثبت المغناطيس على جسدها، وقد شعرت المرأة بتحسن حالتها النفسية بعد ذلك .. هل تتذكر شيئًا مشابهًا ؟

هل تعرف كيف يبدو (مسمر)؟.. إنه بدين له خصلة شعر تتحدر على جبينه..

شعرت بقشعريرة في ظهري وأنا أقرأ هذه البيانات . في النهاية هرعت إلى الهاتف وطلبت (عزمي) الذي أعرف أنه كان في تلك الجلسة التي لم أحضرها ..

ـ«(عزمي).. ماذا تم في تلك الجلسة التي دعيت لها منذ أسبوعين ؟»

فكر حينًا ثم قال:

ـ«لا أذكر التفاصيل .. كان د. (ممدوح) هناك وقد استدعى روح نصاب ألماني اسمه (مسمار).. لا .. (مستر)..»

ـ«(مسمر)؟»

ـ«نعم.. نعم.. أنت بارع في تذكر الأسماء .. كان (ممدوح) قد قرأ عنه وأراد أن يجرب استدعاءه.. لا أعرف أكثر ما حدث لأن المحادثة كانت بالألمانية التي يجيدها (ممدوح).. لقد أثار هذا (المسمر) هلعنا لأننا اتهمناه بأنه نصاب.. قال إنه لن يفارقنا وسوف يلازمنا للأبد .. قال إنه سيرينا إن كان نصابًا بحق.. طلبنا من الروح الانصراف فلم تعط أية علامة !»

الآن بدأت علامات الاستفهام تتكاثر .. القصة توشك على أن تكتمل فصولها وتصير مفهومة..

مفهومة لكني لا ابتلعها على الإطلاق!..

هكذا قررت أن أزور (ممدوح) في اليوم التالي..

فتح لي الباب وبالفعل كان شكله قد تغير جدًا.. جلست شاعرًا بالحرج ولم أنس أن ألاحظ تلك الصورة الكبيرة المعلقة في الصالة .. صورة وجه

رأيته في مقال المغناطيسية الحيوانية ...

سألني عن ظهري فقلت إنه بخير .. ثم قررت أن أبدأ :

-«من أين جاءتك أفكار المغناطيسية هذه ؟»

-«قلت لك إنني لا أدري ..»

-«هل يذكرك هذا بأبحاث (مسمر) ؟»

نظر لي للحظة .. ثم بدأ يضحك .. يضحك .. يهتز وتتسع عيناه أكثر ..

هنا قررت أن أهجم :

-«كان (مسمر) مخبولاً .. وقد قيل إنه سرق رسالة الماجستير التي قدمها عن علاقة حركة الأفلاك بنفسية الإنسان ..»

نظر لي نظرة نارية .. ثم هتف بالألمانية وبصوت خفيض:

-«أنا هو (مسمر) ولسوف تدفع ثمن إهانتك»

روح (مسمر) في جسد صديقي وأنا معه وحدنا في شقته .. كم أن هذا يثير البهجة !... لا أعرف كيف نهضت .. ولا كيف جريت إلى الباب .. ولا كيف رحت أثب درجات السلم إلى أسفل ..

لقد بلغت الأمور درجة لا تصدق ....

عندما سمع د. (مصطفى) الطبيب النفسي قصتي ضحك كثيرًا جدًا .. وقال لي:

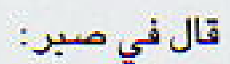
-«كل هذا هو الإيحاء .. إن تجربة تحضير الأرواح تحدث هزة نفسية كما قال (يانج)، وهذه الهزة كشفت عن العصاب الكامن في داخله ..»

-«هل يضايقك أن تتكلم العربية ؟..»

-«أنا افعل ذلك»

-«بل تتكلم الفرويدية ..»





قال في صبر:

«ليكن .. هذا الضغط العصبي أدى إلى أن يعتقد أن روح (مسمر) حلت به فعلاً .. ولا تنس أن المصابين بالعصاب يملكون طاقة نفسية هائلة مما يسمح لهم بالتأثير في الآخرين .. أغلب المشعوذين الذين يخدعون الناس فيهم شيء من الخبال .. هكذا يعتقد كل إنسان لمسه (ممدوح) أنه شفي..»

«والحل ؟»

«هاته لي. لو استطعت. ولسوف أحاول علاجه ..»

قلت وأنا أنهض وأتمطى:

«على الأقل كان الإيحاء ذا نفع في حالتي .. لقد شفي ظهري تمامًا .. قل ما تريد عن المغناطيسية الحيوانية، لكني أؤكد لك أنني .... أووووووو ..»

«ما بك ؟»

قلت وأنا ارتمي على المقعد:

«أنا أسحب كل ما قلته .. فقط ابحث لي في صيدليتك عن مسكن قوي وعن دهان لآلام الظهر .. بسرعة وحياة والدك !»

****



حكايات لا يربطها شيء

- ١ -

(سلوى) و(عمرو)..

هي في السابعة عشرة .. طالبة جيولوجيا .. سمراء رقيقة تحب أغاني (كاظم الساهر)، وتخرج أحيانًا في رحلات كليتها .. تلبس حذاء رياضيًا وسروالاً من نوع (الجينز) وتغطي شعرها .. هو في العشرين من عمره.. تخرج في كلية الألسن .. له مظهر رياضي برغم انه يؤكد أنه لم يلعب أية لعبة في حياته ..

هو يحبها كثيرًا .. هكذا قال لأصدقائه .. هكذا قال لي .. والسبب في هذا الاعتراف أنه يمت لي بصلة قرابة ..

قلت له في حكمة كئيبة:

«الحب ينتهي دومًا بالفراق أو الزواج .. ثق أن هذه اللحظات لن تدوم لذا حاول أن تنعم بها ..»

قال لي في تفاؤل:

«لا تؤاخذني يا د. (محفوظ).. أنتم من جيل فشل في الحصول على ما تمناه .. ظللتم تراقبون الكون في اشتهاء وشغف وخوف حتى رحل عنكم .. أما نحن فنعرف أن الحياة قصيرة ..»

تمنيت أن يكون على حق، لكن الحقيقة المفزعة التي لم أخبره بها هو أننا جميعًا قلنا ذات الكلمات لمن سبقونا ..

حبيبتي السمراء الرقيقة كانت تحب (عبد الحليم حافظ)، وكانت تلبس مثلما تلبس (فاتن حمامة) في افلام الخمسينات .. تلك التنورة التي تشعرك بأنك ترى مظلة لا فتاة .. حبيبتي كانت تقرأ أشعار شاعر شاب موهوب اسمه (صلاح جاهين) وكانت تحب (عبد الناصر)..

حبيبتي تزن الآن قنطارًا، ولديها خمسة أولاد .. وجهها تعس مليء بالإحباط والقرف.. فلا شيء يبعث البسمة في وجهها إلا انخفاض سعر الطماطم ولا شيء يجعلها تبكي إلا البصل .. زوجها مدير عام في الرقابة الإدارية .. زوجتي أنا لا تختلف كثيرًا ..

هذه هي الحياة .. ما إن نتذوقها حتى نجدها قد ذابت في فمنا ..

(سلوى) و(عمرو) متفائلان .. أما انا فحكيم بعيد النظر ...

ثم بدأ (عمرو) يتبدل.. صار صموتًا أقرب إلى الاكتئاب.. وذبل كثيرًا..

أهله فكروا في أشياء كثيرة تبدأ بالمرض وتنتهي بالإدمان .. لكنهم لم يستطيعوا أن يبرهنوا عن شيء من هذا ...

قالوا إنه الفشل في الحب، لكنهم وجدوا أن (سلوى) قلقة وملهوفة مثلهم .. لقد تغير (عمرو) كثيرًا جدًا فلماذا تغير ؟

إلى أن جاء اليوم الذي تأخر فيه كثيرًا جدًا في غرفته .. لم يصح من النوم حتى الواحدة ظهرًا .. قرر أهله أن يقتحموا الباب المغلق ..

هناك خلف الباب وجدوه .. كأنه كان يحاول فتح الباب عندما سقط أرضًا .. عنقه ملتو بطريقة غير مألوفة وقد تصلبت قسمات وجهه .. يبدو أن موته لم يكن سهلاً أو هينًا .. الطبيب لم يستطع فهم سبب الوفاة .. فقط لاحظ نزفًا بسيطًا من إبهام قدمه اليمنى وبدا له كأن أحدهم حاول انتزاع الظفر من مكانه ...

(عمرو) محظوظ .. على الأقل لم يعش ليرى اللحظة التي تنتهي فيها قصص الحب العظيمة ..

****

-2-

نظر د. (هوفمايشتر) إلى الشاب الراقد على السرير وتنهد .. لو كان يتقاضى ماركًا عن كل مرة يرى فيها مخبولاً لصار اليوم مليونيرًا ..

كان الشاب نحيلاً له وجه طويل مع سالفين ضخمين منفوشين، حتى يذكرك بوجوه المذءوبين في أفلام الرعب . وكانت له عينان زرقاوان مخيفتان .. وكلما أخذ شهيقًا عميقًا ابيضت عيناه أكثر ..

سأله د. (هوفمايشتر):

«مصر على هذا الموضوع ؟»

قال الفتى:

«نعم .. أنا أتلاشى يا دكتور .. لم يعد لدي وجود مادي .. أنا أتحول إلى طيف .. لم يعد لي ثقل مادي ولا ظل ..»

كان الطبيب يعرف هذا العرض وقد سمع هذه الشكوى مرارًا .. لكن العلاج موضوع آخر ..

«ومصر على ان هذا حدث لك منذ زيارتك لمصر ؟»

«نعم.. نعم.. كنت هناك مع صديقين لي في نوع من سياحة الفقراء.. لم يكن معنا مال كاف، ولكننا تمكننا من رؤية الكثير هناك .. ثم تعرفت هذا الشاب المصري المهذب الذي يجيد الألمانية .. وقد قبل أن يكون دليلنا..»

«ثم مات..»

«نعم.. نعم.. عرفنا أنه مات بلا تفسير.. أصابنا هذا باكتئاب شديد.. لم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله.. عدنا إلى الوطن، وعدنا نمارس حياتنا العادية .. ثم بدأت ألاحظ هذا التغير في شخصيتي»

ضغط الطبيب على زر جهاز التسجيل ليغلقه، ثم قال في صبر:

«المشكلة في المرض النفسي أن كل واحد يفترض ان حالته فريدة من نوعها.. أنا سمعت شكواك ألف مرة من قبل، ورأيي الخاص أنها حالة عارضة تلت رؤيتك لشاب مليء بالحيوية يموت.. سوف أحاول علاجك ويعلم الله أن هذا لن يكون سهلاً، لكنه ممكن.. المهم أن توقن أنه ممكن..»

نهض الفتى في تثاقل.. وقف أمام المرآة الكبيرة التي يضعها الطبيب في مكتبه.. كان ظهره لها فلم ير انعكاس وجه الطبيب ولا عينيه المتسعتين..

كان الطبيب يقول لنفسه:

«يقول إنه فقد وجوده المادي.. الآن أنا أرى في المرآة وجهي بوضوح تام.. لكني لا ارى انعكاسه برغم انه يقف في مجالها بالضبط.. !.. يبدو أن هناك مجنونًا واحدًا في هذه القصة.. هو أنا!»

****

-3-

ترقص (أكيجي) كما لم ترقص من قبل.. عندما تحتسي الساكي تتحرر من كل القيود.. وقد كان (جوشيما) يراقبها كالمذهول وهي تتلوى في الضوء الأحمر القادم من لا مكان.. الأرض تهتز بالنغمات فتسري في جسدها ليهتز بدوره..

قالت له وهي تلصق رأسها بجبينه:

«أنا أحبك..»

لشد ما تغيرت بعد تلك السياحة التي قامت بها إلى ألمانيا.. كان يتوقع أن يفقدها للأبد، لكنها عادت أشد حرارة.. خفيفة كأنه لا وزن لها..



ثم ذلك الوشم الذي تضعه على كتفها.. عندما دقق النظر فيه شعر بأنه وُضع هناك بالذات ليداري شيئًا آخر.. شيئًا أقرب إلى حرق كهربي.. سألها عنه لكنه وضعت إصبعها على شفتيه بحركة ذات دلال معناها أن يخرس ..

عندما ترقص (أكيجي) يتلون ليل (طوكيو) بلون الخمر ..

عيناها تلمعان في الظلام .. عندما سألها عن ذلك قالت له إنها تلك العدسات الملتصقة الفوسفورية .. عدسات فوسفورية ؟.. إن الموضة لن تنتهي ابدًا ..

(أكيجي) ترقص وتأكل في نهم .. (أكيجي) تنام طيلة النهار وتصحو ليلاً.. (أكيجي) تهيم بك حبًا .. (أكيجي) تريد أن تختلي بك هذه الليلة فهل ترفض؟

(أكيجي) تغيرت كثيرًا، لكن اباك كان يقول: من يضيع وقته في الأسئلة عندما تتفتح أزهار الفرص هو شخص أحمق..

وأنت لست أحمق .. ولن تكون ...

-4-

يقول (فيودوروف) لرفاقه:

-«في طوكيو يستحيل أن يجد المرء نفسه وحيدًا ..»

في (كييف) عندما تنهمر الثلوج وعندما يتجمد بخار الماء على ياقة معطف الفراء، تشعر بأنك وحيد حقًا .. لكن في طوكيو يستحيل أن تكون وحيدًا ..

تسأله (ناتاليا) في مرح:

-«هل تشعر بندم لأنك عدت ؟»

ينظر لها باسمًا ويقول:

«مستحيل .. في النهاية هناك (ناتاليا كوبرين) واحدة ..»

عندما وضع يده على كتفها بدت لها خفيفة جدًا كأنه لا وزن لها .. لشد ما هزل.. تعرف أن الطعام الياباني مثير للاشمئزاز لكن ليس إلى هذا الحد..

تسأله:

«ألم تهتز لوفاة ذلك الفتى الذي كان صديقك ؟»

يهز رأسه كأنما يطرد الذكرى عنه:

«بلى .. فلتأخذني مصيبة إن كنت أكذب ... شاب مفعم بالحيوية يجدونه ميتًا خلف باب غرفته بلا أدنى سبب .. فقط هناك دم غزير ينزف من إصبع قدمه الكبير ..»

قال (ألكسييف):

«هذا شيء شيطاني .. في تراث الكنيسة أن الشيطان يغادر الجسد من هذا الموضع.. طبعًا بعد ما يتلو القس صلاة طرد الأرواح الشريرة..»

قال (فيودوروف) في خبث:

«الفتى ياباني يا عزيزي.. هناك يعبدون بوذا وأشياء من هذا القبيل.. أعتقد أنه لم ير قسًا ولا كنيسة في حياته»

«قلت لي ما اسمه ؟»

«(جوشيما).. ولا تسألني عن الاسم الكامل لأنني لا أملك ذاكرة من حديد»

****

-5-

يتمتع د. (مازورسكي) بحاجبين كثين يعطيانه منظرًا قوطيًا عتيقًا يتناقض مع كونه من ألمع علماء (ناسا)..

إنه جالس في قاعة المحاضرات وخلفه شاشة عملاقة عليها صورة لكوكب الأرض كما تظهره الأقمار الصناعية .. الكوكب المشاغب النزق الذي يبدو مسالمًا وديعًا عندما تراه من بعيد .. هناك عدد من علماء (ناسا) لا يقل عن عشرين يتابعون محاضرته باهتمام بالغ..

يسأله أحد العلماء:

«تونجوسكا من جديد ؟»

يقول:

«لم أزعم هذا .. لا أزعم أن حادثة نيزك تونجوسكا تكررت .. عندنا سقط النيزك العملاق من الفضاء ليلمس الأرض في سيبيريا ثم لم يعد له وجود ولم يجد أحد أثرًا له .. لا . القصة هنا تختلف نوعًا .. هذا نيزك صغير رصدناه يقترب من ساحل البحر المتوسط منذ شهر..»

وأشار إلى جنوب أوروبا وقال:

«ربما هنا ..»

وأشار إلى شمال أفريقيا وأردف:

«أو هنا ..»

قال أحد العلماء:

«لقد صار بوسعنا أن نرصد النيازك بدقة بالغة .. فلا تقل لي إن احداثياتكم تقريبية ..»



قال (مازورسكي):

«للأسف هذا صحيح .. هناك شهود يزعمون سقوطه هنا ..» وأشار إلى بقعة في مصر على ساحل البحر الأحمر وقال:

«لقد ذهبوا إلى هناك في الظلام بحثًا عنه .. يزعمون أنهم وجدوه مفرغًا .. كأن شيئًا كان بداخله ثم غادره .. وعندما اشرقت شمس الصباح عادوا لنفس الموضع فلم يجدوا أي شيء .. طبعًا نحن لا نصدق هذا الهراء، فقد اعتدنا هذيان الشهود والقصص المتناقضة .. ولهذا لا اقبل قصة البحر الأحمر بشكل مطلق ..»

ثم أشار إلى دائرة كبيرة تحيط بشرق البحر المتوسط وقال:

«يجب أن نراجع الإحداثيات ونعرف أين ذهب حقًا .. هذا هو عملكم وسبب طلبي اجتماعكم هنا»

سأله أحدهم:

«وماذا لو كان كلام الشهود صحيحًا ؟.. ماذا لو كان النيزك يحوي شيئًا غادره وفر ؟»

نظر له (مازورسكي) في غموض ثم قال:

«عندها تكون أفظع مشكلة نقابلها هنا في ناسا»

****

-6-

تقول لي (سلوى) وهي تمتص ما بقى في كوبها من عصير ليمون:

«هذا هو سبب بقائي ساهرة ليلتها .. كنا في ذلك الفندق في (القصير) كما رتبت لنا الكلية .. أنت تعرف أننا نخرج في رحلات كثيرة إلى البحر الأحمر .. نامت الفتيات جميعًا ووقفت في الشرفة وحدي أنظر لليل ..

فجأة رأيت ذلك الشيء يهوي من السماء .. لا أدري أية شجاعة جعلتني أبقى متصلبة كما أنا بينما تلك الأشياء الغريبة تحدث ..»

نظرت لها في ثبات وبعصبية سألتها:

«أية أشياء ؟»

امتصت الليمون وزاغت عيناها وبعد تفكير طويل قالت:

«لا أدري !»

«أنت مفيدة حقًا ..»

«صدقني لا أعرف ما رأيت .. فقط كان غريبًا جدًا .. وعندما أفقت بعد قليل كنت في فراشي أنظر إلى السقف .. أشعر بأنني خفيفة جدًا .. كأنني تحررت من أي ارتباط مادي لي ..»

ثم أشارت إلى كتفها وقالت:

«هناك حرق غريب الشكل هنا .. لا أعرف مصدره .. فقط أخبرت (عمرو) ـ رحمه الله ـ بهذا وكان رأيه كرأيك: أنا مجرد حمقاء هستيرية .. لا أعرف لماذا قال هذا ..»

«ربما لأنك مجرد حمقاء هستيرية»

مدت يدها تحت المنضدة وراحت تعبث هنا وهناك وفي النهاية فوجئت بقدمها العارية تضرب ساقي .. لقد نزعت حذاءها الرياضي لتريني شيئًا ما ..

قالت وهي تضحك:

«لا أعرف إن كان لهذا أهمية ما أم هو ضرب آخر من ضروب حماقتي .. إن أصبع قدمي الكبير صار متورمًا داميًا .. كأن به كائنًا حبيسًا يحاول التحرر .. أحيانًا أشعر بأن الظفر يحاول أن ينفتح كبوابة مغلقة ليخرج منها شيء ما .. ما رأيك ؟»

نظرت لقدمها الكبيرة وقلت لنفسي إنها سمراء رقيقة، لكن قدمها لم تظفر بشيء من هذا الجمال .. إصبع به شيء يحاول التحرر ؟.. إن السخف البشري لن يتوقف عند حد...

****

ت. د. م

عندما كنت في لندن، في تلك الفترة الثرية التي قضيتها مع د. (جيمس ماتيسون) ومع جمعية البحوث الروحانية البريطانية، مررت بتجارب عديدة هي التي دفعتني إلى أن أكتب هذه الأوراق .. لو لم تدون ما رأيت وسمعت وعرفت لما شعر بك أحد، ولما عرف أحد أنك كنت هنا .. ما قيمة سقراط لو لم يدون أفلاطون محادثاته ؟.. هل كنا سنعرف أن هذا الرجل مشى يومًا على تراب أثينا ؟..

أنا لست سقراط .. لكني أكره ألا يعرف أحد أنني كنت هنا وأنني عشت ردحًا من الزمن، ولا أنني عرفت الكثير من الأمور المثيرة ..

كان لقائي الأول مع أحد العائدين من الموت في المستشفى الملكي المجاني في (إدنبره).. اصطحبني د. (جيمس ماتيسون) إلى هناك بسيارته الصغيرة التي تتحرك بمعجزة، ومشينا في ممر طويل إلى أن بلغنا الغرفة رقم (207)..

غرفة جميلة هي يغمرها ضوء الشمس وهناك مزهرية بها أزهار طازجة على منضدة .. فوق الفراش صليب كبير عند رأس المريضة ...

في الفراش نفسه تجلس مسز (إلين مكالستر) .. امرأة في الأربعين من عمرها على قدر من الجمال والوقار، حتى وإن كانت مريضة .. كانت تكلمنا وهي تلتهم إفطارها وأسلاك الأقطاب تبرز من تحت قميص نومها.. والشاشة جوار الفراش لا تكف عن تسجيل نبضات ذلك القلب الذي قرر أن يكف عن العمل منذ يومين ..

وضع د. (ماتيسون) ما جلبه من أزهار جوار الفراش، وأخرج مفكرة وقلمًا، ثم نظر لها ورفع حاجبيه بما معناه (تكلمي)..

قالت بلكنتها الأسكتلندية المضحكة نوعًا:

«طلبت أن أقابلك ..عرفت أنك الوحيد الذي يفهم ما أحكيه بينما سيسخر الآخرون مني ..»

ابتسم ولم يتكلم فأردفت وهي تدس ملعقة (الجيلي) في فمها:

«كانت هناك تلك الاضطرابات في النبض تأتي وتروح .. اعتدت هذا.. إنني مدخنة .أشرب جالونات من القهوة وعملي لا يخلو من توتر.. إنني سكرتيرة تحرير في صحيفة، وهذه المهنة هي التوتر ذاته .. أكثرنا يموت بنوبات قلبية على كل حال ..

«كنت أقف في المطبخ أعد لنفسي بعض القهوة، وزوجي في قاعة الجلوس.. لا أدري ما حدث، لكني قلت لنفسي إنني أفرطت في التدخين .. إن ضربات قلبي غير منتظمة.. غير منتظمة على الإطلاق ... ثم لم استكمل الخاطرة لأني سقطت في عالم الظلام....

«فيما بعد عرفت أن زوجي سمع صوت الارتطام فهرع إلى المطبخ ليجدني على الأرض وقد غطت الرغوة شفتي .. اتصل بالإسعاف كالملسوع .. وسرعان ما جاء هؤلاء ليجدوا أن قلبي قد توقف .. اضطروا لإجراء عملية إنعاش قلبي تنفسي على أرض المطبخ ... ثم حملوني حملاً إلى السيارة ..

«في المستشفى توقف قلبي من جديد فاضطروا إلى توجيه صدمات كهربية له .. لم أدر بشيء من هذا .. لكني شعرت بشيء غريب ..

«كنت أرتفع .. أرتفع في سماء الغرفة ... أسمع أزيزًا في أذني وأشعر براحة نفسية غير مسبوقة .. أنا أرى جسدي.. أراني راقدة على محفة والأطباء محتشدين حولي وهم يضعون تلك الأقطاب على صدري.. بوم!... أنتفض ويرتفع رأسي ثم يهوى من جديد .. من الغريب أن هذا بدا باعثًا على التسلية لي..

«كان هناك ظلام.. ثم رأيت ذلك النفق الطويل كأنفاق القطارات .. في نهايته كان نور ساطع يناديني .. شعرت أنني أسبح فيه .. أرى وجوهًا لم أرها منذ دهر .. ثمة رجال ينظرون لي باسمين ..

«فجأة شعرت أنني أعود إلى جسدي .. فجأة شعرت بأن ذلك الشعور اللذيذ يزول، وهأنذا على المحفة من جديد لكني أفتح عيني وأسعل .. أسعل...

«قال أحدهم: لقد عادت ..! وسرعان ما كانوا يضخون محلولاً ما في عروقي وينقلونني إلى العناية المركزة ..»

ثم قالت في اعتزاز وهي ترتجف:

«لقد ذهبت إلى هناك وعدت .. أنا محظوظة .. منذ هذه اللحظة لن أخاف الموت .. سوف أنتظر العودة إلى ذلك النفق الطويل الجميل ...»

ربت الرحل على كتفها وقال كلامًا كثيرًا عن أنه يرى هذه تجربة مثيرة، ولكم يود لو مارسها .. لكنه أكد لها أصالة ما عاشته ..

خرج من المستشفى بخطواته العجول، فرحت أركض لاهثًا لألحق به.. وسألته:

«ما كان معنى هذا بالله عليك ؟»

قال وهو مستمر في السير الحثيث:

«إنها تحكي نموذجًا كلاسيكيًا لحالة NDE .. أي (تجربة الدنو من الموت)... هذا هو ما يقوله الجميع وإن لم يكن بهذا الوضوح .. هناك لمسة من تجربة أخرى هي (تجربة الخروج من الجسد)..»

على منضدة الإفطار في مطعم اسكتلندي صغير راح يشرح لي:

«في 12٪ من المرضى الذين يمرون بحالة توقف للقلب ، تكون هناك هذه الذكرى المبهمة عن الخروج من الجسد ..»

ثم راح يعد على أصابعه:

«هناك صوت الأزيز ... هناك ذلك الشعور العام بالسرور والسلام .. هناك النفق .. دائمًا النفق الذي يوجد الضوء في آخره .. ضوء ساطع





يعمي العيون .. التحليق ... ثم يعود المريض للحياة فيمر بنزعة صوفية .. يشعر بحقيقة العالم الآخر والاقتراب من خالقه .. على أنه بعد فترة يمر بحالات اكتئاب قد تنتهي بالانتحار ..»

-«إذن فتجربة الموت بهيجة حقًا لو كان وصفهم دقيقًا ..»

-«ليس تمامًا .. هناك من حكوا عن ظلام وعمليات تعذيب على أيدي شياطين أو أقزام .. يرى المتدينون إن هذا هو الدليل على وجود جنة ونار... أهم عالم درس هذه الظواهر اسمه (ريمون مودي) وهو يرى أن هذه التجارب قد حلت السؤال الأبدي الذي عذب البشر: ماذا يوجد هناك؟»

قلت له في حذر:

-«أنا أؤمن بالجنة والنار طبعًا، لكن هل هذه الخبرات دليل على وجودهما فعلاً ؟..»

قال باسمًا:

-«هذا هو بيت القصيد .. لو كان هؤلاء واهمين فهذا لا يمس الدين في شيء .. فقط يمس مفهوم الـ NDE»

-«هل تؤمن أنت بهذا الـ NDE ؟»

-«أنا متعادل كما قلت لك ألف مرة .. أنا أجمع الأدلة وأفندها .. هناك علماء كثيرون لا يعتقدون بصحة هذه الظاهرة .. لقد وصف كثيرون ذات الرؤى أثناء جراحات المخ والأعصاب لدى تنبيه الفص الصدغي .. ووصفوها عندما ينقص الدم الواصل إلى الدماغ .. هناك عقارات تسبب ذات الرؤى وأهمها (الكيتامين) كما يقول د. (يانسن) في أبحاثه ..كل جندي أمريكي تم تخديره بمادة (كيتامين) أثناء حرب فيتنام مر بتجربة مماثلة .. هناك عالم اسمه (بلاكمور) قال إن سبب هذا الشعور العارم بالراحة والسلام هو إفراز مادة (الاندورفين) في المخ .. هذه

المادة مخدرة وتسبب حالة عامة من الانبساط .. والمخ البشري يحتفظ بها للحظات النهاية الأليمة كي يوفر على صاحبه عذابًا لا نفع منه .. كثيرون اتهموا مادة DMT التي يفرزها الجسم الصنوبري في المخ بأنها مسئولة عن هذه الرؤى ..»

ثم أضاف وهو يفتح باب سيارته:

«إن نسبة 12٪ ليست نسبة عالية إذا خيل لك هذا ... لو كان هؤلاء فعلاً يقتربون من العالم الآخر، فلماذا لا يمر الجميع بذات الظروف ؟... وإذا كانت هذه مجرد ظاهرة كيميائية فلماذا لم يرها كل من عاني توقف القلب للحظات ؟»

ثم أدار المحرك وقال في شيء من الخبث:

«على أن في قصة هذه السيدة شيئًا مريبًا .. إنها رأت كل ما رآه من مروا بالتجربة بالجملة .. لا يحكي كل الناس ذات التفاصيل مجتمعة، لكنها رأت كل شيء .. هذا يعطي انطباعًا بأنها لا تحكي ما رأته لكنها تحكي عشرات الخبرات السابقة التي قرأت عنها ..»

«هل تعني أنها تكذب ؟»

قال باسمًا:

«المخ البشري معقد أكثر مما تتصور يا صديقي .. هناك ما يدعى (الذاكرة الزائفة).. ربما هي لم تر شيئًا لكنها الآن تعتقد صادقة إنها رأت كل هذا .. لقد تكفل عقلها بتلفيق ملف كامل لخبرات لا وجود لها وهي تثق أن هذا الملف حقيقي .. ثم لا تنس حقيقة أخرى ..»

وأردف:

«لم يستخدم الأطباء أية أقطاب كهربية على قلبها كما رأت أثناء خروجها من الجسد !... لقد استعادت وعيها قبل أن يفعلوا هذا !»

كنت أنا غارقًا في أفكاري الخاصة .. NDE لو ترجمت لصارت ت. د. م (تجربة الدنو من الموت).. كانت لي جدة لاقت ربها منذ أعوام، وكنت انا أقف جوار فراشها لحظة الاحتضار .. سمعتها تقول: «أغلقوا النوافذ .. إن هذا النور يعميني ...» ثم بدأت تلقي تحياتها على سيدنا الخضر وعلى زوجها المتوفى منذ أعوام .. بالنسبة لنساء الأسرة كان هذا دليلاً لا يدحض على ان الجدة في طريقها إلى الجنة .. ماذا لو سمعن عن رأي د. (بلاكمور) في الأمر ؟.. هذه ليست سوى (ت. د. م) سببها نقص وصول الأكسجين إلى مخ الجدة ؟..

كنا الآن ننهب الأرض نهبًا وسط أراض ريفية، وكان د. (ماتيسون) لا يكف عن الثرثرة ....

فجأة سمعته يهتف:

ـ«لكنها لا تعمل !»

ما هي التي لا تعمل ؟

نظرت أول ما نظرت إلى اليمين حيث جلس خلف المقود .. اليمين ؟.. نعم .. لا تنس أننا في بريطانيا ..كان يدوس بقدمه على الفرملة في جنون ممارسًا ما يسميه الميكانيكية عندنا (مكاركة).. رفعت عيني إلى الطريق لأرى تلك الشاحنة المرعبة قادمة نحونا كالموت وجهًا لوجه وسائقها لا يكف عن إطلاق سرينته ..

بالطبع لم يكن الوقت كافيًا لشيء ..

أدار جاري المقود بسرعة فانحدرت السيارة إلى جانب الطريق وراحت تتدحرج وسط الأشجار ..راح يلف المقود بسرعة جنونية وهذا زاد الأمر سوءاً ..

هنا تأتي اللحظة التي ترى فيها أن السماء صارت تحتك وأنك بلا وزن تقريبًا ... دورة .. دورتان .. ثم الارتطام الأخير بالأرض .. رائحة البنزين

وانت تتدلى من حزام الأمان ورأسك فوق سقف العربة .. لقد انقلبت السيارة الصغيرة كدمية لعب بها طفل عابث ..

أما الشاحنة فلا أثر لها .. كأنها كانت في كابوس ....

فككت الحزام لأسقط على رأسي، ثم عالجت الباب لأخرج منه وزحفت على ركبتي بضعة أمتار .. أنا سليم .. كل شيء يؤلمني لكنني سليم ..

درت حول السيارة لأعالج الباب الآخر حتى أخرجت د. (ماتيسون).. لا تخافوا .. لم يمت ولن يموت لكني لم أعرف هذا في تلك اللحظات ..

كان مغمض العينين والدم يغطي وجهه .. وتلمست نبضه الواهن فأدركت أن الأمر خطر فعلاً ... ثمة رجل ضخم يقف على بعد أمتار منا وقد بدت عليه الحيرة .. صحت فيه، وأنا أريح رأس الدكتور على الكلأ:

«أطلب الإسعاف فورًا ..!»

هرع ليجلب النجدة بينما رحت أنظف وجه الدكتور (ماتيسون) بمنديلي .. لابد أنني سليم ما دمت أفعل هذا كله ..

هنا فتح عينه وبصوت واهن قال:

«لا أراك !.. كل هذا النور الساطع !... هل هناك كشاف مسلط على وجهي ؟..»

ثم بلل شفته بلسانه وهمس:

«النفق .. إنني أطفو متجهًا لنهاية النفق !»

ومن جديد غاب عن الوجود .. قلت في سري: ما هي الحقيقة ؟.. هل أنت بالفعل يا دكتور على أعتاب الأبدية، تمارس حرفيًا الـ(ت. د. م) وتقول ما قاله الآخرون ؟

أم أنت ببساطة تعاني حالة من نقص الدم الواصل إلى الدماغ ؟.. تعاني أعراض تنبيه الفص الصدغي، مع الكثير من مادة الإندورفين التي تعطيك هذا الشعور الزائف بالسلام ؟.. ربما أنت تتخيل .. ربما ترددت كلمات المرأة التي سمعناها منذ نصف ساعة في ذاكرتك .. ربما هي خبراتك تخرج للسطح الآن .. لكن هل تسامحني لو لم أصدقك ؟.. أنت من بذر بذور الشك في نفسي تجاه تلك القصص .. هل نسيت هذا ؟... أنت أعطيتني النصل الذي سيدميك كثيرًا فيما بعد ..

لا أعرف الإجابة .. المهم أن أحافظ عليك .. أن أبقيك حيًا إلى أن تصل سيارة الإسعاف ..

من بعيد اسمع السرينة المميزة، وأقول لنفسي إنه سيعيش .. سيعيش ..

يومًا ما سأواجه انا تجربتي الخاصة مع (ت. د. م)، ولسوف أعرف وقتها الحقيقة .. لكن ما يضايقني هو أنني لن أعرف أنني عرفت، ولن أعود إلى عالم الأحياء لأقص عليهم ما رأيته بنفسي .. حتى لو عدت فلن يصدقوني ...

المهم الآن أن ننقذك يا دكتور .. ولنترك الأسئلة الميتافيزيقية إلى وقتها المناسب .

****

الفهرس